أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

دراسات أندلسية

٧٥ ك

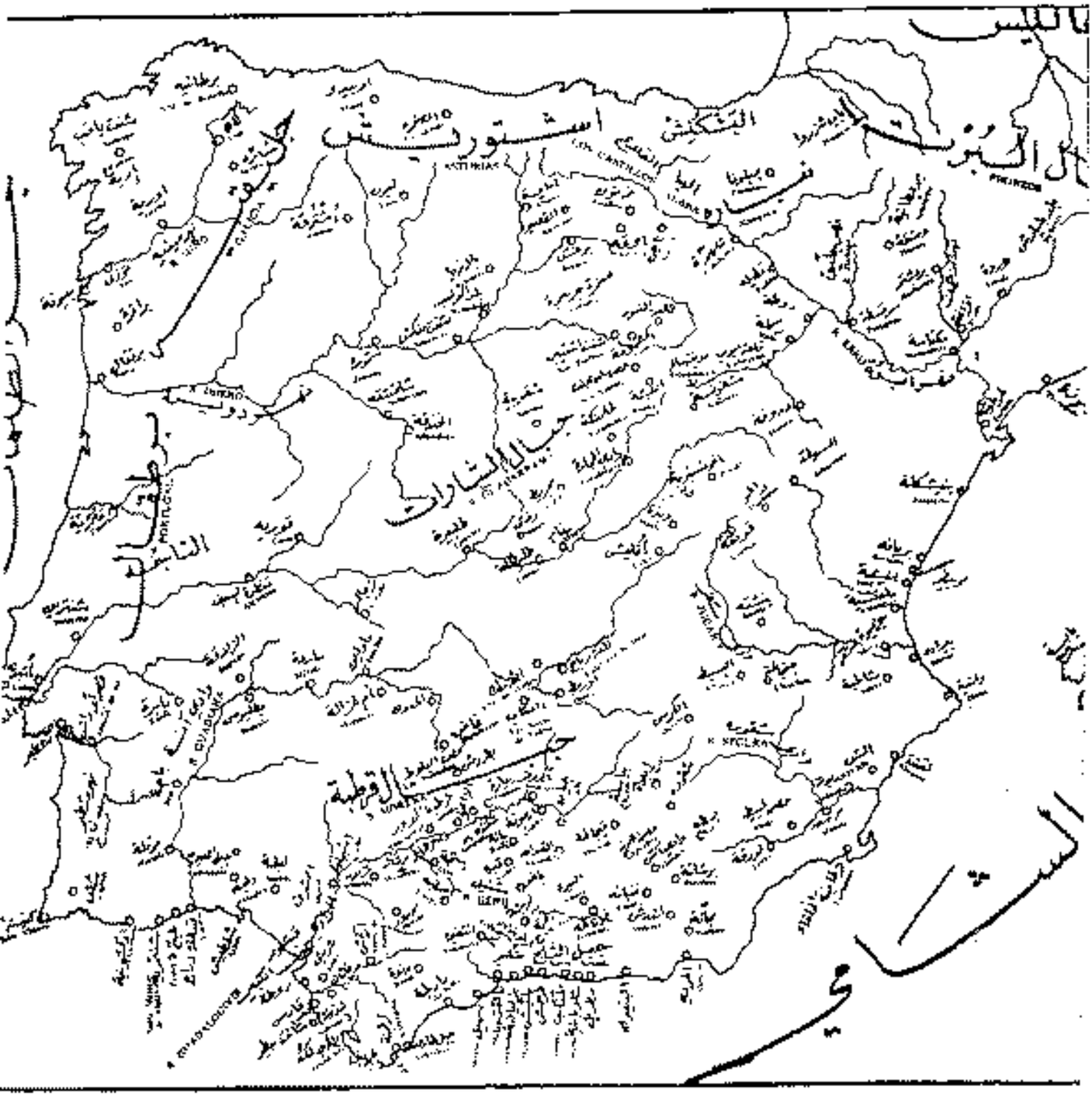

ذو القعدة 1409 العدد 2 : خاص بابن الأبار جوان 1989

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مجلّـــة دراســـات أندلسيـــة

مجلّة علميّة مختصة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية

مؤسسهـا ومديرهـا
جمعـــة شيخـــة

الأعضاء الاستشاريون : الدكتور عبد السلام المـدّي، الدكتور محمد اليعلاوي (من تونس)، الدكتور عبد القادر زمامة (من المغرب)، الدكتور ميكال دي إبلزا (من إسبانيا).

تصدر المجلة مرّتين كل سنة في جانفي وجوان.

ثمن العدد :
ـــ بتونس : 3,000 د.
ـــ بالبلدان العربية : 4,000 د.
ـــ بقية البلدان : 5,000 د.

توجّه المراسلات باسم مدير المجلة إلى العنوان التالي : د. جمعة شيخة

ص. ب. رقم 51 ـ 1008 تونس ـ باب منارة ـ الجمهورية التونسية ـ تليفون : 227.616

تسدد قيمة الاشتراكات عن طريق حوالة بريدية في الحساب الجاري 94 ـ 543 تونس أو بواسطة حوالة بنكية.

لا تلتزم المجلة بما ينشر فيها من آراء، ولا ترد الفصول المخطوطة إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.

ـــ يرجى من المؤلّفين أن يرفقوا مقالاتهم بملخّص بالعربية أو الفرنسية.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مجلـــــة
دراسات أندلسية

العدد الثاني (خاص) بابن الأبّار

1989 / 1409

تونـــــس

طبع بمطبعة المغاربية للطّباعة والنشر والإشهار
(3200 نسخة)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفهـــرس

الصفحة

جمعة شيخة : تصدير 3
أعمال ملتقى ابن الأبّار بأندة 5
رشاد الإمام : ابن الأبّار وعصره في تونس 6
جمعة شيخة : القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبّار 32
ـــ تقديم الديوان 32
ـــ العنصر الأندلسي في الديوان 39
ـــ العنصر الإفريقي « « 63
ـــ المشرق العربي « « 110
ـــ مقتل ابن الأبّار 111
عبد السلام الفرّاس : شاعر وفي لوطنه 117

قائمة كتب أندلسية وغيرها منشورات :

ـــ الدار التونسية للنشر 31
ـــ الدار العربية للكتاب 116
ـــ دار الزكي للنشر 131

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تصدير

هذا العدد الثاني من مجلة (دراسات أندلسية) يصدر في موعده الذي حدد له وضبط. ولمن عرفنا وتجاهلنا، أو شك في نزاهتنا وجدّيتنا، نقول : إننا على الموعد دائما وسنبقى. ومجلّة (دراسات أندلسيّة) وجدت لتستمرّ في خدمة تراث إنساني خالد مازال يعبق أريجه إلى اليوم . وما لاح في الأفق من صعوبات منتظرة وغير منتظرة لايغلّ من عزيمتنا ولا ينقص من ثقتنا في أنّ المشرّع التونسي بالأمس واليوم حبا ومازال يحبو الثقافة بربوعنا بكثير من عنايته وتشجيعه .

والدّراسات الأندلسيةّ كغيرها من ميادين النّشاط الثقافي شملتها هذه العناية . فبين ظهور العدد الأوّل من مجلّتنا في ديسمبر 1988 وصدور العدد الثاني هذا في جوان 1989 شاركت تونس على المستويين الرّسمي والفكري في ثلاث ملتقيات تهمّ الأندلس :

ففي تونس عاش الجامعيّون الإسبان والتونسيون أسبوعا ثريا بالدّراسات العلميّة والبحوث الأكاديميّة حول التّراث الأندلسي وتأثيره في الثقافة العربيّة والإسبانيّة قديما وحديثا . وقد نظمّ هذا الملتقى مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس[1] من 3 إلى 10 فيفري 1989[2].

وفي ألذة المدينة الأندلسيّة الحالمة التأم ملتقى علمي حول الشّاعر والمؤرّخ الكبير ابن الأبّار البلنسي نظّمته جامعة أليكانت تحت إشراف اللّجنة الثقافية للتربية والعلوم ببلنسيّة ومشاركة بلديّة أندة[3] ، من 20 إلى 22 فيفري 1989[4] .

وفي تونس ثانية انعقد بإشراف مركز الدّراسات والبحوث العثمانيّة والموريسكيّة والتوثيق والمعلومات بغرناطة ، المؤتمر العالمي الرّابع للدّراسات الموريسكيّة حول الموريسكيّين

(1) وعد الدّكتور عبد الوهاب بوحديبة مدير المركز المنظم للملتقى نشر أعماله في كتاب خاص .

(2) افتتح هذا الملتقى الدّكتور عبد السّلام المسدّي وزير التّعليم العالي والبحث العلمي .

(3) اقتسمت مجلّة شرق الأندلس ومجلّة (دراسات أندلسيّة) نشر أعمال هذا الملتقى . وها هي مجلّة (دراسات أندلسيّة) تفي بوعدها وتنشر البحوث التي ألقيت بالعربيّة في ملتقى ابن الأبّار في عددها هذا الثّاني . وستنشر مجلّة (شرق الأندلس) البحوث التي قدّمت بالإسبانية والفرنسيّة .

(4) حضر هذا الملتقى يوم افتتاحه سفير تونس بمدريد الأستاذ عبد الرزّاق الكافي، وكان العلم التونسي يرفرف فوق بلديّة أندة طيلة انعقاد النّدوة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتفكيرهم الديني وإشكاليّة الكتابة التاريخيّة والعربيّة الإسلاميّة عن المورسكيّين[5] من 15 إلى 19 مارس 1989[6].

ولا نرى في هذه الملتقيات إلاّ ضربا من لقاء العلماء الأجلاّء والباحثين المختصّين في ميدان من المعرفة مضبوط ومحدّد لتدقيق المناهج ، وتبادل الخبرات ، وتوسيع الآفاق . لقد كان العلماء في القرون الماضية يشدّون الرحال ويضربون في الأرض وينتقلون من قطر إلى قطر للقاء عالم أديب ، أو مدرّس لبيب ، أوفقيه له نظر ودراية ، أو محدّث له حفظ ورواية. فينا ترى أحدهم في هذا البلد جالسا جلسة المتعلّم منتقلا من حلقة إلى أخرى يكرع من ينابيع المعرفة ، ويطلب إجازته من شيوخه فيُجاز ، تراه في بلد آخر وقد تصدّر حلقة الدرس يحدّث بما علم ، ويشرح ما غمض ،ويجيب من سأل ، ويجيز من طلب . وهو لا يتحرجّ من أن يكون الطالب المستفيد حينا ، والشيخ العالم حينا آخر . كلّ ذلك في تواضع من لا يشبع طالبا ، وفي أريحيّة من لا ينضب عطاء .

وقد لا نجد فرقا بين هذا العالم الرحّالة مع من يلتقي بهم في بلدان مختلفة ، وبين الملتقيات العلميّة اليوم . فينا ترى الأستاذ والباحث الشهير متحدّثا في اختصاصه محلّلا ، والآذان إلى كلامه صاغية والأنظار إلى حركاته شاخصة ، تراه بعد قليل مستمعا بدوره منصتا ، ولم لا مستفيدا ومستفسرا ! وبهذا التداول تتلاقح الأفكار ، وتتدقّق المعلومات ، وتتطوّر البحوث وتتقدّم العلوم . فكم من فكرة في الذّهن غامضة اتّضحت ، وكم منهج في البحث غير قويم استقام ، وكم من رأي غير صائب تمسّك به صاحبه طويلا فتخلّى عنه وقد تجلّت له الحقيقة . وترى القوم بعد ذلك — خلال فترة الاستراحة — ما بين مجيب عن سؤال ، أو مستفسر عن مقال ، أو مُهدٍ لكتاب . خلال ذلك نوادر تُحكى وطرائف تُروى تهيّئ النفوس للأخذ والعطاء في جلسة علميّة أخرى دسمة.

إنّ عصرنا بكلّ ما أوتي من وسائل تقنية في التبليغ متطوّرة قضى بها على الرّغبة في مصاحبة الكتاب ، وأغرى النّاس بالثقافة السّريعة السّهلة والسطحية أحيانا ، سوف لن يقدر على المسّ من ناموس الملتقيات العلميّة والنّدوات الفكريّة . فهذه لها نكهتها وطرافتها وفائدتها وستبقى ما بقي الإيمان بالثقافة الحرّة الأصيلة المتفتحة .

د. جمعة شيحة

مدير المجلّة

---

(5) وعد الدّكتور عبد الجليل التميمي مدير المركز المنظم للملتقى بنشر أعماله في كتاب خاص .

(6) دشن الأستاذ الحبيب بولعراس وزير الشؤون الثقافية مكتبة المركز برغوان يوم افتتاح المؤتمر في 1989/3/15 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أعمال ملتقى ابن الأبّار بأندة

انعقد في الفترة ما بين 20 فيفري 1989 إلى 22 منه ملتقى علمي حول الشاعر والمؤرخ الكبير ابن الأبّار ـــ البلنسي مولدا التونسي وفاة ـــ بمدينة أندة الإسبانية .

والشخصيّة التي انعقد المؤتمر تحت اسمها شخصيّة علميّة وأدبيّة مرموقة . جمعت ـــ فيما خلّفته لنا من آثار ـــ مع الإبداع الأدبي شعرا ونثرا ، التصانيف العلميّة : ترجمة وتاريخا ، فكانت بحقّ موسوعة علميّة لا غنى للباحثين في تاريخ الأندلس وإفريقيّة وحضارتهما عنها .

وقد وقع الاتفاق على أن تنشر مجلّة (شرق الأندلس) الإسبانية البحوث التي ألقيت باللّغتين الإسبانيّة والفرنسيّة وتتولّى مجلّة (دراسات أندلسيّة) التونسيّة نشر البحوث التي ألقيت بالعربيّة وهي أربعة :

1 ـــ ابن الأبّار وعصره في تونس : للدّكتور رشاد الإمام من تونس .
2 ـــ القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأبّار : للدّكتور جمعة شيخة من تونس .
3 ـــ شاعر وفي لوطنه : للدّكتور عبد السّلام الهرّاس من المغرب .
4 ـــ بين ابن الأبّار وابن عميرة : للدّكتور محمد بن شريفة من المغرب(*).

(*) لم يصلنا النصّ النهائي من الأستاذ ابن شريفة إلى حدّ طبع هذا العدد . لذا نرجىء نشر مقاله إلى العدد المقبل في ديسمبر 1989 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ابن الأبّار وعصره في تونس

بقلم الدّكتور رشاد الإمام

سنحاول في هذا البحث التّركيز على محورين هامين يتعلقان بأمرين شغلا بالنا منذ زمن : الأمر الأوّل هو خلفيات مقتل العالم والشاعر ابن الأبّار (قتل 20 محرّم 6/658 جانفي 1260) بتونس تنفيذا لأوامر المستنصر بالله الحفصي ، ثمّ حرقت أشلاؤه وكتبه وإجازاته وأشعاره وأوراقه معه . وهو حدث يبعث في نفس الباحث الاستغراب من شدّة هذا العقاب الرّهيب وعنفه ، وحثّه على البحث والتّنقيب عن خلفيّات هذا الإجراء النّادر حصوله في تونس ، خاصة وأنّه حصل والدّولة الحفصيّة في عنفوان شبابها وفي أوج قوّتها وعزّتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية نفّذ هذا العقاب المؤلم بل الغريب على أحد كبار علماء الأندلس البارزين لمبجّلين الذين شجّعهم الأمراء الحفصيون على الإقامة بتونس عاصمتهم بصفة نهائيّة ، وأزجلوا لهم العطاء والتّبجيل والتّكريم . الأمر الثاني الذي سنركّز عليه في هذا البحث هو محاولة إبراز أهمّية تواجد العلماء الأندلسيين في تونس وتأثيرهم في مختلف الاختصاصات والعلوم فيها ، والنهوض بتلك العلوم والمعارف إلى مستويات أرقى وأعظم ، بل إدخال طرق وأساليب وعلوم ومناهج ومواد دراسية ومهن وتقنيات جديدة انتفعت بها تونس إفادة منقطعة النظير في القرن 13/7 وما بعده .

وفي هذا الفصل الذي سنحاول فيه بحث أهمّية هجرة الأندلسيين إلى تونس في أوّل عهد الدّولة الحفصية ، سنستقصي أيضا دور ابن الأبّار شخصيّا ومشاركاته في

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هذا التأثير العلمي والثقافي والحضاري الممتاز الذي يعود الفضل فيه إلى مهاجري الأندلس .

أوّلا : ابن الأبّار ونكبته في تونس ، العوامل والخلفيّات:

العنصر الأوّل: حلّ أبو عبد اللّه محمّد بن عبد اللّه بن أحمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار بتونس سنة 1238/635 في عهد أبي زكرياء الحفصي (ت 1249/647)، مؤسّس الدّولة الحفصيّة المستقلّة عن الموحّدين في المغرب الأقصى .

وكان أبو زكرياء وخليفته المستنصر (ت 1277/676) ومن تولّى بعدهما من أوائل خلفاء الحفصيين رجالا أقوياء وشدادا ، تفانوا في الذّود عن عرشهم وعن دولتهم الفتيّة التي لم يمرّ على تاريخ استقلالها رسميا سنة 1237/635 سوى عشر سنوات تقريبا لمّا حلّ ابن الأبّار بحاضرتهم سنة 1238/636 . وقد نجح أبو زكرياء والمستنصر خاصة في إقامة دولة عتيدة من سنة 1228/625 إلى 1574/982 . وهي أطول فترة تاريخية حكمتها دولة واحدة في كامل تاريخ تونس .

ومن سوء حظ ابن الأبّار أنّه حلّ بتونس في عهد أعظم حاكمين حفصيين بل مؤسّسي الدّولة وهي في عنفوان شبابها . ولا يخفى على أحد مدى غيرة مؤسّس عرش جديد على حماية ذلك العرش وترسيخ أسسه مهما كلّفه ذلك من تضحيات ، بل من عنف وبطش إذا اقتضى الحال ذلك . خاصة إذا وضعنا هذا الحدث في إطاره التّاريخي أي في العصر الوسيط (القرن13/7) .

ومن أوّل ما يجب أن نلاحظه في أسباب نكبة ابن الأبّار وخلفيّاتها أنّ موازين القوى العرقية في المجتمع الإسلامي بدأت تتغيّر عما كانت عليه من قبل ، وخاصّة بعد النّكبات التي كانت تحلّ دائما بالموالي من بربر وفرس وأتراك على يد العنصر العرقي العربي الغالب والمتفوّق والحاكم . وهنا لنا أن نتذكّر نكبات عدّة عرقية مثل نكبة البرامكة ونكبة طارق بن زياد بعد عبوره وانتصاره في أوّل وقائع فتح المسلمين للأندلس وأعظمها .

قلنا تغيّرت الأوضاع وتبدلت الأسر الحاكمة القويّة خاصة في شمال إفريقيا والأندلس . فالحفصيون بربر قدموا من جبال الأطلس ببلاد المغرب الأقصى . وهذه

النّزعة البربرية التي تجري في دمائهم كانت واضحة جدّا لدى الحفصيين سواء في طريقة حكمهم الصلبة أو معاملاتهم الحازمة مع رعيّتهم في الداخل ، أو مجابهاتهم الشّرسة العنيفة والعتيدة للقوى والدّول الأجنبية التي كانت دائمة التّهديد أو التخطيط للنّيل من سلامتهم واستقلالهم[1].

لمّا توفي أبو زكرياء الحفصي كانت كامل البلاد التّونسيّة من طرابلس إل بجاية تحت سلطته . وكانت أنظمة هذه الدولة الشّاسعة محكمة سواء في المجال السّياسي أو الإداري أو الأمني ، وحتّى القبائل والعروش التي اعتادت على إحداث الإضطرابات وإعلان العصيان وإثارة النزاعات أُجْبِر أهلها على الانضباط والانصياع والطاعة .

عندما تولّى المستنصر حكم الدّولة الحفصيّة سنة 1249/647 واصل تركيز أعمدة الدولة بكلّ كفاءة وجدارة إلى أن بلغت دولته شأوًا من المناعة والقوّة جعلتاه يتلقّب بخليفة المؤمنين .

وأصبحت الدّولة الحفصية تكاد تكون الدّولة الوحيدة في العالم الإسلامي التي يسود فيها الاستقرار والهيبة وبالتّالي القوة والمناعة . وهذا ينطبق على البلاد الإسلاميّة بجناحيها المشرقي والمغربي .

وهذا السؤدد يتجلّى في أنّ لويس التّاسع لمّا هاجم تونس في الحملة الصليبيّة الثّامنة سنة 1270/669 ، بعد مقتل ابن الأبّار بعشر سنوات ، كان يظن أنّ بقضائه على الدّولة الحفصيّة القويّة في قلب العالم الإسلامي يكون قضى على أهمّ دولة في ذلك العالم الممزّق داخليا والمنهزم أمام القوى الأجنبيّة خارجيّا[2] .

نعتقد إذًا أنّه من سوء حظ ابن الأبّار أنّه نزل تونس ، وهو المتيّم بحبّ السّلطة والنّفوذ ، والدّولة الحفصيّة الفتيّة في فترة التّدعيم والتّركيز والتّشييد . وما أخطر تلك الفترات على رجالات الحكم والدولة ، وما أشدّها حساسية وما أكثرها مآخذ وانزلاقات

---

(1) H.R. Idris, «Hafsids» The encyclopedia of Islam, New Edition, Grill-Luzac, 1965, vol 3, pp 66-69 .

سنشير إلى هذا المرجع فيما يلي من هذه الدراسة بدائرة المعارف الإسلامية.

(2) الزّركشي : تاريخ الدولتين ص 27 — 40 ط تونس 1966. و: ح. ح. عبد الوهّاب : خلاصة تاريخ تونس ص 105 — 116 ط 1953 .

إنه لو تأخّر حلول ابن الأبّار بتونس سبع عشرة سنة فقط لوجد خليفةَ المستنصر سنة 1277/676 أكثر لينا وأقلّ جرأة لأخذ قرار القتل والتّمثيل والحرق فيه أو في غيره .

وإذا كانت الدّولة الحفصيّة في عصر فتوّتها تلك من أعظم الدّول الإسلاميّة في المشرق والمغرب ، وكانت الدّول النّصرانيّة تعمل على البطش بها[3]، فإنه بإمكاننا أن نتصوّر نار الغضب القاتل التي يحرق بها الخليفة كلّ متردّد في ولائه لتلك الدولة أو متشكّك في مقدرتها أو عامل على النّيل من مناعتها . إنّ وضع الدّولة الحفصيّة في خضم الأحداث في كامل حوض البحر الأبيض المتوسط يشبه وضع قوّتين عظميين : الدّولة الحفصية من جهة والدّول النّصرانيّة من جهة أخرى . كلّ منهما تعمل على البطش بالثّانية بأيّة وسيلة كانت .

ومن هذا المفهوم يمكننا أن نتصوّر حزم أمراء الدولة الحفصيّة وشدّتهم وعنفهم مع المشكوك في ولائهم ، أو المخالفين لأوامرهم أو المعارضين لملكهم ، أو النّاقمين والحاقدين عليهم من رجال دولتهم وأصحاب الخطط العليا فيها ، وغيرهم من الإطارات والأهالي في جميع مجالات أعمالهم ومسؤولياتهم ونشاطاتهم . فالإخلاص المطلق للدولة والتّفاني في خدمتها في تلك السّنوات الصّعاب من تاريخ الدّولة الحفصيّة كان يقتضي الطاعة الكاملة للخليفة والتّفاني والفداء بالنّفس من أجل الدولة وسلامتها داخليا وخارجيا . وهو ما لم يتوفّر بصفة قطعيّة في علاّمتنا ابن الأبّار .

أما العنصر الثّاني من العوامل والخلفيّات التي شاركت في القضاء على ابن الأبّار وموته أشنع ميتة هو عنصر عرقي على ما أعتقد . وقد لمّحنا إلى هذا سابقا ، فقد ولد عالمنا الجليل سنة 1198/595 من عائلة عربيّة عريقة الجذور في نسبها القضاعي[4] . وتلقى علومه في بلنسية على أيدي مشاهير العلماء الأندلسيين من أمثال أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي. وطاف أرجاء البلاد الأندلسيّة لتلقّي العلم والمعرفة على العلماء الكبار حيثما وجدوا . وقضى فترة طويلة من شبابه في طلب العلم من جهة والتأليف من جهة أخرى . ومن هذه العلوم التي تلقّاها ، وتبرّز فيها ، وأصبح علما

(3) عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر . ط بيروت، 1959 ، ج 6، ص 591 — 611 .

(4) عبد الله الطبّاع : كتاب الحلة السيراء ، بيروت 1962 ، ص 14 ، 37، 40 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من أعلامها سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا هو علم التّراجم والأنساب وذلك بالمعرفة الواسعة والتأليف والتّدريس . فنسب ابن الأبّار العربي الأصيل ومعرفته المتعمّقة جدا بالأنساب والتّراجم ، وتميّزه لدى المؤرخين بأنه كان عينا من أعيان بلنسية بل شيخا (من مشيخة أهل بلنسية)[5]، جعل صاحبنا شديد الافتخار بنسبه العربي النّبيل وسموّ أرومته على غيره ممن ليسوا عربا مهما كانت مراكزهم .

أوّل زيارة أدّاها ابن الأبّار إلى تونس كانت سنة 1238/636 لطلب النّجدة من الأمير الحفصي لإنقاذ مسقط رأسه مدينة بلنسية من الحصار المضروب عليها من طرف الإسبان النّصارى . ثم رجع إلى بلنسيّة وبعد أيّام معدودات التحق بتونس ثانية للاستقرار بها نهائيا ، بعد أن استولى خايمي الأوّل على بلنسية في 16 صفر 28/636 سبتمبر 1238[6].

فحضوره إلى تونس كان من أجل طلب النجدة العسكرية من أبي زكريّاء الحفصي . وما مبايعة أمير بلنسيّة وسكّانها له ، كما أعلن ابن الأبّار ، إلا طمع في النّجدة العسكريّة الحفصيّة . ومما يدلّنا على أن سفارة ابن الأبّار كانت ترمي إلى تحقيق نجدة أبي زكرياء العسكريّة قول السّفير — وهو ابن الأبّار — في أوّل بيت من قصيدته السّينيّة الشّهيرة التي ألقاها بين يدي الأمير الحفصي :

أُدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللّهِ أُنْدُلُسَا إنَّ السَّبِيلَ إلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

غير أنّ أبا زكرياء لم ينجدهم إلا بالأقوات والأغطية والمؤن[7] ولم يقم بأي عمل عسكري يستجيب لاستغاثتهم ويستهدف فكّ الحصار على بلنسيّة . يقول المؤرخون إنّ سفارة ابن الأبّار كانت ناجحة[8]، وأنا أعتقد العكس تماما . وأمام هذه الخيبة في النّجاح في سفارته يكون خسر ماء وجهه أمام أمير بلنسيّة من جهة وخسر مناصبه وممتلكاته في تلك المدينة بسبب الغزو المسيحي من جهة ثانية . ولم يتبقّ له من كل ما كسب إلا الغرور والعناد السياسي والشّعور بالتّفوّق العرقي فيما بعد في تونس .

(5) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 652 .
(6) نفس المصدر .
(7) نفس المصدر ص 653 .
(8) نفس المصدر .

ولا تخفى أهمية الأنساب العريقة والمتميزة في الأسر العربية في مختلف العصور الإسلاميّة ، وخاصة في تلك الفترة . وكم شُيّدت ، في تاريخ البلاد الإسلامية قاطبة ، من دول وعروش بسبب النّسب العائلي . والأمر الأكيد ، كما ذكرنا سابقا ، أنّ ابن الأبّار كان من أكثر علماء عصره معرفة بالأنساب العربية ودورها القاطع في النّبل والسّؤدد والسّيادة . والأمر الأكيد الثّاني هو أن ابن الأبّار كان بتآليفه وعلومه ودروسه ، على غرار تبحّره في علم الأنساب والتّراجم[9]، من أعظم مؤرخي عصره . وما مؤلفاته في التّاريخ والتّراجم إلا أكبر دليل على ما نقول .

على العكس من كلّ هذا كان أمراء بني حفص ، أولياء نعمة ابن الأبّار ، أبعد ما يكونون عن هذا النّسب العربي الأصيل . فهم بربر في نسبهم وفي عصبيتهم وفي انتمائهم . ولا داعي هنا للتأكيد على النفور الذي كان مستفحلا بين البربر والعرب في تلك العصور سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا .

انتماء عرقي بهذه الحدّة في الاختلاف وبهذه القوّة في الحساسيّة المفرطة والغيرة الصارخة لا يمكن إلّا أن يجعل علاقة ابن الأبّار العربي القحّ وأسياده بني حفص البربر علاقة مبارزة عرقية واختبار نوايا وامتحان انتماءات .

لقد ذكر المؤرخون إشارات تدلّ على هذا الصّراع بين الطرفين من ذلك قول صاحب العبر (... ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه (ضمير الغائب المفرد يعود على ابن الأبّار) المستنصر إلى حضور مجلسه ... وكان في ابن الأبّار أنفة وبأو (فخر وتكبّر)... فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه)[10]. ويذكر نفس المؤلف في مكان آخر أنه لمّا عاد ابن الأبّار من بجاية بعد أن رضي عنه المستنصر (... عاد هو (ابن الأبّار) إلى مساءة السلطان بنزعاته...)[11].

ويقول حسين مؤنس في تعليل شناعة مقتل ابن الأبّار : (والحقيقة أن ما جرى لابن الأبّار كان حلقة من حلقات الصّراع بين الأندلسيّين والمهاجرين وشيوخ تونس من موحّدين وغير موحدين ...)[12] .

(9) محمد مخلوف : شجرة النّور الزّكيّة ، القاهرة . 1350 هـ . ج 1 ص 195 .
(10) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .
(11) نفس المصدر ص 654 .
(12) حسين مؤنس : كتاب الحلّة السيراء، القاهرة ، 1963 ، ج 1 ، ص 40 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وباعتبار كل ما سبق أرى أن الاختلاف العرقي كان واردا بين ابن الأبّار وأسياده من البربر ، وإنْ كان ذلك الخلاف في أغلب الأحيان مستترا جدا ، بل لم يكن من صالح أي طرف البوح به وكشفه بشكل صارخ .

العنصر الثالث من العوامل والخلفيات التي أدت بآبن الأبّار إلى التّهلكة هو تمرّسه بالإدارة وتفوّقه فيها منذ أن كان في الأندلس ، بشكل جعله متميزا عن رجالات تونس ووزرائها وإداريّيها . فقد تولى ابن الأبّار مناصب عالية في إمارة بلنسية ومنها السّفارة التي قام بها إلى تونس . وكذلك تولّى منصب الكتابة والمراسلة لأمير بلنسية وغيره من الأمراء . وبذلك كان متفوّقا على حاشية الأمير في تونس وعلى وزرائه إداريّا . ومن هذا الباب ، نعتقد ، دبت الفرقة وتكوّن الصراع على الخطط العليا ، خاصة منها الملتصقة بخدمة الخليفة ومقابلته مباشرة فكان الصّراع على الجاه بين وزيرين أحدهما هو ابن الأبّار ذو المهارة السّياسيّة والكفاءة الإداريّة مغربيّا[13] . والثّاني هو أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغسّاني كاتب خطّ العلامة لدى الخليفة الحفصي ، وكانت براعته وكفاءته محدودة بل (محلية) بالمقارنة مع ابن الأبّار . وما حكاية سعاية الغسّاني لدى المستنصر ضدّ ابن الأبّار ، لأنّ هذا الأخير وصف والد الغسّاني بقوله : (... إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل)[14]، إلا تهويل للأحداث وتضخيمٌ لها . ولا يمكن أن تكون سعاية مبنية على مثل هذا التّعريض سببا يؤدّي إلى تمزيق السّلطان الحفصي لأبن الأبّار ثمّ حرق أشلائه وكل مؤلفاته . هذا أمر لا يستقيم للتّحليل والمنطق ، بل الأغلب أن سبب الوشاية هي التنافس على السّلطة ، أو مظهر من مظاهر الاختلاف في الاتجاهات السياسية بين الوزيرين . وهذا كلّه هو الذي سبّب وولّد المخاوف لدى السلطان من ابن الأبّار الأكثر قدرة وتمرّسا بشؤون الدولة سياسيّا وإداريّا ، وبالتالي خاف من غدره كما سيأتي .

أما العنصر الرّابع فيتمثل في أن شاعرنا ابن الأبّار لم يستقر في تونس كمدّرس عادي أو موظّف بسيط أو شاعر مناسبات ، بل وُلّي خطّة كاتب علامة الأمير الحفصي

---

(13) يذكر ابن خلدون الخطط السّامية التي تولّاها ابن الأبّار قبل أن يحلّ بتونس بقوله : (وكتب عن السيّد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد ... ثم كتب عن ابن مردنيش . ولمّا دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا وكان فيهم ابن الأبّار ...) (العبر : 654/6).

(14) المصدر السّابق .

ورئيس كتّابه ، وهي من أعظم وظائف الدولة ، وكانت تجعل صاحبنا في احتكاك مباشر مع الأمير في كلّ صغيرة وكبيرة ، وبالتّالي كان ابن الأبّار مستهدفا لشكوك الأمير وغضبه . وهذا ما جعل أبا زكرياء يعزل ابن الأبّار من خطّته ويضعه في الإقامة الجبرية في بيته تحت الحراسة . ثم عفا عنه فيما بعد وأرجعه إلى خطّته . وكأنّ الأمير كان حائرا بين شدّة حاجته لكاتبه من ناحية وعدم ثقته فيه من ناحية ثانية . هذا على الرّغم من شفاعة المستنصر — قبل توليه العرش — فيه لدى والده أبي زكريا للعفو عنه لاستجارته به .

لما توفّي أبو زكرياء أبقى المستنصر ابن الأبّار في وظيفته ، ولكن شكوك الخليفة في ولاء ابن الأبّار بدأت تتعاظم ، بناء على مواقف شاعرنا المشبوهة والتي كانت تستهدف الخليفة شخصيا ومباشرة بالحطّ من قيمته وسلطانه . وهو الأمر الذي ضاعف من غضب الخليفة وحاشيته وبعض المسؤولين في بلاطه إلى حدّ الأمر بإعدامه.

إذا يمكننا أن نعتبر الخطّة المرموقة التي تولّاها ابن الأبّار وقربه الشّديد من الحاكم ، والتحامه اليومي الوظيفي والسياسي بصانعي ومتخذي القرارات السياسية في أعلى هرم السلطة وفي أوج قوة الدولة الحفصية ، عاملا أساسيا في نهايته المؤلمة .

العنصر الخامس غُرور ابن الأبّار وتعنّته وسلاطة لسانه جعلته هدفا للانتقاد والتّجريح والحقد . فمن غروره وتعنّته الغريب أنّ أبا زكرياء بعد أن عيّنه رئيس كتبته ، أمره بأن يُبقي فراغا أبيض في أعلى كلّ وثيقة رسميّة حتى يتمكّن وزيره أبو العباس الغسّاني[15] من كتابة العلامة أي اسم الأمير وإمضائه . وقد كُلّف بها لأن خطّهُ مشرقي يصعب على الكتّاب في تونس تقليده . فلم يمتثل ابن الأبّار لهذا الأمر من الأمير وتجاهله إطلاقا . ولمّا وقع الإلحاح عليه في ذلك استشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد قول المتنبي :

واطْـلُبِ العِـزَّ فِـي لَظَـى وَذَرِ الـذُّلْ لَ وَلَـوْ كَـانَ فِـي جِنَـانِ الْخُلُـودِ

فنُمي ذلك إلى السلطان فأمره بلزوم بيته في إقامة جبرية[16] .

(15) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .
(16) نفس المصدر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وإذا كان أبو زكرياء مؤسس الدّولة متحكّما في غضبه ومسيطرا على سخطه ، فإنّ المستنصر مشيّد الدولة والمتلقّب بالخليفة ، والكثير الشّكوك فيمن حوله ، وجد في سيرة كاتبه وتحدّيه له ما لا طاقة له به. وزاد الطّين بلّة اتهام صاحبنا ــ بسبب ملازمته للأمير مباشرة ، وهو في قلب جهاز الدولة السياسي والإداري ــ بأنه يتوقّع (المكروه للدولة)[17] ويتربص بها الدّوائر .

العنصر السادس : عدم الولاء المطلق . والذي يدلّنا على عدم ولاء صاحبنا لولّي نعمته هو أن الخليفة المستنصر اكتشف في أوراق ابن الأبّار عندما صودرت أبيات خطرة في هجاء الخليفة وفي الحقد عليه[18] ، وهو ما عجّل بمقتله .

العنصر السابع : بالإضافة إلى ما سبق اتهم ابن الأبار في تونس بالتشيّع ولئن كان من الصّعب تصديق هذا الاتهام لأسباب عديدة ، فإن الإطار الذي وضع فيه هذا الاتهام إطار قاتل . فقد وردت في كتابه «درر السمط في خبر السّبط» ، الذي كان يدرّسه ابن الأبّار نفسه في حلقات تعليمه للطّلبة في جامع الزيتونة ، إشارات فسّرت بأنها تدل على ولاء المؤلّف لشيعة علي وعلى عداوته للأمويين السّنيين[19]. لقد ذكر المقّري بعد أن أورد قسما من كتاب ابن الأبّار (درر السمط) أنّه كان متشيّعا لعلي وآله وأنه لم يورد من كتاب السّمط لابن الأبّار في كتابه نفح الطيب إلّا ما ذكره (لأنّ في الباقي ما تشتمّ منه رائحة التشيّع والله سبحانه يسامحه بمنّه وكرمه ولطفه)[20] .

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الاتهام الخطر أن البلاد التونسية تعتبر من أشد البلاد الإسلاميّة محاربة للشّيعة والبدع وتشيّعا بالمذهب المالكي السّني .

العنصر الثامن : ومن عوامل غضب السلطان وحاشيته على ابن الأبّار تفوّق علماء الأندلس وأدبائهـا وإداريها على أمثالهم بتونس في ذلك الوقت . وما تشجيع أبي زكرياء الحفصي لخيرة علماء الأندلس على الاستقرار بعاصمته إلا دليل قاطع على هذا التفوّق

---

(17) نفس المصدر ص 655 .

(18) يذكر ابن خلدون البيت الأوّل من هذه الأبيات وهو :

طَغَا بتونسَ خَلفٌ سَمّوه ظُلما خليفة

(العبر . ج 6 . ص 655) .

(19) دائرة المعارف الإسلاميّة : 66/3.

(20) المقّري : نفح الطيب . ط القاهرة 1302 هـ . ج 2 ص 601 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وعلى هذا التميّز وعلى الحاجة الملحّة إليهم لبناء دولته ، الحديثة الاستقلال عن الموحّدين ، وبذلك بدأت الهجرة . ومن بين هؤلاء المهاجرين مجموعات من رجال الفكر من مختلف أنحاء البلاد الأندلسية .

ولا شك أيضا أن الأندلسيين المهاجرين إلى تونس ، ومنهم ابن الأبّار قد شعروا بالتفوّق العلمي والتّميّز الحضاري لمّا حلّوا بتونس . وهذا الواقع ولّد لدى أغلبهم اقتناعا بتفوّقهم على باقي المواطنين التّونسيّين وبالتّالي السعي للتّسامي عليهم وتحاشي الاختلاط بهم .

وإذا كان المهاجرون الأندلسيّون في القرن 17/11 قد عاشوا في تجمعات صغيرة خاصة بهم ، وانفردوا بلباسهم وطعامهم وتفاخروا بها ، وامتنعوا عن مصاهرة الأهالي المحلّيين ترفعا ــ ومعظمهم كانوا من الصناع والتّجار والمزارعين وأصحاب الحرف ــ فما بالك بمهاجري القرن 13/7 الذين كانوا في أغلبهم من كبار العلماء والأدباء والإداريين والأطباء والمدرّسين والفنّيين والكتّاب .

لقد بادر معظم هؤلاء بالتشبّث بطابع التفوّق حتى ظهروا في المجتمع التونسي وكأنهم مجموعة من المهاجرين ناشزة عن المجتمع الذي انتقلوا إليه ، تزاحم أفراده وتعاديهم[21]، بل تصرّ إصرارا كبيرًا على تحدّيهم[22] .

العنصر التاسع : هو جحود ابن الأبّار إلى حدّ تمنّيه زوال حكم الحفصيّين . يقول حسين مؤنس في مقدمته لتحقيق الحلّة السيراء معلّلا مقتل ابن الأبّار بأن ما حلّ بابن

(21) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 40

هناك قصّة تروى إلى اليوم في تونس وهي من محلّفات أسمار القرون الماضية في الوطن القبلي بالبلاد التّونسية أرويها باختصار للتّدليل على مدى عناد الأندلسي المهاجر بالبلاد التونسيّة ومدى تشبّثه بموقفه أو برأيه وإن كان على خطأ تقول هذه القصة الشعبية القصيرة إنّ أحد الأندلسيين المهاجرين كان يتنزه مع صديق له من التّونسيين الأصليين خارج إحدى المدن عند غروب الشمس . فرأى الأندلسي عن بعد شيئا أسود يتحرك على الطريق غير واضح المعالم . فقال لصديقه انظر أرأيت ذلك السواد الذي يتحرك على الطريق . تثبت منه إنه قطيع من العنز تأخر الراعي عن الرجوع به إلى حضيرته إلى هذه الساعة ، فأجابه التونسي بعد التثبت فيه جيّدا : هذا ليس قطيعا من العنز بل هو سرب من الغربان . ولما اقترب الصديقان من ذلك الشيء الأسود الذي يتحرك فوق الطريق ، طار سرب الغربان وعلا في الفضاء قال التّونسي لصديقه : ألم أقل لك أنه سرب غربان وليس قطيع عنز فأجابه الأندلسي بحدّة : (معز (أي عنز) ولو طارت) .

(22) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 40 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأبّار يعتبر حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين وشيوخ تونس من موحّدين وغيرهم (بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزلوه وعلمائه ...)[23] .

قد يكون هذا التّحليل صحيح في بعض أوجهه ، ولكن عقوبة القتل بأشنع طريقة ثم حرق الجثة والمؤلفات وغيرها لا يمكن أن تكون ناتجة عن زلات صغيرة أو عدوات محدودة من ابن الأبّار . كان في إمكان الخليفة أن ينفيه أو يحبسه أو يجبره على الإقامة الجبرية في بيته . ولكنه لم يفعل شيئا من كل ذلك بل أمر بقتله .

هذا التصرّف من الخليفة المستنصر يتجاوز مرحلة احتمال خوفه من ابن الأبّار كما يقول حسين مؤنس . ولو كان السّلطان خائفا منه فقط لما أحرقه بعد قتله وأحرق جميع مؤلفاته معه . بل هذا يدلّ أن السبب تجاوز الخوف الشخصي العادي إلى الخوف السياسي الذي يهدّد حكم العائلة الحفصية ويعمل على زوالها . وقد تدعّم هذا بقراءة ابن الأبّار لطالع ولّي عهد المستنصر وتصريحه بأن الدولة ستسقط في عهده . وهذه تعدّ في حدّ ذاتها جريمة سياسيّة لا تغتفر .

أعتقد أن هذه العوامل والخلفيات مجتمعة متكاملة متداخلة قضت على ابن الأبار وليس عاملا واحدا منفردا منها مهما كانت قوته وتأثيره ، غير أن العامل السّياسي كان هو الأقوى بينها جميعا .

عصر ابن الأبّار في تونس

1 ــ هجرة الأندلسيين إلى تونس :

بدأت هجرة الأندلسيين إلى تونس تظهر منذ أوائل القرن 13/7 في عهد أبي زكرياء الحفصي الذي شجّع الأندلسيين على الإقامة في تونس . وقد أغراهم بالامتيازات لشدة حاجة الدولة الجديدة إليهم وإلى معارفهم في مختلف المجالات العلمية والفكريّة والإداريّة والأدبيّة والفنيّة وغيرها .

(23) المصدر السّابق ص 40 .

ومن بين هؤلاء المهاجرين الأوائل المتميّزين في مختلف الاختصاصات العلميّة والفنيّة والمهنيّة قلّة من رجال الفكر ينتمون إلى أنحاء متعددة من البلاد الأندلسيّة : من كورة ماردة وميورقة وجزيرة شقر وقرطبة وطرطوشة ، وكذلك من بلنسيّة وإشبيلية وشاطبة وغرناطة ومالقة ولبلة وبياسة وشريش وبطرنة وشلب .

وقد كانت الوجهة المفضّلة لهؤلاء المهاجرين هي تونس بصفة خاصة ليقيموا آمنين في ظلّ الدولة الحفصيّة ، بعيدا عن القلاقل والفتن بالمغربين الأوسط والأقصى .

ومن الجدير بالذكر أن حدس المهاجرين صدق في تفضيل المدن التونسية عن مدن المغرب الأقصى. فقد ذكر ابن خلدون أنه لمّا انقرضت دولة الموحدين وظهر بنو مرين بفاس في المغرب الأقصى كانت لهم مشاحنات وخلافات مع الأندلسيين القاطنين بتلك البلاد . فكان الأندلسيون ينتقلون من المغرب ومن الأندلس رأسا إلى البلاد التّونسية وخاصة العاصمة[24] .

عندما حلّ هؤلاء بتونس ـــ وكان من بينهم ابن الأبّار ـــ كانت تلك المدينة ـــ على الرغم من كونها، عاصمة الدولة الحفصية ـــ تعد قرية كبيرة من جملة القرى التّونسية . وما أن انتهى القرن 13/7 ، وهو القرن الذي نزح خلاله الأندلسيون ، حتّى تحوّلت تونس عاصمة للمغرب قاطبة وقبلة العلماء ورجال الفكر والطلبة . وشيدّت فيها المدارس والمكتبات والجوامع ، وانبثقت النهضة التي جعلت ذلك القرن يتميزّ عن بقية العصور التاريخية في تونس إلى درجة يمكننا أن نطلق عليه عصر النّهضة التونسيّة .

وقد تواصل تأثير الأندلسيين في تونس علميا وحضاريا وفنيا على مدى القرون الموالية . وذلك لسببين : الأول أن الهجرة الأندلسيّة لم تقف بانتهاء ذلك القرن بل تجاوزته إلى القرن 14/8 حيث قويت حركتها فشملت ، زيادة على العلماء ورجال الفكر ، التّجّار والصناع والمزارعين وأصحاب الحرف بأعداد وافرة . وقدّم لهم أمراء الدولة الحفصية أحياء في المدن يقطنونها وضياعا في الريف يسكنونها ويعملون فيها . ويرجع لهؤلاء الفضل في إدخال أنواع من العلوم والاختصاصات جديدة وأساليب صناعية ومهنيّة وهندسية لم يسبق للبلاد أن عرفتها .

(24) ابن خلدون : العبر : 6 /625 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أما السبب الثّاني الذي جعل تأثير الأندلسيين لا يزول من تونس فهو الأعداد الوافرة من الطلبة التّونسيين الذين تلقوا علومهم عن أعلام أندلسيين في الحاضرة يندر وجود أمثالهم في كامل العالم الإسلامي في القرن 13/7 .

ومما تجب ملاحظته أيضا أن تأثير الأندلسيين في الحياة الفكرية والحضارية بتونس كان من طراز المؤثرات التي لا تزول بمرور السنين والقرون ، لأنّها كانت متّصلة اتصالا مباشرا ومتفاعلة تفاعلا كاملا ومتينا مع مختلف طبقات المجتمع التونسي وفئاته . فقد تداخلت أفكارهم العلميّة والدّينيّة وأساليبهم العملية في جميع الميادين الحياتية للمجتمع التونسي حتى صارت عنصرا من العناصر الحضارية التي يتكوّن منها ، وعادة من عاداته وتقليدا من تقاليده . فلو اقتصر تأثير الأندلسيين على مجالس الأمراء والأعيان لانتهى بانتهائهم . أما وتأثيرهم كان متفاعلا مع مختلف فئات السكان ، فإنّ ذلك التأثير لا يزول بزوال الأفراد بل يبقى ساري المفعول مكوّنا عنصرا هاما من العناصر الحضارية والفكرية والثقافية لأمّة بأسرها .

في ذلك العصر ، عصر ابن الأبّار في تونس ، شجّع أمراء الحفصيين المهاجرين الأندلسيين على نشر المعرفة بكلّ ما لديهم من وسائل ، فازدهرت المعرفة إلى أن أصبحت الحاضرة مقصد طلاّب العلوم والفنون من أقاصي البلاد يقتبسون من أنوارها ويرتوون من ينابيعها .

2 ــ تأثير الأندلسيين في النشاط الثقافي بتونس :

لقد جدّد الأندلسيون في تونس في القرن 13/7 عدّة مجالات في الميدان الثّقافي وأدخلوا طرقا وأساليب واختصاصات حديثة كان لها تأثير مباشر وقوي في الحياة الثقافية بتونس .

ففيما يتعلّق بالمواد الدّراسية أدخل المهاجرون الأندلسيون مواد دراسية جديدة في حلقات التّعليم . من هذه المواد علم الفلك والأزياج والطب والهندسة وغيرها من العلوم[25]، بعد أن كانت المواد الدراسيّة في تونس قبل مجيء الأندلسيين متغلّبا عليها

---

(25) ابن خلدون المقدمة ص 880 . وكذلك :
. R. Brunschvig : La berberie Orientale. Paris, 1940, vol. p. 364

الطّابع الدّيني واللغوي ، فكانت المواد التّعليمية لا تخرج عن العلوم الشرعية النّقلية من توحيد وحديث وفقه وفرائض وعلوم القرآن والقراءات والسيرة والمغازي والتّاريخ من جهة ، والعلوم اللّغوية من نحو وتصريف وأدب وشعر من جهة ثانية[26] .

وبذلك التأثير الأندلسي في نشر العلم بتونس بمختلف ميادينه وفروعه صارت الحاضرة في ذلك العصر كما يشهد بذلك شاهد عيان: (لا تنشد بها ضالّة للعلم إلا وجدتها ولا تلتمس بغية معوزة إلا استفدتها ... وما من فنّ من فنون العلم إلا وجدت بتونس من به قائما ولا موردا من موارد المعارف إلا رأيت حوله واردا وحائما)[27] .

وفيما يتعلّق بالمدارس في عهد ابن الأبّار أُنشِيء كثير منها بتونس بمجيء الأندلسيين بعد أن كانت قليلة فيها . ولم تنتظم حلقات الدروس في جامع الزيتونة إلّا في منتصف القرن 13/7 . ولم يبزغ القرن 14/8 حتى كثر عدد المدارس المخصّصة لإلقاء الدروس وسكنى الطلبة ، وهذا يعتبر أكبر دليل على ازدهار الحركة العلمية بالعاصمة وبعض المدن التّونسية الأخرى خاصة في عهد أبي زكرياء والمستنصر . ينضاف إلى ذلك الجوامع والمساجد التي كانت تعقد فيها حلقات التّعليم وكذلك بيوت العلماء ومنازلهم . ومعظم دور العلم تلك كان يدرّس بها أولئك الأعلام من اللاّجئين الأندلسيّين .

ومن هذه المدارس المدرسة الشّماعية ومدرسة المعرض والمدرسة التّوفيقية والمدرسة العنقية ومدرسة ابن ثافراقين ومدرسة جامع الهواء ، ومن الجوامع : جامع الزّيتونة وجامع القصبة ، ومن الزّوايا : زاوية الزّليجي .

هذا عدا المكتبات ودكاكين الورّاقين التي أنشئت في تونس في ذلك القرن الزاهر وفي عهد أبي زكرياء بالذات ، وهو ما يدلّ على رواج سوق العلم وانتشار الثقافة بالبلاد التونسية . ومن هذه المكتبات الشّهيرة مكتبة جامع الزيتونة التي كانت تشتمل على ستة وثلاثين ألف مخطوطة[28] . يذكرها ابن خلدون بقوله : (كان الأمير أبو زكرياء

(26) العبدري : الرّحلة . ص 125 — 126، 176 — 178 .
(27) المصدر السابق ص 125 .
(28) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها)[29]. ومن المكتبات أيضا دار الكتب بالقصبة التي أسّسها نفس الأمير، وكان مولعا بالأندلسيين وبعلومهم وثقافتهم . وشيّد كذلك سوقا بأكملها سمّيت سوق الكتبيّين بالعاصمة[30] ، ولازالت أجزاء من هذه السوق موجودة إلى الآن ، وهذا كلّه يؤكّد مدى ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الأبّار .

غير أنّ هذه المكتبات لم تعمّر عليها سبعون سنة بعد وفاة أبي زكرياء حتى أباد محتوياتها وباع مخطوطاتها الثائر ابن اللّحياني سنة 1317/717 ، فلم يبق فيها شيئا ذا أهمية (حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للورّاقين فبيعت بدكاكينهم . فجمع من ذلك كما زعموا قناطر من الذهب تجاوز العشرين ، وجواليتين من حصى الدرّ والياقوت ...)[31].

3 ــ تأثير الأندلسيين في مجال العلوم في القرن 13/7 .

الطب : كان أهمّ أساتذة الطب في تونس في القرن الذي ندرسه أندلسيين ، ليس بينهم تونسيّ واحد ولا يهودي حسب ما توفره لنا المصادر التي رجعنا إليها في هذه الدراسة . وتكفي هذه المعلومة لنؤكّد على الدّور الأساسي والمصيري الذي يمثّله الأندلسيون في المجال العلمي . من هؤلاء الأطباء حكيم المستنصر المشهور محمد ابن أندراس المرسي[32] .

يصف الغربيني أستاذه في علم الطب ابن أندراس بقوله : (... وتبسط للطبّ طبيبا باحثا جيّدا ... وكانت الأبحاث في كلّ ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجليّة[33] .

---

(29) ابن خلدون : العبر . ج ص 748 .

(30) ابن أبي دينار : المؤنس . ص 130 .

(31) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 748 ــ 749 .

(32) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس من أهل مرسية (ت . 674 /1275) . ورد على بجاية ثم رحل إلى تونس باستدعاء المستنصر له بعد أن ذاع صيته في الطب (أبو العباس الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في بجاية، الجزائر 1910 ، ص 45 ــ 47).

(33) المصدر السّابق .

كان هذا الطبيب إذا سئل عن مسألة طبيّة لا يجيب عنها إلّا بعد إعمال النّظر في أسباب المرض وتمييزها ، وينظر في أنسب الأدوية وعندئذ يقدّم الجواب . وهذا كما يذكر تلميذه (هو حال حذّاق الأطبّاء وأمّا عوامّهم ومن يعد منهم في أعداد القوابل فعندما يُسأل يجيب بغير علم)[34] .

بالإضافة إلى هذا الطبيب العالم هناك عدة أطباء أصلهم من الأندلس ، منهم أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة[35] . ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمان الخزرجي الشّاطبي (ت . 1291/691) ، وكذلك أبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن عبد السلام أصله من تدلس[36]. ومنهم محمد بن أبي العباس بن عيشون .

وتواصل حلول أطباء أندلسيين بتونس في القرن 14/8 ، ومنهم الغرناطيان أحمد ابن علي الخولاني[37] وأحمد بن محمد الأنصاري[38] ، وابن عشّاب القرطبي[39] وابن الحجّاج يوسف[40] .

وبسبب وجود الأطباء الأندلسيين في تونس في القرن الذي ندرسه صار علم الطب يقوم بالدرجة الأولى على التّحاليل وعلى فحص وتشخيص المركّبات الأساسيّة التي تتعلّق بكلّ جسم وبكلّ عضو ، مع اهتمام كبير بمعرفة خصوصيات ومركّبات المواد الغذائية . وقد نتج عن ذلك شيوع التّجديد في طبخ المأكولات بطريقة تطابق ما أدخله هؤلاء الأطباء من آراء طبّية تتعلّق بالمواد الغذائيّة[41] .

ويمكننا أن نعرف الشّأو الذي بلغته تونس في المجال الطبّي في القرن 13/7 بتفضّل الخليفة المستنصر وإرساله أحد الحكماء الأندلسيين من تونس إلى ملك صقليّة . ومثل

---

(34) المصدر السّابق .
(35) عنوان الدراية : ص 43 — 44 .
(36) المصدر السابق ص 208 .
(37) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، حيدر أبا الدكن . 1929 — 1931 ، ج 1 . ص 219 .
(38) نفس المصدر ج 1 . ص 306 .
(39) نفس المصدر ج 4 . ص 160 .
(40) عبد الله الترجمان : تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب، القاهرة 1907 ، ص 8 .
(41) انظر برانشفيك : ج 2 . ص 138 — 139 .

هذا حدث سنة 1278/677 حيث بعث المستنصر للملك شارل الأول ملك أنجو Anjou ، بطلب من هذا الأخير ، كتاب (الحاوي في الطبّ) للرّازي[42] .

الهندســة : أثّر وجود المهندسين الأندلسيين على التّخطيط المعماري والبناء في البلاد التّونسية في القرن 13/7 . وأصبح الطراز الأندلسي هو الغالب على أكثر الأبنية التي شُيّدتْ في ذلك القرن . وقد استجلب أبو زكرياء عددا كبيرا من المهندسين والصنّاع الأندلسيّين ، وهم الذين قاموا بهندسة وبناء أكثر القصور والجوامع والزّوايا والأسواق التي أنشئت في عهد هذا الأمير . وقوي هذا التأثير بعد وفاة أبي زكرياء والمستنصر[43] . وهذا النّمط البنائي الأندلسي نلاحظه بصفة جلية في بناءات القرن 13/7 في تونس مثل هندسة وبناء جامع القصبة الذي تم بناؤه سنة 1235/633 مع صومعته . وقد وصفها صاحب (المؤنس) بأنها كانت عجيبة الشّكل[44] . وكذلك يظهر ذلك النّمط الهندسي جليّا في المباني والمعالم التّالية : باب المنارة بالعاصمة ، باب للآريجانة وهو أحد أبواب الجامع الكبير بالقيروان[45] . ومن هذا القبيل هندسة بناء أقواسٌ (سوق القماش) و (ميضة سوق العطارين) وزاوية سيدي قاسم الجليزي[46] .

ومما يزيد في تركيز هذا الطّابع المعماري الأندلسي وإبرازه: التّصميم والهندسة والبناء بالإضافة إلى وجود الزّليج في أكثرها[47] ، وكذلك اعتمادها في الزّركشة على النّقش فوق الجدران ، والسطوح المغطّاة بالقرميد[48] .

علم التاريخ : على غرار علوم الطب والهندسة والنّحو لا يجد المستقصي للمؤلّفات التّاريخيّة التي كتبت في القرن 13/7 بالبلاد التونسية كتابا واحدا كتبه مواطن أصله تونسي .

---

(42) المصدر السابق .

(43) Ch. A. Julien: Histoire de l'Afrique du nord, vol 2, p 153 .

(44) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

(45) ش. أ. جوليان : 414/2 .

(46) G.-Marçais: Manuel d'art musulman, 2 vols, Paris 1926 p 527 .

(47) الزّليج كلمة إسبانية أصلها Azulejo .

(48) سليمان مصطفى زيبس : بين الآثار الإسلاميّة في تونس ط . تونس 1963 ص 52 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أوّل هذه الكتب ألّفه أندلسي من بيّاسة وهو أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري (ت 1255/653)، ألّفه لأبي زكرياء وذكر فيه الثّورات والحروب الدّاخلية في الإسلام إلى عهد هارون الرّشيد . وقد نشر هذا الكتاب حديثا ويعتبر من أهمّ المصادر في موضوعه. أمّا كتاب أبي محمّد عبد الله بن عبد البرّ التّنوخي (ت 1336/737) — ويشتمل على التاريخ الإسلامي من الدعوة المحمدية إلى أيام المؤلّف — فمفقود ولا نعلم عنه إلا أنه مرتّب على حسب السّنوات الهجريّة مثل تاريخ الطبري وأنه يتكوّن من ستة أجزاء[49] .

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من العلماء الأندلسيّين الذين كانوا يدرسون التّاريخ في معاهد العلم ، منهم ابن عبد البرّ التنوخي[50] ، وابن الغمّاز[51]، وابن الأبّار نفسه ، وكتابه (درر السمط في خبر السبط) كان مادة تاريخية تدرّس في المعاهد العلميّة بتونس . هذا بالإضافة إلى كتب التراجم والطّبقات التي ألّفها أندلسيون في تونس خلال ذلك القرن .

التّعليم : ولا يقف تأثير الأندلسيين عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى مجالات أخرى ثقافية وعلمية وصناعية متعدّدة مثل التّعليم . لقد اقتبس التّونسيّون منذ أوائل العهد الحفصي طرق التعليم المتطوّرة عن الأندلسيين . ولا ننسى هنا أنّ أبا زكرياء الحفصي مؤسس الدولة ورائد نهضتها العلمية والحضارية تثقّف على علماء أندلسيين أو عن تلاميذهم كابن عصفور الإشبيلي الذي أخذ عنه علم النحو ناظره فيه[52] . وقد أعجب أبو زكرياء بالطريقة الأندلسية في التّعليم واستصوبها . ولمس حاجة تونس إليها وإلى العلماء الأندلسيين فاستدعى من إشبيلية — وقد أصبح سيّد إفريقيّة وكان في السابق حاكما لمقاطعة تابعة لها — عددا من أصحاب الصّناعات المختلفة منهم العلماء للقيام بمهمّة التّعليم بتونس[53] .

(49) الزّركشي : تاريخ الدّولتين الموحّدية والحفصيّة ص 111 — 112 .
(50) المصدر السّابق .
(51) العبدري : الرّحلة . ص 126 .
(52) مخلوف : شجرة النّور الزّكيّة ، ج 2 ص 138 .
(53) كانت عائلة خلدون من هذه العائلات التي جلبها أبو زكرياء من إشبيلية ، أحد أبناء خلدون هذا أصبح وزير مال ، وابنه محمد حاجبا ثم وزيرا ، وابن محمد هذا كان رجل علم ودين تولّى خطة الإفتاء بتونس أما حفيد محمد المذكور فهو عبد الرحمان ابن خلدون المؤرخ التونسي الشّهير (ولد سنة 722 وتوفّي سنة 808 /1322 — 1405) (انظر كتاب ج . مارسي السّابق ص 303) .

وقد أشاد المؤرّخون بتفاني هؤلاء العلماء المدرّسين في بثّ العلم والمعرفة في حلقات دروسهم(54). ومن أشهر هؤلاء أبو العباس أحمد بن الغمّاز البلنسي (ت 693/1293) ، وأبو العباس اللبلي(55) وأبو العباس أحمد المالقي ، وأبو العباس أحمد الغرناطي (ت 692/1292) صاحب كتاب المُشْرِق في علماء المغرب والمَشْرِق . وكان الخليفة أبو زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي (حكم من سنة 678 إلى 683/1279 إلى 1284) يحضر دروسه بمدرسة المعرض في العاصمة التّونسية . ولمّا رأى الخليفة مدى تفاني ذلك المدرّس في أداء وظيفته ، وما اتّصف به من تبحّر في العلوم أجرى عليه مرتّبا عاليا ، وأعطاه كيسين مملوءين ذهبا وفضّة ليوزّعهما على كلّ من يتلقى العلم في حلقات دروسه(56). ويضيف المؤلّف أن ذلك الإجراء من قبل الأمير الحفصي ، شجّع الطلبة على التعلّم بتلك المدرسة فازداد عددهم حتى أنّه لم يبق لبعضهم محلّ يجلسون فيه . ويبلغ إعجاب الأمير بالدروس التي تُلقى بتلك المدرسة حدّا جعله يفتح بها شبّاكا على بيته يستمع منه إلى الدروس ويراقب سير التّعليم بها(57) .

أما طريقة التّعليم الجديدة التي أدخلت على أيدي الأندلسيين إلى تونس في القرن 13/7 ،فقد أشاد بها ابن خلدون حيث أنها تحرّرت من المنوال التّقليدي الذي يتمثّل في استظهار النصوص عن ظهر قلب و التّركيز على تعليم علوم القدامى كما تداولتها الأجيال . وأصبح التّعليم يعتمد على إطلاق المجال للعقل في التّفكير والتّعليل وتحليل الآراء ودراستها ومناقشتها . يصف ابن خلدون أصحاب الطريقة التّعليمية التّقليدية بقوله : (نجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ... فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرّف في العلم والتّعليم . ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصّل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم . وما أتاهم القصور إلّا من قبل التّعليم ... وإلّا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدّة عنايتهم به ، وظنّهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك)(58) .

(54) العبدري : الرّحلة ص 385 .

(55) المصدر السابق ص 126 .

(56) E. Fapuau : Chronique des Almohades et des Hafsides attribué à Zarkachi, 1895, p. 73 .

(57) المصدر السابق . ص 78 .

(58) ابن خلدون : المقدّمة ص 780 .

ويذكر ابن خلدون بالإضافة إلى ما سبق مقارنة أخرى بين الطّريقتين في التّعليم في ذلك العصر فيؤكّد بها ما للطريقة الحديثة من جدوى ، وذلك عندما يعلمنا أن المدّة التي كانت معيّنة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عند أهل المغرب الأقصى مدة طويلة جدا وهي ست عشرة سنة . أما بتونس حيث تطبّق الأساليب التّعليمية الحديثة فإنّ المدة لا تتجاوز الخمس سنوات فقط . وهي أقلّ مدة متعارف عليها بالمدارس في ذلك الوقت . ثم يعقّب مؤرّخنا الشّهير بقوله (فطال أمدها في المغرب لهذه المدّة لأجل عسرها من قلّة الجودة في التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك)[59] .

لقد ازدهرت طرق التّعليم النّاجحة في تونس بسبب التّجديد فيها والتحديث في أساليبها كما رأينا ، وبسبب وجود المدرّسين الأندلسيين العلماء ووفرة المدارس المستحدثة . وهذا من شأنه أن يلقّح الأفكار ويشحذ الأذهان ويزيد في طلب المعرفة ونشرها . ولقد ازدهرت طرق التّعليم والتدريس في تونس في القرن 13/7 إلى درجة جعلت المدّرسين بالمغرب الأقصى يبعثون بأساتذة من بلدانهم إلى تونس للتدرّب . وقبل رجوعهم إلى أوطانهم كانوا يُمتحنون قبل تسلّمهم خطّة التدريس في مدارس بلادهم . وكان هذا الامتحان يشتمل ، من جملة ما يشتمل ، على معرفة مدى حذق المدرّس في التّبليغ واعتماده على المناقشة والتّعليل والاستنتاج لا على الحفظ والاستظهار[60] .

واعتمادا على ما لاحظناه ، فيما تقدّم من هذه الدراسة ، من تأثيرات إيجابية مبدعة للأندلسيين في تونس في مختلف المجالات الثقافية والعلمية وغيرها ، فإنّه لا يسعنا إلا أن ننوّه بنظر أبي زكرياء الحفصي الثاقب وذكائه الحاد وصواب رؤيته المستقبلية لمّا اقتنع من أوّل وهلة ، لمّا تولّى الحكم بإفريقيّة أنّ حاجة تونس وازدهارها ومستقبلها لا تتحقّق كما يتصوّره إلا بجلب أعلى الإطارات في مختلف الاختصاصات من بلاد الأندلس . لقد عاش أبو زكرياء حضارة الأندلس وتقدّمها وتفوّق علومها وتقنياتها وتشبّع من تمدّنها . ولا شكّ أنّه صُعق لمّا انتقل إلى تونس حيث وجد البون شاسعا جدا بين البلدين والهوّة سحيقة بين العدوتين . ولم يجد بدا من إغراء رجالات الأندلس المتميّزين لجلبهم إلى تونس من أجل بعث ثورة علمية وثقافية في حاضرة دولته

(59) المصدر السّابق ص 780 — 781 .
(60) المصدر السّابق ص 109 .

الجديدة ، وقد أرادها أن تكون مثل مدينة إشبيلية وقرطبة وغرناطة من بلاد الأندلس في علومها وصناعاتها وهندسة بناءاتها . وقد بلغت دولته العزّ والسؤدد في عهد خليفته المستنصر بالله، حيث صارت تونس كعبة العلماء والأدباء والمؤرخين والمدرّسين .

يذكر ابن خلدون بلاط المستنصر بقوله : (وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ... وممّا اجتمع بحضرته من أعلام النّاس الوافدين على أبيه وخصوصا الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير ... متفيئين ظلّ ملكه متناغين في اللّياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده ، وخفوت صوت الملك إلاّ في إيوانه)[61] .

4 ــ ابن الأبّار ومشاركته في نهضة تونس في القرن 13/7:

في خضمّ إنجازات المهاجرين الأندلسيين في حاضرة الحفصيين في القرن 13/7 حلّ أبو عبد الله ابن الأبّار بإفريقيّة ليقيم في العاصمة كمواطنيه الأندلسيين . وكانت له المشاركة الفعّالة في العطاء علما وأدبا ، وشعرا وثقافة .

ألّف ابن الأبّار ما يزيد على الخمسة وأربعين كتابا في فنون مختلفة . وليس ذلك بغريب ، فقد كان علاّمة (في الحديث ولسان العرب ، بليغافي التّرسل والشّعر)[62] . ويصفه صاحب شجرة النّور الزّكية بأنه (الإمام الحافظ النظّار ، الرّاوية المتبحّر في العلوم ، الحامل لواء المنثور والمنظوم)[63] . ويقول فيه أيضا : (ومن اعتنائه بالرّاوية لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلاّ وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص)[64] .

بالنّسبة إلى التّاريخ. كان عمدة فيما كتبه عن الأندلس والمغرب . وقد انتفع في تواريخه المتعلّقة بإسبانيا بكتب المؤلّفين السّابقين . (وهو بالنّسبة إلى تاريخ بني هود في سرقسطة والمرابطين والموحّدين مصدر في غاية الأهمية . وقد وصف لنا أحوال

---

(61) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 675 .
(62) ابن خلدون : العبر ج 6 . ص 653 .
(63) محمد مخلوف : شجرة النّور ج 1 . ص 195 .
(64) نفس المصدر .

دولة الموحّدين في أواخر أيّامها ، وكذلك فتوح النّصارى في الأندلس وصف معاصر وشاهد عيان)[65] .

أمّا عبد الله الطبّاع فعند حديثه عن ابن الأبّار باعتباره مؤرخا يبرز أهمّيته وتفوقّه بقوله :(... وقد درست بعد ذلك قيمة ابن الأبّار العلميّة والتاريخية مبرهنا أنّ مؤرّخنا بالرّغم من أنّ ابن خلدون لم يأت على ذكره بين كبار مؤرّخي العرب ، فهو يستحق أن يحتلّ مكانته بينهم كمؤرّخ الأندلس وإفريقيا الشّمالية وأنّه من حقّه أن نذكر اسمه إلى جانب اسم ابن حيّان ، أكبر مؤرّخي الأندلس الإسلامية ... لقد أكدت في النهاية أن مؤرخنا ابن الأبّار كان أوّل من خطا من بين المؤرّخين العرب ، نحو نقد التاريخ ، هذه الشهرة التي اكتسبها فيما بعد ابن خلدون)[66] .

وفي التّراجم كتب ابن الأبّار عدة مؤلفات منها التّكملة لكتاب الصّلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضا كتاب الحلّة السيراء في تراجم بعض أعيان الأندلس والمغرب منذ الفتح إلى عصره . وهو كتاب قيّم جدّا بالنّسبة إلى التّراجم وتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس في القرن 12/6 .

ولهذا العالم مؤلّفات أخرى[67] بديعة ، منها : معادن اللّجين في مراثي الحسين . يقول محلوف في شأنه : (ولو لم يكن له من التّأليف إلّا هو لكفاه على علّو درجته في العلوم وسموّ رتبته)[68] . وله كتاب آخر في منتخب الأشعار سمّاه : قطع الرياض ، وله كتاب : هداية المعترف في المؤتلف والمختلف ، وله المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي : وهو يشتمل على ثلاثمائة وخمسين ترجمة لطائفة من علماء الأندلس[69] ، وتحفة القادم ترجم فيها للشّعراء بالأندلس ، ودرر السمط في خبر السّبط يتحدث فيه المؤلف عن آل البيت : وهو الكتاب الذي أظهر فيه مؤلّفه تشيّعه

---

(65) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين تعريب محمد عبد الله عنان ، الطبعة 2 ، القاهرة ، 1958، ص 505 .

(66) عبد الله أنيس الطبّاع : كتاب الحلّة السيراء . ص 17 ، ص 153 .

(67) حسين مؤنس : الحلّة السّيراء ص 46ـ 54، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة: 66/3.

(68) شجرة النّور ج 6 . ص 196 .

(69) نفس المصدر .

لعلي بن أبي طالب وهاجم فيه الأمويين السنّة بشدّة[70] . ومن هذه المؤلّفات أيضا كتاب : إعتاب الكتاب ، كتبه ابن الأبّار لمّا أعفي من منصبه وأبعد عن القصر وألزم بالإقامة الجبرية في داره ، وهو كتاب تاريخي أيضا ترجم فيه المؤلّف لكتّاب تعرّضوا لغضب الملوك والسلاطين والخلفاء ثم حلّت بهم نعمة الرضى فأعتبوهم ، وهو الكتاب الذي استشفع فيه مؤلفه بولّي العهد الحفصي فغفر الأمير له وأقال عثرته [71] .

وإذا نظرنا بدقّة في كتب ابن الأبّار التي وصلتنا وهي ستة، والكتب التي ضاعت وهي تسعة وثلاثون ، يمكننا أن نلاحظ أنّها ركّزت على أربعة محاور رئيسية هي الحديث والأدب والتّاريخ والتّراجم . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أن ميدان ابن الأبّار الحقيقي كان التّاريخ والتراجم . وكتبه الثلاثة الباقية في هذا الفن تشهد بمقدرته وهي : الحلّة السّيراء والتكملة لكتاب الصلة ، والمعجم في أصحاب أبي علي الصدفي[72] .

إنّ ابن الأبّار كان عالما مؤلّفا ، ومدرّسا قديرا ، وشاعرا عظيما . ولهذا السبب يمكننا أن نقرّر أنه شارك مشاركة فعّالة ومباشرة في النّهضة التي انبثقت في تونس منذ العقد الثالث من القرن 13/7 . فكتبه كانت متداولة بين النّاس قبل مقتله وبعده . وشعره أيضا كان مرويّا في كامل المغرب العربي وكذلك الأندلس . إنّ الأوصاف التي نُعتَ بها عالمنا في القسم الأوّل من هذا البحث لا تدع أي شكّ في مكانته . أضف إلى تلك الدروس التي كان يلقيها أمام طلبته في بجاية ثم في تونس ، فقد سجّلها هؤلاء الطلبة في مؤلفاتهم ورحلاتهم وخلدوها إلى اليوم . لقد كان ابن الأبّار يدرّس بجامع الزيتونة . وكانت كتبه من بعده تدرّس في الجوامع وحلقات العلم ، منها كما ــ يذكر العبدري ــ كتاب درر السّمط في خبر السّبط[73] . ومن تلاميذ ابن الأبّار سواء في بجاية أو في تونس ابن رُشَيْد . وقد أثنى هذا الطالب على أستاذه في رحلته ، وكذلك درس عليه أبو عبد الله التّجاني قريب صاحب الرّحلة وأجازه أيضا[74] .

كان لابن الأبّار تأثير ملموس في محيطه حيث كانت له ثقافة علمية باهرة ، عليها قامت شخصيته العلمية والأدبية الفذّة . وقد طبع عصره بنشاطات علمية ومؤلفات قيمة

(70) دائرة المعارف الإسلامية الطبّعة الجديدة : 3 /66 .
(71) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 654 .
(72) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 48 ــ 57 .
(73) العبدري : الرحلة . ص 126 .
(74) شجرة النّور ج 1 . ص 196 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سواء في العلوم أو في الأدب أو في الشّعر أو في التّاريخ والتراجم أو في غيرها . وامتازت كتبه بالدقة والإتقان بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وهو (واحد من أعلام مؤرخي العلم في الأندلس ومرجع من المراجع التي لا يستغنى عنها مؤرخ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين خاصة)[75] .

لقد كان ابن الأبّار (مؤرخا فحلا واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، ومادة التّراجم لديه متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنيّة بكل ما ينفع المؤرّخ)[76]. ويضيف حسين مؤنس بعد هذا الحكم قوله : (ولا أذكر أنني قرأت لغير ابن الأبّار في الأندلس شيئا يدلّ على سعة العلم على هذه الصورة . فهو متمكّن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بني العباس أو خلفاء الفاطميين أو أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقدا لا يمرّ بخطأ في تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه . وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدلّ على أنه بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي)[77] .

أما تأثيره في المجال الشّعري في تونس فإنه متأكد وقصيدته السّينيّة التي ألقاها بين يدي أبي زكرياء الحفصي كانت ذائعة الصّيت في تونس وفي معظم العالم الإسلامي

ويكفي أن نشير هنا إلى تأثيرات ابن الأبّار في الشّعر بمثال واحد أورده محمد مخلوف ذكر فيه أن قصيدة ابن الأبّار السينية المشهورة كانت محلّ نقاش وتحليل ونقد من طرف الأدباء والنقاد ، وعارضها بعض الشّعراء . ودافع عنها أبو إسحاق التّجاني بكتاب ألّفه خصيصا لهذا الغرض وهو كتاب مؤازرة الوافد ومبارزة النّاقد في الانتصار لابن الأبّار[78] . وبصفة عامّة يعتبر ابن الأبّار (أكبر مصنّف لمعاجم الرجال أنجبته الأندلس)[79] .

---

(75) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 51 .
(76) المصدر السابق ص 53 .
(77) المصدر السابق ص 53 .
(78) شجرة النور ج 1 ص 195 .
(79) حسين مؤنس : الحلة السيراء . ص 53 .

ومما لا شكّ فيه أن هذه القيمة العلمية التي يتمتع بها في نظر العلماء والطلبة في السابق ، والمستشرقين وغيرهم اليوم كانت نتيجة لنبوغه ونتاجه الفكري ، فقد كان (يمتاز بملكة نقديّة صحيحة قوية ، إلى جانب عاطفة جياشة تذكّرنا بفحول الشعراء العرب القدامى ، وأسلوبهم في الحياة والإحساس وهو شيء نادر بين معاصريه...)[80] .

عاش ابن الأبّار ثلاثا وستين سنة هجرية : اثنتان وأربعون منها في الأندلس والباقي في تونس ولم يسعد لا في هذه ولا في تلك ، كما يقول حسين مؤنس (... فأمّا في الأندلس فقد عاش مروّع السرب يحوم فوقه شبح الموت في كل حين ... ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب (تونس) حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلّعه إلى الوظائف والجاه . فلم يسعد في وطنه الجديد ولا هدأ باله وانتهى أمره إلى هذه النّهاية الفاجعة)[81] .

من الطّريف في دنيا التّأليف، كتاب :

* عبد العزيز العروي : شاهد عصره : للأستاذ محمد التّركي (بالفرنسية. نشر دار التّركي للنّشر) جمع فيه المؤلّف ـ الذي تعرّف على العروي عن كثب ـ وثائق عديدة من تونس وفرنسا أهمّها مقالاته الصحفيّة وأسماره الاذاعيّة، إضافة إلى أقوال من عمل معه في الحقل الاذاعي ومن عاشره من أفراد أسرته وأصدقائه. فجاء الكتاب مرآة تعكس حياة المترجم له منذ صباه إلى حين وفاته بنفس الدقّة التي كان هو يصوّر بها المجتمع التونسي بكلّ شرائحه في الثّلاثينيات وما بعدها.

---

(80) الطّباع : كتاب الحلة السيراء ص 112 .
(81) المصدر السّابق ص 46 .

الدّار التونسيّة للنّشر

من أعرق دور النّشر وأهمّها على مستوى المغرب العربي أنشئت في 3 جوان 1966 .

مقرّها : 36 نهج باب الخضراء . تونس ــ الهاتف : 344.565 ــ الحساب الجاري البريدي : 77229 ، الدّفتر التّجاري : 33510.

من أهدافها الأساسيّة : نشر التّراث الوطني والقومي ، والانتاج الفكري والأدبي تشجيعا للطاقات المبدعة الجديدة.

أصدرت أكثر من 700 عنوان في ميادين شتّى :

I ــ التّراث الأندلسي :

1 ــ ديوان المعتمد بن عبّاد : جمع وتحقيق. د. رضا السّويسي .

2 ــ خريدة القصر وجريدة العصر لأبي عبد الله الإصفهاني. تحقيق آذرتاش آذرنوش. تنقيح وإضافات للأساتذة : محمّد المرزوقي ، ومحمّد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى (جزء I ، II : شعراء المغرب والأندلس) .

3 ــ قرطبة الإسلاميّة : د. محمّد عبد الوهّاب غلاّف .

4 ــ ابن سيدة المرسي : حياته وآثاره : د. كابانيلاس ، تعريب : د. حسن الوراكلي .

5 ــ الرحلة الأندلسيّة : علي بن سالم الوردّاني . تحقيق : الأستاذ عبد الجبّار الشّريف .

II ــ الموسوعات :

1 ــ تفسير التّحرير والتّنوير للشيخ العلاّمة محمد الطاهر بن عاشور (30 جزءا في 15 مجلّدا) .

2 ــ ترجمة معاني القرآن الكريم في جزءين : الأستاذ الصادق مازيغ .

3 ــ الأعمال الكاملة لأبي القاسم الشّابي (أغاني الحياة ، الخيال الشعري عند العرب، مذكّرات الشابي ، رسائل الشابي) ، (مجلّدان) .

4 ــ المقدّمة لابن خلدون : تقديم د. جمعة شيخة (في جزءين) .

5 ــ إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضّياف (8 أجزاء) .

III ــ السّلاسل : كما تقوم الدّار بنشر سلاسل من الكتب : كسلسلة الكتب شبه المدرسيّة باللّغة الفرنسيّة، وسلسلة المكتبة الفلسفيّة وسلسلة علامات، وسلسلة الكتاب الجامعي، وسلسلة علم الاجتماع العربي، وسلسلة إبداعات.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القيمة الوثائقيّة لديوان ابن الأبّار[1]

بقلم : د. جمعة شيخة
كلّية الآداب ــ منّوبة ــ تونس

تقديم الدّيوان .

رغم ما تعرّض له التّراث الأندلسي من محن وكوارث أدّت إلى إتلاف جزء كبير منه ، فإنّ الدّارسين لم يألوا جهدا في البحث عمّا بقي منه ، سواء في المكتبات العامّة أو الخاصّة ، لتحقيقه ونشره في مرحلة أولى ، ودرسه وتقييمه في مرحلة ثانية .

وهذا المجهود لا شكّ أنّ نقّاد الأدب عامّة ، والشعر منه بصفة خاصّة ، في حاجة أكيدة إليه ، لأنّه لا يمكن لهم إبداء أيّ حكم يتّسم بالدّقة والشّمول معا إلّا إذا توّفرت لديهم النّصوص ، وهي دواوين الشّعراء .

ولقد توفّر للمهتمّين بالشّعر الأندلسي بعض هذه الدّواوين . فمنذ سنوات تمّ تحقيق مجموعة لا بأس بها نذكر منها :

ــ ديوان يحي بن حكم الغزّال ت 864/250 (تحقيق محمد رضوان الدّاية ط 1 دمشق 1982) .

ــ ديوان ابن درّاج القسطلّي ت 1029/421 (تحقيق د. محمود علي مكي ط 2 بيروت 1389) .

ــ ديوان ابن شهيد ت 1035/426 (تحقيق شارل بلا بيروت 1963) .

---

(1) طبع بتونس 1985 بالدّار التّونسيّة للنّشر . تحقيق الأستاذ عبد السّلام الهرّاس في 496 صفحة .

ـ ديوان أبي إسحاق الإلبيري ت 1067/460 (تحقيق محمد رضوان الدّاية ط بيروت 1976) .

ـ ديوان المعتضد بن عباد ت 1069/461 (تحقيق رضا السويسي . فصلة من مجلّة التربية بطرابلس) .

ـ ديوان ابن زيدون ت 1071/463 (تحقيق محمد سيد كيلاني، ط 3 مصر 1965) .

ـ ديوان المعتمد ت 1095/488 (تحقيق د. رضا السويسي ط تونس 1975) .

ـ ديوان ابن اللّبّانة ت 1013/507 (تحقيق محمد مجيد السعيد. ط البصرة 1977) : جمع لشعره .

ـ ديوان الأعمى التّطيلي ت 1130/525 (تحقيق إحسان عباس ، ط البصرة 1977) .

ـ ديوان ابن الزقّاق ت 1135/529 (تحقيق عفيفة محمود ديراني ، ط بيروت) .

ـ ديوان ابن خفاجة ت 1139/533 (ط بيروت 1961) .

ـ ديوان ابن قزمان ت 1160/555 (تحقيق ف. كورينطي ، ط مدريد 1980) .

ـ ديوان الرصافي البلنسي ت 1176/572 (تحقيق إحسان عباس ، ط 2 بيروت 1983) .

ـ ديوان ابن سهل الإسرائيلي ت 1251/649 (تحقيق محمد قوبعة . ط تونس 1985) .

ـ ديوان حازم القرطاجنّي ت 1285/684 (تحقيق عثمان الكعاك ط بيروت 1964) .

ـ ديوان ابن الجيّاب ت 1347/749 (تحقيق السيدة خيسوس روبيرا . ط غرناطة 1982) .

ـ ديوان ابن خاتمة ت 1368/770 (تحقيق محمد رضوان الداية ، ط دمشق 1972) .

ـ ديوان ابن الخطيب ت 1375/776 (تحقيق محمد الشريف قاهر . ط الجزائر 1973) .

ـ ديوان يوسف الثّالث ت 1417/820 (تحقيق عبد الله كنون ، ط القاهرة 1965) .

ـ ديوان ابن فركون ق 15/9 (تحقيق محمد ابن شريفة ط المغرب 1987)[2] .

(2) وظهر ونحن بصدد القيام بهذا البحث ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي ق 15/9 . (تحقيق جمعة شيخة ومحمّد الهادي الطّرابلسي ط . تونس 1988) .

وانضاف إلى هذه المجموعة القيّمة من الأعمال خلال سنة 1985 ثلاثة دواوين : إثنان أعيد تحقيقهما وهما ديوان ابن سهل وديوان المعتمد (وفيه قسم مخصّص لشعر أبيه المعتضد بن عبّاد) . والثالث ديوان حقّق لأول مرّة وقام بتحقيقه الدّكتور عبد السّلام الهرّاس أستاذ الأدب الأندلسي بكلّية الآداب جامعة الملك سيّدي محمد بن عبد الله ــ فاس ــ المغرب : وهو ديوان ابن الأبّار .

ولا شكّ أنّ الأستاذ الهرّاس بعمله هذا ــ وقد انتظرناه طويلا ــ سدّ ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الشّعر الأندلسي . فصاحب الدّيوان هو إحدى الشخصيات المرموقة خلال القرن 13/7 على المستويين السيّاسي والأدبي : مارس السيّاسة في أحلك فترة من فترات تاريخ شرقيّ الأندلس، كما مارسها في أصعب بلاط وأخطره بإفريقيّة . وخرج من المرحلة الأولى وقد سُلب وطنه ، وأُخرج من الثانية وقد أزهقت روحه[3] . أمّا من النّاحية الفكريّة والأدبيّة ، فقد وصلنا من آثار ابن الأبّار ــ رغم أنّ جلّ مؤلّفاته أحرقت معه عند مقتله ــ ما يدلّ على أنّنا أمام رجل قدير ذي ثقافة موسوعيّة ، طرق مجالات من المعرفة شتّى فلم يخفق له قلم ، وكتب في مواضيع متعدّدة فلم يكب له جواد . ولم يمنعه نشاطه السيّاسي المتنوّع ، ولا شواغله الفكريّة المتعدّدة من أن يكون أحد كبار شعراء المغرب والأندلس في القرن 13/7 . ولعلّ ديوانه هذا الذي أصبح في متناول الأيدي خير دليل على ذلك .

جاء هذا الدّيوان في 496 صفحة مقسّمة على النّحو التّالي :

1 ــ المقدّمة (ص ص 5ــ30) أشار فيها الأستاذ الهرّاس أن تحقيقه لديوان ابن الأبّار يمثّل القسم الثّاني من رسالة جامعية تقدّم بها لنيل شهادة الدّكتوراه الدّولية من كلّية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد سنة 1966 . أمّا القسم الأول من بحثه ــ ولم ينشر إلى حدّ علمنا ــ فهو المتعلّق بدراسة الدّيوان وحياة صاحبه وشاعريته . وبما أنّ المحقّق درس حياة الشّاعر وشعره في هذا القسم الأوّل من الأطروحة ، فلم يرد تكراره في هذه المقدّمة ، واقتصر على التّعريف بابن الأبّار تعريفا موجزا . كما قام بتقديم النّسخة الوحيدة التي اعتمدها في التّحقيق والمحفوظة في الخزانة الملكيّة بالمغرب تحت رقم 4602 .

2 ــ النّص المحقّق (ص ص 33 ــ 469) ويشتمل على :

أ ــ محتوى النّسخة السّابقة . وجاءت القصائد فيها مرتّبة على الحروف

(3) قتل ابن الأبّار بتونس يوم الثّلاثاء 20 محرّم 658 الموافق 1260/1/6 .

الهجائيّة حسب التّرتيب المغربي الأندلسي[4] باستثناء الحروف الأربعة التّالية : خ ــ ز ــ ط ــ ظ .

ب ــ ملحق 1 : وفيه ما جمعه المحقّق من شعر ابن الأبّار في مصادر مختلفة مطبوعة ومخطوطة، ولم يرد ذكره في الدّيوان .

ج ــ ملحق 2 : وفيه قصيدتان وجدهما المحقّق في ورقتين ملصقتين بالدّيوان ورجّح أنّهما لابن الأبّار .

3 ــ فهارس (ص ص 473 ــ 496) للقوافي ، والقصائد حسب الأغراض ، والقصائد حسب البحور .

ونحن نشاطر الدّكتور الهرّاس في (أنّ الإقدام على التّحقيق على نسخة واحدة مغامرة محفوفة بالمخاطر والمزالق خصوصا وهي حافلة بالتّصحيف والخُروم)[5] . ولكن نعتقد أنّ المحقّق خرج موفّقا من هذه المغامرة . فقد قدّم لدارسي الأدب الأندلسي نّصا سليما في جملته ، فيه من التّعاليق اللّغويّة والتّاريخيّة ما يجعل قراءته مفيدة ، ولِمَ لاَ ممتعة؟ .

لكن كّل هذا لا يمنع من أن نبدي بعض الملاحظات عنّت لنا بعد اطلاعنا على هذا العمل الجيّد : يبدو أنّ الأستاذ الهرّاس كتب مقدّمة الدّيوان منذ سنة 1969 ، ولم ير مُوجبا للرّجوع إليها عند طبعه . وهذا ما جعلنا نجد في هذه المقدّمة أشياء تجاوزتها الأحداث كما يقال ، فبعض الكتب التي ذكرها المحقّق مخطوطة قد حقّق وطبع كرحلة ابن رشيد (تحقيق الأستاذ محمد الحبيب بلخوجة) ، والذّيل والتّكملة (تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة) . والإحاطة (تحقيق الدّكتور عبد الله عنان) . وسبك المقال (تحقيق الأستاذ عبد الواحد الزغلامي)[6] .

ويبدو كذلك أنّ المحقّق كتب المقدّمة بسرعة مما جعله يرجح بعض الأراء بطريقة غير منهجيّة ففي ص 23 يقول : (إن نسخ هذا الدّيوان وقع حوالي سقوط الأندلس)

(4) التّرتيب الهجائي المغربي والأندلسي هو كالآتي : أ ــ ب ــ ت ــ ث ــ ج ــ ح ــ خ ــ د ــ ذ ــ ر ــ ز ــ ط ــ ك ــ ل ــ م ــ ن ــ ص ــ ض ــ ع ــ غ ــ ف ــ ق ــ س ــ ش ــ هـ ــ و ــ ي .

(5) الدّيوان ص 24 .

(6) قد يكون الأستاذ الهرّاس استعمل هذه المصادر مخطوطة سنة 1969 . لكن بما أنّنا في سنة 1985 يجب مراجعة ما قلناه في سنة 1969 وخاصة بمناسبة طبع الأثر المحقّق .

لكن ما هو الدّليل على ذلك ؟ وفي ص 13 نجد (وامتدت به (ابن الأبّار) الإقامة في بجاية بالتّحقيق (يقصد بالضّبط) سبع سنوات من سنة 650 ــ 657 ، وإن كنّا نظّن أنّها أكثر بقليل) لكن ما هي الحجّة في هذا التّرجيح ؟ إنّ البحث العلمي لا يمكن أن يطمئن إلى الحدس والتّخمين ولا يقوم إلاّ على الحجّة والدّليل . ومن نتائج هذا التسرّع :

ــ إيراد المحقّق بعض أسماء المؤلّفين دون ذكر عناوين كتبهم . ففي ص 29 يذكر من بين عناوين الكتب : (عبد المجيد) والحقيقة أنّ هذا هو اسم المؤلّف وعنوان كتابه الذي لم يذكر هو (ابن الأبّار) . والعكس يذكر اسم الكتاب دون ذكر لصاحبه فمن هو مؤلّف كتاب (قبائل العرب) المذكور في ص 35 تعليق 29 ؟ ومن هو مؤلّف (هبة الأيّام في أخبار أبي تمّام) ص 43 تعليق 34 ؟ وقد يذكر المصدر لكن بدون ذكر للصفحة (انظر ص 418 تعليق 5) .

ــ ذكره لبعض المعلومات هي في حاجة إلى مزيد التّدقيق . فأبو الحسين (وتارة أبو الحسن) عيسى ابن لب ... ابن دسيم هو زوج ابنة (ابن الأبّار) ص 15 . وتارة هو زوج ابنته أو أخته ص 16 . فإن كانت المصادر هي التي اختلفت في ذلك فما على الباحث إلاّ أن يشير إلى هذا الاختلاف . كما أنّ ما ذكره في التّعليق 7 ص 418 من احتمال ، هو بعيد جدّا عن روح القصيد ، فلو دقّق المحقّق لرأى أن كلمة (مصريّة) لا يمكن أن تعوّضها كلمة (مغربيّة) أو (حضريّة) .

ــ عدم ضبطه لمصادره بالطريقة المنهجيّة المتمثلة في ذكر المؤلف والمحقق ومكان الطبع وزمانه (انظر كيف جاءت قائمة المصادر في ص 29) .

ــ إهماله لترقيم أبيات القصائد ، ولعلّ هذا الإهمال جرّه إلى إهمال أكبر هو عدم وضعه لفهرس الأماكن والأعلام[7] . والأستاذ الهرّاس لئن لم يقم بالتّرقيم والفهرسة للأعلام والأماكن ، فقد حاول أن يشير في تعاليق له ، رمز لها بشكل نجمة ، إلى الظّروف التي حفّت بقول القصيدة أو المناسبة التي قيلت فيها . لكن يجب أن تكون هذه التّعاليق دقيقة وكاملة . فعلى سبيل المثال نجد في ص 55 ابن زيد . من هو

(7) قد يرى بعضهم أنّ فهرس الأعلام والأماكن في ديوان شعر عديم الجدوى . وهذا خطأ محض لأنّ الأحداث التاريخيّة والمظاهر الحضاريّة توجد مبثوثة خلال الأبيات ممّا يجعل ترقيمها ووضع فهرس من هذا النّوع محتّما .

ابن زيد هذا ؟ يكتفي المحقّق بإرجاعنا إلى المصادر لمعرفته وهذا غير عملي بالنّسبة إلى القارىء . وابن زيد هذا (خطأ مطبعي) هو أبو زيد عبد الرّحمان الموحّدي حاكم بلنسيّة أطرده منها أبو جميل زيّان ابن أبي الحملات في صفر 626/جانفي 1229 . فلجأ إلى أرغون وتمسّح . وكان ابن الأبّار قد خرج معه ثم رجع[8] وفي ص 197 تعليق 27 و 29 وفي ص 427 تعليق 21 نجد : ابن إسحاق : هو ابن غانية . لكن من هو منهما علي أو يحيى ؟ أو من بقي من إخوتهما في الجزائر الشرقيّة ؟ المقصود بطبيعة الحال في القصيدة هو يحيى بن غانية الذي بقي بعد مقتل أخيه علي ثائرا صامدا في وجه الدّولة الموحدّية ثم الحفصيّة حوالي نصف قرن . وفي ص 80 نجد المحقّق يعلّق على القصيدة 25 بقوله : (أنشأها بمناسبة بيعة بعض مدن الأندلس والمغرب لأبي زكرّيا الحفصي ، وذلك حوالي 641 هـ/1243 لأن إشبيلية (حمص بايعت هذه السّنة) . وهذا تعليق مقتضب وغير دقيق . فالأولى أن نذكر هذه المدن ــ خاصّة وقد عدّدها الشّاعر في القصيدة ــ بأسمائها ، ونعرّف بالظّروف التي كانت تمرّ بها كلّ واحدة منها حتّى رأت من الضّروري الدّخول في طاعة الحفصيّين ولو اسميّا . وفي ص 417 يقول المحقّق في تعليقه على القصيد 201 : أنشأها (يمدح أبا زكريا وولّي عهده ولعلّه أبو يحيى في طالع سنة جديدة ولعلّها سنة 640 هـ/1242 أو 641 هـ/1243 والبحث المنهجي لا يمكن أن يقبل مثل هذه التّعاليق التّقريبيّة غير الدقيقة .

والأستاذ الهرّاس لئن اعتمد على نسخة واحدة وفي ذلك ما فيه من المشقّة والجهد ، فإنّ كثيرا من شعر ابن الأبّار نجده مبثوثا في عدّة مصادر مطبوعة . وهذا من شأنه أن يسهّل نسبيّا على الباحث استخراج نصّ مقروء . وهنا كان من المستحسن أن يقوم المحقّق بعمليّة تخريج للأبيات ــ وذلك بالمقارنة بين المصادر ــ في بداية تعليقه على كلّ قصيدة حتّى يتمكّن الدّارسون من معرفة ما أضافه الدّيوان من جديد[9] .

والأستاذ الهرّاس قام بشرح الكلمات الصّعبة ، لكنّه أغفل كثيرا منها ، بعضها يبدو أصعب ممّا شرح . ففي ص 137 قصيدة 59 بيت 4 يشرح كلمة رداح ويترك كلمة

(8) ذكر المحقّق هذا في المقدّمة عند ترجمته لابن الأبّار . لكن يجب ذكره هنا في هذا المكان المناسب لإعانة القارىء على فهم القصيدة .

(9) قام المحقّق بالإشارة إلى ذلك داخل القصيد ، ولكنّه كان يذكر فقط المصادر دون مقارنة بينها ودون تحديد للأبيات كقوله ص 59 في تعليقه على القصيدة 13 (وردت بعض الأبيات في المغرب 312/2 . والقدح 192 وفي الرّايات 82) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ر أد . وفي ص 141 بيت 1 لا يشرح كلمة حدثان وبيت 7 كلمة إهطاع إلخ ... بل إنّ أبياتا كثيرة في حاجة إلى التّعليق لعسرها على الفهم . ومن أولى بشرحها من المحقّق ؟

وقام المحقّق بشكل الشّعر ، وأغفل شكل بعض الكلماتْ نرى أنّ شكلها واجب نظرا إلى أنّ الصعوبة تكمن فيها . وقد نجد بعض الهنات في الشكل . ففي ص 133 ، القصيدة 58 ، البيت 10 نرى أن كلمتي (وجدانها المنشود) يجب أن تقرأ منصوبة لا مرفوعة لأنّها مفعول به لأسمعت . وفي ص 421 ، البيت 6 يجب أن نقرأ يزخَر بفتح العين لا بضمّها . وفي ص 417 البيت 3 : الظلال هي التي تلاعب المياه . لذلك نرى أن يُقرأ الصّدر هكذا : (إذا لاعبت المياة ظلالُه) .

وفي ص 137 قصيدة 59. بيت 5 يجب أن نكتبه هكذا :

وَتَقَطَّعَتْ مَا بَيْنَنَا الأَسْبَابُ فَالْ أَقْلاَمُ خُرْسٌ وَ الرِّيَاحُ رَوَاكِدُ

حتّى يستقيم الوزن في الصّدر والعجز[10] . وفي ص 141 ، البيت 7 يجب أن نعوّض الهمزة القطعيّة في (المرّية) بهمزة وصلّية للوزن كذلك .

لكنّ كلّ هذه الملاحظات الجزئيّة لا يمكن بحال أن تنقص من قيمة عمل الدّكتور الهرّاس[11] فبخبرته العميقة بمناهج التّحقيق ومعرفته الشّاملة بعصر الشّاعر ، وضع بين أيدينا ديوانا على غاية كبيرة من الأهميّة . فهو زيادة على أنّه يكشف عن بعض جوانب من حياة الشّاعر الشخصية ويدقّقها ، يعطينا صورة عن القرن السّابع الخطر والخطير في نفس الوقت : ففيه انفصمت عُرى الوحدة التي أقامها بنو عبد المؤمن ، وفيه انتقل — ولو إلى حين — مركز الثّقل السيّاسي من المغرب الأقصى إلى إفريقيّة . وديوان ابن الأبّار يعكس بصورة واضحة الدّور الذي لعبه هذا المركز الجديد في محاولة منه لاستقطاب كامل القوى السيّاسية على السّاحة المغربية والأندلسيّة وصهرها في بوتقة الدّولة الحفصيّة بتونس . فكيف بدا كلّ ذلك من خلال هذا الأثر الشّعري ؟

إنّ النّاظر في ديوان ابن الأبار يمكن أن ينظر فيه من زاويتين : فإن كان ناقدا أو أسلوبيّا كانت غايته منه القيمة الجماليّة فيه ، وإن كان مؤرخا للأدب أو دارسا للتفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقيّة .

---

(10) جاء البيت في الدّيوان هكذا :

وَتَقَطَّعَتْ مَا بَيْنَنَا الأَسْبَابُ فَالأَقْ لاَمُ خُرْسٌ والرِّيَاحُ رَوَاكِدُ

(11) ذكر المحقّق بتواضعه المعهود منه أنّ صعوبات كثيرة اعترضته وأنّ (هناك مشاكل لا يمكن حلّها إلاّ بالعثور على نسخة أخرى من الدّيوان) ص 27 .

ولقد نظرنا في ديوان ابن الأبّار من الزّاوية الثانية أي بحثا عن قيمته الوثائقيّة ، فبدا لنا أنّ ديوانه ــ كحياته ــ يمكن أن نلاحظ فيه قسمين أو مرحلتين :

1 ــ المرحلة الأولى : تمثّل الفترة التي قضاها الشّاعر في شرقيّ الأندلس من مولده سنة 595 هـ/1198 م إلى انتقاله إلى العدوة الإفريقيّة سنة 636 هـ/1238 م .

2 ــ المرحلة الثّانية تمثّل الفترة التي قضاها في إفريقيّة وتمتدّ من هجرته إلى بجاية سنة 636 هـ/1238 م إلى مقتله سنة 658 هـ/1260 م .

وفي كلتا المرحلتين عاش ابن الأبّار أحداثا جساما تركت بصمات واضحة في شعره . وقد حاولنا أن نتتبع هذه الأحداث من خلال ما نظمه ابن الأبّار من شعر ، فكان ما وصلنا إليه تارة مدّعما لما جاء في المصادر التاريخيّة واضحا ، وحينا مدقّقا لما جاء بها عامّا وطورا ثالثا مضيفا أشياء قد لا يهتمّ بها المؤرّخون عادة في القرون الوسطى ولكنها بالنّسبة إلينا اليوم على جانب كبير من الجدوى . وسنبدأ بالمرحلة الأولى أي الفترة الأندلسيّة من حياة ابن الأبّار ونثنّي بالمرحلة الثّانية أي الفترة الإفريقيّة منها .

العدوة الأندلسيّة في ديوان ابن الأبّار

1 ــ فتنة بيران (12)

قام بها أهل هذه القلعة ضدّ السيّد أبي زيد عبد الرّحمان بن محمّد بن يوسف بن عبد المؤمن والي بلنسيّة . ولكن سرعان ما أذعنت هذه القلعة لابنه أبي يحيى وأعلنت طاعتها سنة 1225/622 . وذكر ابن الأبّار في قصيد مدح فيه أبا زيد ما كان ينتظر القلعة من تدمير وتخريب لو أصرّت على المقاومة . وهو في مدحه لا يخفي ابتهاجه بهذه النّتيجة التي أدّت إلى فوز الأمير بطاعة القلعة ونيل القلعة عفو الأمير . [البسيط](13).

1ــ لِلّــهِ قَلْعَــةُ بِيــرَانٍ وَعِزَّتُهَــا عَلَــى الأَعَاصِيــرِ فِــي مَــاضِي الأَعَاصِيــرِ
2 ــ عَنَتْ وَدَانَتْ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى فَرَقًا مِــنْ سَيِّــدٍ قَــدْ هَــوَتْ مِــنْ أَرْفَــعِ السُّور

(12) حصن من أعمال دانية (ابن سعيد : المغرب 419/2) .

(13) د/ص 442 (د = ديوان ابن الأبّار) .

کتابخانه ومرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

3ــ وَأَذْعَنَتْ وَهِيَ الشُّمُّاءُ ذُرْوَتُهَا ... عَلَى حِجَاجٍ لَهَا مِنْ قَبْلُ مَذْكُورِ
4ــ وَلَوْ أَصَرَّتْ عَلَى الإِعْرَاضِ ثَانِيَةً ... لأَصْبَحَتْ بَيْنَ تَخْرِيبٍ وَتَدْمِيرِ
5ــ مَدَدْتُ إِلَيْكَ أَبَا زَيْدٍ بِطَاعَتِهَا ... يَدًا مَخَافَةَ صَوْلٍ مِنْكَ مَشْهُورِ
6ــ وَأَكَّدَتْ فِي الرِّضَى وَالصُّلْحِ رَغْبَتَهَا ... كَمَا تَقَدَّمَ تَأْيِيدُ الْمَقَادِيرِ
7ــ فَحُدْتَ جُودَكَ بِالنُّعْمَى بِمَا سَأَلَتْ ... مِنَ الأَمَانِ لَهَا طَلْقُ الأَسَارِيرِ

2 ــ معركة أنيشة :

وقعت هذه المعركة يوم الخميس 20 من ذي الحجّة 14/634 أوت 1237 بين جيش بلنسيّة يقوده الأمير زيّان بن مردنيش وجيش أراغوني في محاولة من المسلمين الاستيلاء على حصن أنيشة الذي اتّخذه النّصارى قاعدة للانطلاق والإغارة على نواحي إقليم بلنسيّة . وانتهت المعركة بهزيمة فادحة للمسلمين وكانت بمثابة انهيار الجدار الأندلسي بعد انهيار الجدار الموحّدي في معركة العقاب . واهتمّ ابن الأبّار بهذه المعركة من خلال رثائه[14] لشيخه أبي الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي ، وقد سقط صريعا على أرض الميدان . وفي الدّيوان نجد تحديدا للمعركة من حيث المكان والزّمان . قال ابن الأبّار [**طويل**][15] .

25ــ سَقَى اللَّهُ أَشْلاَءً بِسَفْحِ أَنِيشَةٍ ... سَوَافِحَ تُزْجِيهَا ثِقَالُ الْغَمَائِمِ
24ــ أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الْخَمِيسِ حِفَاظُهُمْ ... وَكَرُّهُمُ فِي الْمَأْزَقِ الْمُتَلاَحِمِ

وقال الشاعر يصف قتلى المسلمين في هذه المعركة ، وفي وصفه لهم إكبار وإجلال يخفي في ثناياه كثيرًا من الحسرة والألم : [**طويل**][16] :

1ــ أَلِمَّا بِأَشْلاَءِ الْعُلَى وَالْمَكَارِمِ ... تُقَدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا والصَّوَارِمِ
2ــ وَعُوجَا عَلَيْهَا مَأْرَبًا وَمَفَازَةً ... مَصَارِعُ غُصَّتْ بِالطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ
3ــ تُحَيِّي وُجُوهًا فِي الْجِنَانِ وَجِيهَةً ... بِمَا لَقِيَتْ حُمْرًا وُجُوهَ الْمَلاَحِمِ
4ــ وَأَجْسَادَ إِيمَانٍ كَسَاهَا نَجِيعُهَا ... مَجَاسِدَ مِنْ نَسْجِ الظُّبَى وَاللُّهَاذِمِ
17ــ تَغَلْغَلَ فِيهَا كُلُّ أَسْمَرَ ذَابِلٍ ... وَجَدَّلَ مِنْهَا كُلَّ أَبْيَضَ نَاعِمِ

(14) خصّص لرثائه قصيدة بـ 101 بيت .
(15) د/ص 277 .
(16) د/ص 275 ــ 276 ــ 277 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

21ـ فَعَامِلُ رُمْحٍ دُقَّ فِي صَدْرِ عَامِلٍ وَقَائِمُ سَيْفٍ قَرَّ فِي رَأْسِ قَائِمِ
22ـ وَيَا رُبَّ صَوَّامِ الْهَوَاجِرِ وَاصِلٍ هُنَالِكَ مَصْرُومُ الْحَيَاةِ بِصَارِمِ

وهؤلاء القتلى ، لئن فرّقت السنّ بينهم ، فقد جمع بينهم بذل النّفس جهادا واحتسابا ، قال الشّاعر [**الطّويل**] [17] :

20ـ أُصِيبُوا ، وَكَانُوا فِي الْعِبَادَةِ أُسْوَةً شَبَابًا وَشِيبًا بِالْغَوَاشِي الْغَوَاشِمِ

والعزاء الوحيد الذي قد يهوّن ما في نفوس المسلمين من وجد على إخوتهم ، هو ما ينتظر هؤلاء الشّهداء من جزاء عند ربّهم[18] .

7ـ تَسَاقَوْا كُؤُوسَ الْمَوْتِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى فَمَالَتْ بِهِمْ مَيْلَ الْغُصُونِ النَّوَاعِمِ
6ـ هُمُ الْقَوْمُ رَاحُوا لِلشَّهَادَةِ وَاغْتَدَوْا وَمَالَهُمُ فِي فَوْزِهِمْ مِنْ مُقَاوِمِ

3 ـ اللّجوء إلى النّصارى :

لمّا فرّ المأمون الموحّدي الانتقال من إشبيلية إلى مرّاكش سنة 1229/626 م، انحصر الصّراع في الأندلس في مرحلة أولى بين ابن هود من جهة وولاة الموحّدين من جهة أخرى . وازدادت الأمور تعقّدا عندما نجم ثائر آخر من شرقي الأندلس وهو أبو جميل زيّان بن أبي الحملات بن مردنيش ، وقام بطرد والي بلنسيّة من الموحّدين وهو أبو زيد فاضطرّ هذا الأخير ، وقد انهارت السّلطة الموحّدية أو كادت بالأندلس ، إلى الالتحاق بالنّصارى وكان معه كاتبه ابن الأبار . ويبدو أنّ هذا الوالي وحاشيته لم يتمكّنوا ، وقد أجبروا على الخروج من ديارهم ، أن يصطحبوا معهم كلّ أهلهم وذويهم . فكان ذلك ممّا زاد في ألم المحنة ووطأة الغربة . قال الشّاعر [**البسيط**][19] :

1ـ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ لاَ أَهْلٌ وَلاَ وَلَدٌ وَلاَ قَرَارٌ وَلاَ صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
2ـ كَانَ الزَّمَانُ لَنَا سِلْمًا إِلَى أَمَدٍ فَعَادَ حَرْبًا لَنَا لَمَّا انْقَضَى الأَمَدُ

---

(17) ديوان ص 277 .

(18) ديوان ص 276 .

(19) ديوان ص 178.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وما إن وصل ابن الأبّار إلى مملكة أراغون مع سيّده حتّى ندم ، وبدأ حنينه إلى الأهل والوطن يُنغصّ عليه حياته في بلاد النّصارى قال [الوافر][20] :

1ـ إِلَـى الإِلْفَيْـنِ مِـنْ أَهْـلٍ وَدَارٍ تَأَوُّبَنِـي اشْتِيَاقِـي وَادِّكَـارِي
2ـ وَحَـنَّ الْقَـلْبُ أَعْشَارًا إِلَيْهَـا حَنِيـنَ الْوَالِهَـاتِ مِـنَ الْعِشَارِ

وقوي هذا الحنين في نفس الشاعر واشتدّ ، وبات ابن الأبّار يشعر بغربة جسديّة وهو البعيد عن الوطن والأهل ، وروحيّة وهو المسلم بين النّصارى ، حتى أنّ إقامته في تلك الرّبوع أصبحت بمثابة الأسر والسّجن له . قال [الكامل][21] :

1ـ غَلَبَتْ عَلَيَّ لِبُعْدِكُمْ أَشْجَانِي وَجَفَا الْكَرَى مِنْ بُعْدِكُمْ أَجْفَانِي
5ـ أَسِرّ وَقَسْرٌ لاَ قَرَارَ عَلَيْهِمَا وَتَغَرُّبٌ عَنْ أُسْرَتِي وَمَكَانِي
4ـ لَوْ أَنَّ نَهْلاَنًا تَحَمَّلَ بَعْضَ مَا حُمِّلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى نَهْلاَنِ

ولمّا قرّر ابن الأبّار مغادرة مملكة أراغون والانتقال إلى أرض الإسلام لم يتّجه مباشرة إلى بلنسية كما تُوهم بذلك المصادر التّاريخيّة ، وإنّما اتّجه إلى شاطبة وبها أبو الحسين يحيى الخزرجي . وكان يحكم هذه المدينة باسم ابن هود ، كما كان في عداء مع حاكم بلنسيّة ابن مردنيش الذي افتتّ منه مدينة دانية .

ويبدو من خلال ديوان ابن الأبّار أنّ والي شاطبة هو الذي شجّع ابن الأبار على الانتقال من بلاد أراغون إلى شاطبة . قال الشّاعر [الوافر][22] :

14ـ أَمَـا أَنَّ اللَّيَالِـي غَالِبَـاتٌ وَلَيْسَ يُعْتَرَى بِالنَّصْرِ الْفَرْقَدَانِ
15ـ إِذَا لَمْ أَلْقَهَا بِعُلَى ابْنِ عِيسَى وَحَسْبِي مِنْ حُسَامٍ أَوْ سِنَانِ
16ـ فَلَسْتُ مِنَ الإِيَابِ عَلَى يَقِينٍ وَلَسْتُ مِنَ الذَّهَابِ عَلَى أَمَانِ
17ـ فَإِنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ يَنَالُ مِنْهَا مَنَالَ الذُّعْرِ فِي قَلْبِ الْجَبَانِ
18ـ يُنَهْنِهُهَا مَتَى نَهَدَتْ لِحَرْبِي وَيَأْخُذُ لِي الأَمَانَ مِنَ الزَّمَانِ
19ـ وَعَلِمْتُ أَنَا الْحُسَيْنِ عَنَاهُ أَمْرِي فَإِنِّي أَمْرُ خِدْمَتِهِ عَنَانِي
38ـ وَمِثْلُكَ رَقَّ سُؤْدَدُهُ لِمِثْلِي فَأَجْنَى رَاحَتِي ثُمَّ الأَمَانِي
39ـ وَرَاثَ جَنَاحَيَ الْمَقْصُوصَ ظُلْمًا وَأَنْسَانِي الأَحِبَّةَ وَالْمَغَانِي

(20) د/ص 199.

(21) د/ص 327.

(22) د/ص 324 ـ 325.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويبدو أنّ الشّاعر تعرّض إلى السّلب وهو في طريقه إلى شاطبة . وهذا أمر ليس بالغريب في منطقة شرقي الأندلس وفي مثل تلك الظروف العصيبة التي اختلط فيها الحابل بالنّابل . قال الشّاعر يصف حاله وهو كالأسير في بلاط النّصارى ، ويندب حظه وهو سليب في طريقه إلى شاطبة [**الكامل**][23] :

7ـ وَكَفَاكَ أَنَّ الرُّومَ كَانَتْ جِيرَتِي ... مِنْ جَوْرِ دَهْرِي وَاسْتِحَالَةِ حَالِي
8ـ كُنْتُ الطَّلِيقَ هُنَاكَ لَكِنْ لَمْ أَزَلْ ... مِنْ شِدَّةِ الْحَسَرَاتِ فِي أَغْلاَلِ
9ـ أَبْكِي عَلَى اسْتِئْصَالِ مَنْ خَلَّفْتُهُ ... وَأُطِيلُ فِي الأَسْحَارُ وَالآصَالِ
10ـ حَتَّى إِذَا فَارَقْتُ أَرْضَهُمُ الَّتِي ... كَانَتْ عِقَالاً ثَانِيًا كَعِقَالِي
11ـ وَدَعَانِيَ الشَّوْقُ الْمُذِيبُ جَوَانِحِي ... لِمَنَازِلِي فَأَجَبْتُهُ وَجِلاَلِي
12ـ لاَقَى بِي الْجَدُّ الْعَثُورُ عِصَابَةً ... ذَهَبَتْ بِمَا لِي كَيْ يَسُوءَ مَآلِي
13ـ فَاسْتَأْنَفَتْ نَفْسِي بِحُكْمِ شَقَائِهَا ... خَوْضًا لأَهْوَالٍ عَلَى أَهْوَالِ

ويبدو أنّ ابن الأبار ترك شاطبة بعد وفاة الخزرجي في شعبان 1237/634 وقصد بلنسيّة . وَعَلِمَ لينال حظوة لدى ابن مردنيش أنْ يتنصّل من مخدومه أبي زيد الموحّدي وأبي الحسين الخزرجي وأن يُشيد بالدّعوة العبّاسيّة التي انضوى تحت رايتها السّوداء ابن مردنيش . قال يخاطبه [**الطويل**][24] .

1ـ تُنَاضِلُ عَنْ دِينِ الْهُدَى وَتُدَافِعُ ... كَأَنَّكَ فِي الْهَيْجَاءِ أَبُوكَ (مُدَافِعُ)
20ـ يَسُرُّ بَنِي الْعَبَّاسِ خَلْعُكَ مَنْ غَدَا ... لِدَعْوَتِهِمْ مِنْ قَبْلِهَا وَهْوَ خَالِعُ
35ـ لِرَايَتِهِ السَّوْدَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ ... قِيَامٌ بِنَصْرِ الْحَقِّ أَبْيَضُ نَاصِعُ
39ـ أَمِيرَ الْعُلَى أَرْجُو وَمِثْلُكَ سَامِحٌ ... أَمِيرَ الْعُلَى أَدْعُو وَمِثْلُكَ سَامِعُ

وتعرّض ابن الأبار سواء في شاطبة أو بلنسيّة إلى اللّوم ، إذ رأى بعضهم في خروجه إلى أرض الرّوم منقصة ، فقال يردّ عليهم مبيّنا أنّ خروجه هو ضرب من الوفاء لمخدومه ، وأنّ ذلك لم يَمسّ في شيء دينه ومعتقده . وذهب في الدّفاع عن نفسه إلى أنّه في خروجه إلى أرض الرّوم يشبه الصّحابة من قريش الذين هاجروا إلى الحبشة .

---

(23) د/ص 250.

(24) د/ص 359 ، 1 ـ 360.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وابن الأبّار يبالغ في قياسه لأنّ هؤلاء الصحابة هاجروا من أجل عقيدتهم مضطرّين بينما التجأ هو من أرض إلاسلام إلى أرض الكفر باختياره . قال ابن الأبّار[البسيط][25] :

1ــ قَالُوا : الْخُرُوجُ لِأَرْضِ الرُّومِ مَنْقَصَةٌ فَقُلْتُ : كَلاَّ وَلَكِنْ صَادُهَا بَاءُ
2ــ إِذَا خَرَجْتُ وَفَاءً ثُمَّ عُدْتُ تُقًى أَثْنَتْ بِفِعْلِي عُدَاتِي وَالأُجِبَّاءُ
3ــ وَكَانَ لِي فِي فُرَيْشٍ أُسْوَةٌ وَكَفَى مَعَ النَّجَاشِي تَرَضَّاهَا الأُلِبَّاءُ

4 ــ سقوط بلنسيّة :

لقد فتحت هزيمة أنيشة الطريق أمام خايمي الأوّل ملك أراجون ليحقّق أمنية طالما راودته ، وهي الاستيلاء على عاصمة شرقي الأندلس بلنسيّة . وكانت هذه المدينة ، بعد أن سقطت كلّ الحصون التي كانت بمثابة الدّرع الواقي لها ، قد أصبحت تعُجّ بآلاف المتساكنين من أهلها ومن فرّ تحت ضغط الزّحف النّصراني منْ أرباضها وقراها .

وبدأ خايمي الأوّل حصار بلنسيّة في 5 رمضان 635/21 أفريل 1138 بعد أن وصلت إليه الحشود النّصرانيّة من جهات متعدّدة برّا وبحرا .

لقد أثّرت معركة أنيشة وما سبقها من أحداث في معنويات سكّان بلنسية فلمّا وقع حصارها ثّم سقوطها لم يكن ذلك ــ في نظر ابن الأبّار ــ ناتجا عن قوّة خارقة للعدّو فقط ، وإنّما كان كذلك نتيجة لانهيار معنويّات أهلها أدّى إلى شبه فراغ عسْكري أشار إليه الشّاعر [البسيط][26] :

22ــ خَلاَ لَهُ الْجَوُّ فَامْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى إِدْرَاكِ مَا لَمْ تَطَأْ رِجْلاَهُ مُخْتَلِسًا
23ــ وَأَكْثَرَ الزَّعْمَ بِالتَّثْلِيثِ مُنْفَرِدًا وَلَوْ رَأَى رَايَةَ التَّوْحِيدِ مَا لَبَسَا

لقد أدرك النّصارى نقطة الضعف هذه ، وهم يحاصرون بلنسيّة ، فأمعنوا على مرأى ومسمع من أهلها في إتلاف ما تأنّقوا سنين طويلة في إقامته من حدائق ورياض خارجها . وعمدوا إلى الآلات المخرّبة يصوّبونها على ما تفنّن البلنسيّون مدّة في إشادته من معالم

(25) د/ص 55.

(26) د/ص 397.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عُمرانيّة داخلها . قال ابن الأبّار يصف بداية هذا الحصار وما لحق المدينة المحاصرة من أضرار [البسيط][27] :

14ـ وَأَرْبَعًا نَمْنَمَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ لَهَا ... مَا شِئْتَ مِنْ خَلَعٍ مُوشِيَةٍ وَكُسَى

15ـ كَانَتْ حَدَائِقَ لِلأَحْدَاقِ مُؤْنِقَةً ... فَصُوِّحَ النَّضْرُ مِنْ أَدْوَاحِهَا وَعَسَا

16ـ وَحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنْظَرٍ عَجَبٍ ... يَسْتَجْلِسُ الرَّكْبُ أَوْ يَسْتَرْكِبُ الجُلُسَا

17ـ سُرْعَانَ مَا عَاثَ جَيْشُ الكُفْرِ وَاحْتَرَبَا ... عَيْثَ الذُّبَى فِي مَغَانِيهَا التِي كَسَبَسَا

18ـ وَابْتَزَّ بِزَّتَهَا مِمَّا تَحَيَّفَهَا ... تَحَيُّفَ الأَسَدِ الضَّارِي لِمَا افْتَرَسَا

19ـ فَأَيْنَ عَيْشٌ جَنَيْنَاهُ بِهَا خَضِرًا ... وَأَيْنَ غُصْنٌ جَلَيْنَاهُ بِهَا سَلِسَا

20ـ مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغٍ أُتِيحَ لَهَا ... مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا حِينًا وَلاَ نَعَسَا

21ـ وَرَجَّ أَرْجَاءَهَا لَمَّا أَحَاطَ بِهَا ... فَعَادَرَ الشَّمَّ مِنْ أَعْلاَمِهَا خُنُسَا

10ـ وَصَيَّرَتْهَا العَوَادِي العَابِثَاتُ بِهَا ... يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أَنِسَا

ولم يجد البلنسيّون ، وقد ضيّق النّصارى عليهم الحصار برّا وبحرا ، من وسيلة للخلاص إلاّ الاستنجاد . واتّجهت الأنظار في تلك الآونة إلى الدّولة الحفصيّة بتونس ، بعد أن خبا كلّ أمل في دولة الموحّدين بمرّاكش . ووصلت سفارة من أمير بلنسيّة أبي زيّان إلى أبي زكريّا الحفصي يقودها ابن الأبّار . فبلّغ هذا الكاتب الأندلسي بيعة شرقي الأندلس إلى الأمير الحفصي وأنشده سينيّته المشهورة يحثّه فيها على إدراك بلنسيّة وقد أخذ بمخنقها العدوّ . وكان أهمّ وتر عزف عليه ابن الأبّار لحثّ الاستغاثة ، الوتر الدّيني . فهو على يقين من أنّ الدّولة الحفصيّة الفتيّة تتوق إلى أن تحلّ محلّ الدّولة الموحّديّة المحتضرة في دورها الدّفاعي عن الإسلام والمسلمين . فها قد حانت الفرصة لها لتبرهن على أنها قادرة ، عن جدارة ، على القيام بهذا الدّور . فالإسلام في الأندلس بمبادئه ومعالمه أصبح مهدّدا .[البسيط][28] :

12ـ يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعِدَى بِيَعًا ... وَلِلنِّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا

13ـ لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِتِهَا ... مَدَارِسًا لِلْمَثَانِي أَصْبَحَتْ دُرُسَا

(27) د/ص 7 ـ 396.

(28) المقّري : ن / 4 / 457 ـ د/ص 396. (ن = نفح الطّيب) .

وقد تأثّر الأمير أبو زكريا لقصيد ابن الأبّار ، وبادر بتجهيز بعض قطع من الأسطول الحفصي . وشحنها بالسّلاح والأطعمة والكسى والأموال وخرجت في اتجاه بلنسيّة . قال ابن الأبّار وكلّه أمل في كسر شوكة العدوّ [**الوافر**][29] :

1ـ ظَهِيـرَاكَ التَّوَكُّـلُ وَالْـمَضَاءُ فَعُنْـصُرُ الْكُفْـرِ أَنْ لَـهُ انْـقِضَاءُ
34ـ هَنِيئًـا عَـامُ إِقْبَـالٍ جَدِيـدٌ يُمْـنِ طُلُوعِـهِ عَـمَّ الْهَنَـاءُ
35ـ وَإِعْـدَادٌ لِغَـزْوِ الشِّرْكِ تَزْكُـو بِنِيَّتِـهِ الْمَثُوبَـةُ وَالْجَـزَاءُ
41ـ فَلِلتَّثْلِـيثِ وَهْـنٌ وَانْضِعَاعٌ وَلِلتَّوْحِيـدِ أَيْـدٌ وَارْتِقَـاءُ

لكن هذه الإعانة لم تصل إلى المدينة نظرا إلى مناعة الحصار المضروب حولها من كلّ الجهات وانتهى بها الأمر إلى أن أفرغت حمولتها في ثغر دانية بعيدا عن أرض المعركة .

ولم تستطع بلنسيّة ، بعد حوالي 7 أشهر من الحصار ، الاستمرار في المقاومة وقد نضبت أو تكاد مواردها الغذائيّة ، فبدأت المفاوضات مع ملك أراجون لتسليم المدينة صلحا على أن يؤمّن أهلها في أنفسهم . وبعد أن ضبط نصّ وثيقة الاستسلام دخل خايمي الأوّل بلنسيّة دخول الفاتحين متوّجا بأكاليل الغار في 27 صفر 9/636 أكتوبر 1238 .

وهذه النكبة في هولها وشدّتها كريح عاتية عصفت بكلّ نفس فتركتها ترسل الآهات توجّعا وتفجّعا . قال ابن الأبّار [**البسيط**][30] :

3ـ كَزَعْزَعِ الرِّيحِ صَكَّ الدَّوْحَ عَاصِفُهَا فَلَـمْ يَـدَعْ مِـنْ جَنَـى فِيهَـا وَلاَ غُصُنِ
14ـ وَاهًـا وَآهًـا يَمُـوتُ الصَّبْـرُ بَيْنَهُمَـا مَـوْتَ الْمَحَامِـدِ بَيْـنَ الْبُخْـلِ وَالْجُبُـنِ

(29) د/ص 46 ، 9 ـ 48 .

(30) د/ص 1 ـ 320

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لقد تسلّط الأعداء، بتغلّبهم، على مقدّساتها فدنّسوها، وبربريّتهم، على معالمها الحضاريّة فخرّبوها، وبوحشيّتهم، على بهجة الحياة فنغّصوها. قال الشّاعر [الكامل][31]:

20ـ بِأَبِي مَدَارِسُ كَالطُّلُولِ دَوَارِسٌ نَسَخَتْ نَوَاقِيسُ الصَّلِيبِ نِدَاءَهَا
21ـ وَمَصَانِعٌ كَسَفَ الضَّلاَلُ صَبَاحَهَا فَيَخَالُهُ الرَّائِي إِلَيه مَسَاءَهَا
22ـ رَاحَتْ بِهَا الْوَرْقَاءُ تُسْمِعُ شَدْوَهَا وَغَدَتْ تُرَجِّعُ نَوْحَهَا وَبُكَاءَهَا
26ـ أَمَّا الْعُلُوجُ فَقَدْ أَحَالُوا حَالَهَا فَمَنِ الْمُطِيقُ عِلاَجَهَا وَشِفَاءَهَا.
27ـ أَهْوَى إِلَيْهَا بِالْمَكَارِهِ جَارِحٌ لِلْكُفْرِ كَرَّةَ مَاءَهَا وَهَوَاءَهَا

والشّاعر، لئن ألحّ على وصف قسوة النّصارى في حصارهم للمدينة، فقد أشار إلى تأهّبهم للقتال واستعدادهم ونوّه بشجاعتهم وتفانيهم في المعركة. ولاح باللائمة على قومه. فقد أخطؤوا التّقدير وتهاونوا، وكفروا بالنّعمة وبطروا. قال ابن الأبار في قصيدة مطلعها [البسيط][32]:

1ـ وَطِّنْ عَلَى الذَّائِبَيْنِ: الدَّمْعِ وَالشَّجَنِ يَا نَادِبَ الدَّاهِبَيْنِ: الأَهْلِ وَالْوَطَنِ

ثمّ أضاف واصفا النّصارى لائما قومه:

10ـ زُرْقًا أُسِنَّتُهُمْ مِنْ جِنْسِ أَعْيُنِهِمْ مُشْتَقَّةً مِنْ قِتَالِ الْفَرضِ وَالسُّنَنِ
11ـ قَدْ أَلْبَسُوا خَيْلَهُمْ أَمْثَالَ مَا ادَّرَعُوا وَاسْتَقْبَلُونَا حُصُونًا فِي ذُرَى حُصُنِ
12ـ هُمْ أَخْرَجُونَا مِنَ الأَوْطَانِ عَنْ حَنَقٍ وَزَحْزَحُونَا عَنِ الْجِيرَانِ مِنْ ضَغَنِ
13ـ فَكَمْ لَقِينَا عَلَى الأَمْصَارِ مِنْ فَنَدٍ وَكَمْ تَرَكْنَا لَدَى الكُفَّارِ مِنْ فَدَنِ
17ـ أُتِيحَ لِلرُّومِ مَا وَفَّى مَرَامِيَهُمْ فِيهَا بُؤْنَا بِطُولِ الغَبْنِ وَالْغَبَنِ

(31) د/ص 5 ـ 34

(32) د/ص 1 ـ 320

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبلنسيّة عند هذا الشاعر جنّة الخلد . ومن غرائب الأمور أن أصبحت الجنّة ــ وهي مأوى المؤمنين ــ مرتعا لأهل النّار من الضّالين [**الكامل**](33) :

23ــ عَجَبًا لأَهْلِ النَّارِ حَلُّوا جَنَّةً مِنْهَا تَمُدُّ عَلَيْهِمُ أَفْيَاءَهَا
24ــ أَمْلَتْ لَهُمْ ، فَتَعَجَّلُوا مَا أَمَّلُوا أَيَّامُهُمْ ، لاَ سَوْغُوا إِمْلاَءَهَا

وكما خرج منها الإيمان ورحل ، ودخلها الكفر وثوى ، أصبح معروفها منكرا وقولها زورا وتقواها زيفا [**الرّمل**](34):

14ــ يَا لَسَاحَاتِ ثَوَاهُنَّ الْعِدَى فَبِذَا الْمَعْرُوفُ مِنْهَا مُنْكَرَا
15ــ رَاحَ مَنْ آمَنَ عَنْهَا رَاحِلاً وَغَدَا يَحْتَلُّهَا مَنْ كَفَرَا
16ــ فَعَسَرَ الشِّرْكُ عَلَيْهَا فَمَهُ لَيْتَهُ أَلْقَمَ فِيهَا الْحَجَرَا

وأصبحت المدينة في أعماق نفس الشاعر موطن المتناقضات ، فهي محلّ الماء ومصدر العطش ومثوي الحب والكره ، ومكان الأنس والوحشة[**الطويل**](35) :

1ــ بَلَنْسِيَّةٌ يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ وَالْجَنَى سُقِيتِ وَإِنْ أَشْقَيْتِ صَوْبَ الرَّوَاجِسِ
2ــ أُحِبُّ وَأَقْلَى مِنْكِ حَالاً وَمَاضِيًا بِمُوحِشَةٍ مَوْتًا بِعَهْدِ الأَوَانِسِ
3ــ وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الدِّيَارَ أَوَاهِلٌ وَأَنْدُبُهَا نَدْبَ الطُّلُولِ الدَّوَارِسِ

ويغلب اليأس على النّفس ، وهي غارقة في بحر أحزانها ، فلم تعد ترى إلاّ حقيقة واحدة مُرّة ولكن لا مفرّ من الإصداع بها : وهي أنّ ما ضاع من المكاسب بسقوط بلنسيّة يصعب استرجاعه . قال ابن الأبّار [**كامل**](36) :

16ــ إِيهٍ بَلَنْسِيَّةٌ وَفِي ذِكْرَاكِ مَا يُمْرِي الشُّؤُونَ دِمَاءَهَا لأَمَاءَهَا
17ــ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى احْتِلاَلِ مَعَاهِدٍ شَبَّ الأَعَاجِمُ دُونَهَا فَيْجَاءَهَا

---

(33) د/ص 5 ــ 34

(34) د/ص 186.

(35) د/ص 400.

(36) د/ص 34.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويضطرّ الشّاعر إلى الرّحيل نهائيًا عن بلنسيّة بعد سقوطها وليس له من أهل إلّا ما سيجده لدى حاكم تونس الحفصي من أمن وإكرام وُعِد بهما أو شعر وهو يمدح أنّه سيحبوه بهما ، لو استقرّ بكنفه وحلّ بجواره . قال الشاعر يصف البحر الذي ركبه مع عائلته [**الطّويل**][37] :

33ــ أَلاَ حَبَّذَا فُلْكٌ مَوَاخِرُ زَاحَمَتْ غَوَارِبَ طَامٍ لاَ يُنَهْنَهُ طَامِخِ
34ــ جَرَتْ فَوْقَ مَوْجٍ كَالجِبَالِ تَنَاوَحَتْ فَكَيْفَ نَجَتْ مِنْ نَوْحِهَا الْمُتَنَاوِحِ

ويعاني الشاعر في هذه الرّحلة ألم الفراق لوطن محبوب ومشقة السّفر في بحر مخيف مع عائلة عديد أفرادها شديد عبؤها .[**الطويل**][38] :

27ــ صَغَا لِلْمَعَالِي مِنْهُ[39] عَائِلُ صِبْيَةٍ حَشَايَاهُمُ طَيُّ الْحَشَا وَالْجَوَانِحِ
28ــ يُصَابِرُ ضَرَّاءَ النَّوَائِبِ وَالنَّوَى وَتَطْوِي عَلَيْهَا الْكَشْحَ خِيفَةَ كَاشِحِ
29ــ فَوَارِيرُ[40] لَمْ يَرْبَأْ بِهَا الْبَحْرُ سَابِقًا وَلاَذَادَ عَنْهَا الْبَرُّ حَمْلَ الْفَوَادِحِ
30ــ تَكَادُ عَلَيْهَا النَّفْسُ تَذْهَبُ حَسْرَةً إِذَا لَمَحَتْهَا الْعَيْنُ وَسْطَ الضَّحَاضِحِ[41]

ويغلب شعور الأبوة على ابن الأبّار فينسى قليلا وطنه ويتركّز شعوره على أبنائه وما يحيط بهم من أخطار [**الطويل**][42] :

37ــ يَحِنُّ جَنَانِي رِقَّةً لِأَجِنَّةٍ ثَوَتْ فِي بُطُونِ الْمُنْشَآتِ السَّوَابِحِ
38ــ وَتُطْوَى عَلَى نَارِ التَّلَهُّبِ أَضْلُعِي وَحَامِي الْجَوَى مِنْ حَائِمَاتِ الْجَوَانِحِ
39ــ مُتَاحٌ مِنَ الأَقْدَارِ مَزَّقَ شَمْلَهَا بِكَسْحٍ مُغِيرٍ أَوْ إِغَارَةِ كَاسِحِ

---

(37) د/ص 125.

(38) د/ص 5 ــ 124

(39) الضّمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء

(40) بناته

(41) البحر

(42) د/ص 125.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويستقرّ الشّاعر بإفريقيّة ويعيش من قريب أجواء البلاط الحفصي ، ويعاوده الحنين إلى وطنه البعيد ويحاول إخفاء مشاعره فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا [**الخفيف**](43) :

3ــ رَامَ أَنْ يُخْفِيَ الغَرَامَ وَلَكِنْ ... لَمْ يَجِدْ مِنْ إِبْدَاءِ خَافِيهِ بُدَّا
6ــ يَا سَقَى اللهُ لِلرُّصَافَةِ عَهْدًا ... كَنَسِيمِ الصَّبَا يَرُقُّ وَيَنْدَى
9ــ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُرْجِعُ الدَّهْرُ عَيْشًا ... يَشْهَدُ الطَّيِّبُ أَنَّهُ كَانَ شَهْدَا
14ــ وَالثُّرَيَّا بِجَانِبِ البَدْرِ تَحْكِي ... رَاحَةً أَوْ مَسَأَتْ لِتَلْطِمَ خَدَّا

ويحنّ الشاعر خاصّة إلى الرّصافة ببلنسيّة وهو المكان الذي قضى فيه سنين شبابه . لكن أنّى الوصول إليه والعدوّ به مقيم ورابض [**الكامل**](44) :

1ــ مَا لِلْهَوَى إِلاَّ الرُّصَافَةَ مَأْرَبُ ... بَعُدَ الْغَدِيرِ فَكَيْفَ يَصْفُو مَشْرَبُ ؟
44ــ وَأَخَفُّ مَا حُمِّلْتُ مِنْ عِبْءِ الْهَوَى ... أَنْ أَسْتَرِيحَ إِلَى مَطَامِعَ تُتْعِبُ
45ــ يَا مَنْزِلاً كَانَ الْجِفَاظُ يُحِلُّهُ ... وَالْجُودُ بِالضِّيفَانِ فِيهِ يُرَحَّبُ
46ــ أَهْوَى حُلُولَكَ ثُمَّ يَسْلُبُنِي الْهَوَى ... أَنَّ الْعُهُودُ بِجَانِبَيْكَ مُطَنَّبُ
47ــ أَصْبَحْتُ فِيكَ مُعَذَّلاً وَ مُعَذَّبًا ... وَكَذَا الْمُحِبُّ مُعَذَّلٌ وَمُعَذَّبُ(45)

ويخلق هذا التمزّق النّفسي حالة مرضيّة لدى الشّاعر . فهو عاجز عن النّسيان وغير قادر عَلى الرّجوع [**الوافر**](46):

1ــ إِلَى أَوْطَانِهِ حَنَّ الْعَمِيدُ ... فَظَلَّ كَأَنَّهُ غُصْنٌ يَمِيدُ
2ــ وَمَسْقَطَ رَأْسِهِ ذَكَرَ اشْتِيَاقًا ... فَذَابَ فُؤَادُهُ وَهُوَ الْحَدِيدُ
3ــ وَلَوْ دَامَ السُّلُوُّ أَبَتْ عَلَيْهِ ... مَعَاهِدُ . عَهْدُهَا الْمَاضِي حَمِيدُ

(43) د/ص 175.
(44) د/ص 59 ، 3 ــ 62
(45) د/ص 66
(46) د/ص 177

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأشدّ ما يؤلم الشاعر هو ضياع الدّين بضياع الوطن . لقد كان لهذا الدّين في بلنسيّة وغيرها من أرض الأندلس من يحميها وينصرها كالحاجب القويّ المنصور بن أبي عامر . لكن ما إن ذهب منصور الإسلام حتّى زحف سفّاح النّصارى . قال [الكامل][47] :

7ـ قُلْ أَسْلَمَ الإِسْلاَمُ فِيهِ إِلَى العِدَى فَأَسَاهُ بَرْحٌ لاَ يُتَاحُ بَرَاحُهُ
8ـ لَمَّا تَحَجَّبَ فِي الثَّوَى مَنْصُورُهُ أَلْحَى عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ سَفَّاحُهُ

ولم يبق للشّاعر وقد غلب اليأس وأطبق القنوط إلاّ البكاء على وطن ضاع إلى الأبد [الوافر][48] :

7ـ يَشُقُّ عَنْ أَهْلِي نُزُوحِي وَيَعْلِبُنِي إِلَى وَطَنِي نُزُوعِي
8ـ فَكَمْ أَبْكِي الدِّيَارَ وَسَاكِنِيهَا بِطَرْفٍ مُسْعِدٍ وَدَمٍ هَمُوعِ

5 ـ سقوط إشبيليّة :

لقد أصبح الموقف في غربيّ الأندلس على درجة كبيرة من الخطورة في بداية العقد الرّابع من القرن 13/7 بعد سقوط كامل شرقيّ الأندلس بيد أراجون . فملك قشتالة سيعمل على أن يظهر بأنّه لا يقلّ حماسا عن ملك أراجون في حركة الاسترجاع المسيحيّة . ولهذا ما فتىء يتطلّع بنظره إلى إشبيلية عاصمة الموحّدين بالأندلس بعد أن استولى على قرطبة عاصمة الخلافة الأمويّة بها .

وكان الوضع الدّاخلي بإشبيلية عاملا مشجّعا لهذا الملك النّصراني على تحقيق ما تصبو إليه نفسه ، نتيجة للصّراعات الدّاخليّة المتتالية بها . وكان سكان إشبيلية على يقين أنّ دورهم في حركة الاسترجاع النّصراني سيأتي ، وكانوا مقتنعين بأنّ مدينتهم لا تستطيع أن تقف بمفردها لمواجهة الخطر النّصراني ، ولهذا وقع الاستنجاد بالدّولة

---

(47) د/ص 131.

(48) د/ص 365.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الموحديّة بعد الرّجوع إلى طاعتها سنة 1237/635 . ولمّا رأوا ضعف هذه الدّولة انضووا تحت لواء الدّولة الحفصيّة آملين أن تصلهم النّجدة من لدنها .

ولقد تسبّب وصول الوالي الحفصي الذي أرسله أبو زكريا إلى إشبيلية في فتنة أدّت إلى مقتل ابن الجدّ حاكم المدينة ، فاتّخذ فرديناند الثّالث ملك قشتالة ذلك ذريعة لغزو المدينة . وبدأ في أوائل 1246/644 بالهجوم على قواعدها الأماميّة ، ثمّ عاد إليها في سنة 1247/645 وحاصرها برّا وبحرا . وفي يوم الإثنين 5 شعبان 23/646 نوفمبر 1248 وقع الاتّفاق على تسليم المدينة على أن يغادرها أهلها في ظرف شهر .

ووصلت هذه الأنباء المؤلمة إلى البلاط الحفصي ، لقد افتكّت المدينة وهي خاضعة — ولو إسميّا — إلى الحفصيّين . فهل يعتبر هذا من باب الاعتداء عليهم ؟

إنّ قصيدة مدحيّة في ديوان ابن الأبّار توحي بأنّ حكّام تونس أصبحوا على يقين بوجوب العبُور إلى الأندلس للقيام بواجب الجهاد . فالأندلس تعيش في ظروف شبيهة بما عاشته مع ملوك الطوائف قبيل الزلّاقة . وتعيش في مناخ عسكري شبيه بما كانت عليه قبيل عبور عبد المؤمن بن علي إليها . فالفرصة سانحة إذا لإعادة (أرك) ثانية وأخذ الثأر من (العقاب) والظّهور بمظهر المنقذ للأندلس كما ظهر يوسف بن تاشفين بطل معركة الزلّاقة والمنصور الموحدي بطل معركة الأرك . قال ابن الأبّار[**المديد**](49) :

1ـ أُذِنَتْ أَرْضُ العِدَى بِافْتِضَاحِ ... هَلْ وَرَاءَ اللَّيْلِ غَيْرُ الصَّبَاحِ
5ـ إنَّ لِلتَّوْحِيدِ عَزْمًا صَحِيحًا ... يُوسِعُ التَّثْلِيثَ كَرًّا اكْتِسَاحِ
6ـ وَيُسَاقِي الصُّفْرَ حُمْرَ المَنَايَا ... بِالصِّعَادِ السُّمْرِ أَوْ بِالصِّفَاحِ
7ـ وُعِدَتْ أَنْدَلُسٌ مِنْهُ بِيَوْمٍ ... هِيَ لِاسْتِقْبَالِهِ فِي ارْتِيَاحِ
8ـ كُلُّ أَزْمٍ قَبْلَهُ وَالْبِهَامِ ... لانْفِرَاجٍ بَعْدَهُ وانْضَاحِ
9ـ إنْ يَكُنْ عِيدًا لِنَحْرٍ وَذَبْحٍ ... كَيْفَ شَاءَتْ فالأَعَادِي أُضَاحِي
10ـ بِالْفَسَادِ اعْتَمَدُوا كُلَّ صُنْعٍ ... وَعَلَى الْهَادِي مَعَادُ الصَّلاَحِ
11ـ أَحْمَى حِمْصٍ أَبَاحُوا جِهَارًا ... وَحِمَاهَا لَمْ يَكُنْ بِالْمُبَاحِ
12ـ لاَ وَيَحْيَى الْمُرْتَضَى . لاَهَنَاهُمْ ... بِأَلِيمِ الْقَرْحِ وَرْدُ الْقَرَاحِ
13ـ إنَّمَا يُرْقُبُ مِيقَاتَ فَتْحٍ ... هُوَ آتٍ فِي ضَمَانِ النَّجَاحِ

(49) د/ص 119 — 120

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إنّ العوامل المشجّعة على العبور كثيرة وأهمّها استتباب الأمن داخليّا ، وبه يكون المنقذ قد جمع بين الشّرعيّة الزّمنيّة بانتمائه إلى عدّي بن كعب جدّ عمر بن الخطّاب ، والشّرعيّة الآنيّة بقضائه على جميع الثّورات والفتن . ولم يبق له إلّا أن يحقّق المجد عن طريق الجهاد في الأندلس . قال الشّاعر [**المديد**][50] :

32ـ هَـذِهِ الْعُـرْبُ اسْتَكَـانَتْ وَكَـانَتْ ... فِـي التَّعَـاصِي مَثَـلاً وَالْجِمَـاحِ
36ـ دَوْلَـةٌ حَفْصِيَّـةٌ فِـي اقْتِبَـالٍ ... وَعُلَـى مَهْدِيَّـةٌ فِـي طِمَـاحِ
37ـ مُنْتَهَاهَـا فِـي عَـدِيّ بْـنِ كَـعْبٍ ... وَذُرَاهَـا فِـي اللُّبَـابِ الصُّرَاحِ

ويشير الشّاعر في ديوانه أنّ الأسطول الحفصي عبر فعلا مضيق جبل طارق في محاولة لإنجاد أهل الأندلس عامّة وأهل حمص خاصّة . فهل تمّ فعلا ذلك ؟ قال [**المديد**] [51] :

18ـ دَعْ أَسَالِيبَ الـنَّسِيبِ وَخُـذْ ... فِـي أَسَاطِيـرِ الأَسَاطِيـلِ
19ـ أُخَـوَاتُ الْخَيْـلِ سَابِحَـةٌ ... ذَاتُ تَزْيِيـنٍ وَتَزْيِيـلِ
22ـ لاَ تَـزَالُ الْعُجْـمُ تَعْجُمُهَـا ... طَـيُّ تَعْجِيـزٍ وَتَعْجِيـلِ
24ـ حَلَّـقَتْ مُخْتَلَّـةً بِهِـمُ ... شَرَّ تَحْلِيـقٍ وَتَحْلِيـلِ
25ـ وَسَلَتْ بَحْـرَ الْمَجَـازِ بِمَـا ... طَـرِبَتْ كَالنَّـيْبِ لِلنِّيـلِ
26ـ عَزْمُهَـا وَالـرُّومُ بِالْعُـدْوَى ... بَيْـنَ تَجْدِيـدٍ وَتَجْدِيـلِ
33ـ مَـا أَلُـو الْقُـرْآنِ إِنْ صَدَقُـوا ... عَزْمُهُـمْ مِـنْ جِيـلِ إِنْجِيـلِ
34ـ بِالْجَـوَارِي الْمُنْشَآتِ لَهُـمْ ... جَـرْيُ تَنْزِيـرٍ وَتَنْزِيـلِ
39ـ خَالَـقَتْ يَحْيَـى خَلِيقَتُـهُ ... حُسْنَ تَأْثِيـرٍ وَتَأْثِيـلِ

وبقي الشّاعر يحنّ إلى إشبيلية بعد سقوطها ، كما بقي يحنّ إلى بلنسيّة مسقط رأسه دون قدرة على الرّجوع إليهما كالطّائر المقصوص الجناح لا قدرة له على الطّيران . قال [**الطّويل**][52] :

20ـ يُسَائِلُ عَـنْ نَجْـدٍ صَبَاهَـا مُعَـاشِرٌ ... وَأُسْأَلُ عَـنْ جِـمْصَ النَّعَامَـى وَأُسْتَـقْصِي
21ـ وَلَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الْجَنَـاحِ لَطَـارَ بِـي ... إِلَيْهَـا وَلَكِـنْ حَصَّهُ الْبَيْـنُ بِالْـقَصِّ

(50) د/ص 121
(51) د/ص 4 ـ 233
(52) د/ص 331

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

6 ــ علاقته بأمراء الأندلس :

لا شكّ أنّ ابن الأبّار ربط علاقات ودّ وصداقة مع كثير من الأمراء والوزراء بالأندلس فزيادة على من خدمهم بقلمه من حكّام بلنسيّة وشاطبة ، كانت له مراسلات مع بعضهم الآخر . ومن هؤلاء هناك :

أ ــ أبو علي عمر بن أبي موسى والي جيّان : وقد راسل الشّاعرَ وهو بإفريقيّة عندما كان واليا على بجاية أو المهديّة[53] . ومن هذه المراسلات ما كتبه مع تمر أهداه إلى ابن الأبّار [**الطويل**][54] :

1ــ أَتَتْكَ خَلِيقَاتٍ بِحُسْنِ الخَلاَئِقِ بِهَا غُنْيَةٌ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْحَدَائِقِ

فأجابه ابن الأبّار [**الطويل**][55] :

1ــ أَمَوْلاَيَ حَقُّ العَبْدِ تَقْرِيرُ عُذْرِهِ إِذَا هُوَ لَمْ يَلْقَ الْحُقُوقَ بِلاَئِقِ
6ــ كَأَنَّ الَّذِي تُهْدِيهِ مِنْ ثَمَرِهَا اغْتَدَى بِرِيقَةِ مَوْمُوقٍ وَرِقَّةِ وَامِقِ
7ــ مَنَنْتَ بِهَا مَنْثُورَةً وَشَفَعْتَهَا بِمَنْظُومَةٍ كَالْعِقْدِ فِي نَحْرِ عَاتِقِ

فرّد أبو عليّ موّها بقطعة ابن الأبّار هذه [**الطويل**][56] :

1ــ أَتَتْ فَخَبَا مِنْ نُورِهَا نُورُ شَارِقٍ وَلاَحَتْ فَلَمْ يُلْمَحْ وَمِيضٌ لِبَارِقِ
2ــ وَجَاءَتْ مُوَشَّاةً مِنَ اقْلاَمِكَ الَّتِي بِرِيقَتِهَا رَاقَتْ صِفَاحُ الْمَهَارِقِ

فأجابه ابن الأبار مشيدا بشعر أبي علي [**طويل**][57] :

1ــ لِمَنْ كَلِمٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُتَنَاسِقِ لَهَا فَضْلُ مَوْصُوفَاتِهِنَّ الْبَوَاسِقِ
4ــ يَجِيشُ بِهَا بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّدَى حَبَا كُلَّ أُفْقٍ مِنْ حُلاَهُ بِفَائِقِ

---

(53) تولّى أبو علي هذا ولاية بجاية للدّولة الحفصيّة ثمّ انتقل منها إلى المهديّة في رجب 1240/638 (الحلّة : 282/2) .

(54) المصدر السّابق ص 285 .

(55) د/ص 4 ــ 453 .

(56) الحلّة : 2/ص 287

(57) د/ص 454

ب ــ سعيد بن الحكم حاكم منورقة[58] : من الصّعب القول إنّ ابن الأبّار اتّصل بهذا الأمير وهو بجزيرته . والرّاجح أنّ الشّاعر راسله وهو مقيم بإفريقيّة لِمَا سمعه عن بلاطه الذي أصبح ملاذا لأدباء العصر وعلمائه بعد سقوط ميورقة ومنطقة شرقيّ الأندلس بيد أراغون . ونجد في ديوان ابن الأبّار ثلاث مقطوعات مدحيّة في هذا الأمير الذي استطاع بحنكته أن يحتفظ بحكم هذه الجزيرة حوالي نصف قرن إلى أن توفّي سنة 1272/680 . قال ابن الأبار مؤكّدا على خصال تحلّى بها سعيد بن الحكم ، قلّ وجودها في ذلك الزّمن [**الخفيف**][59] :

1ــ سَيِّدٌ أَيِّدٌ رَئِيسٌ بَشِيشٌ ... فِي أَسَارِيرِهِ صِفَاتُ الصَّبَاحِ
2ــ قَمَرٌ فِي أُفُقِ الْمَعَالِي تَجَلَّى ... وَتَحَلَّى بِالسُّؤْدَدِ الْوَضَّاحِ
3ــ سَلَّمَ الْبَحْرُ فِي السَّمَاحَةِ مِنْهُ ... لِجَوَادٍ سَمَّوْهُ بَحْرَ السَّمَاحِ

وهي خصال سياسيّة بالدّرجة الأولى مكنته من تجنّب الغزو النّصراني . وكان ذلك في متناول أيديهم [**مجزوء الرّجز**][60] :

1ــ إِنَّ سَعِيدَ بْنَ الْحَكَمْ ... صِنْوُ الْعُلَى نَجْلُ الْكَرَمْ
2ــ رِئَاسَةٌ بِمِثْلِهَا ... يُفَاخِرُ السَّيِّفَ الْقَلَمْ
3ــ وَسُؤْدَدٌ مَجْمُوعَةٌ ... فِيهِ مَحَاسِنُ الشِّيَمْ

ولئن كان ابن الأبّار معجبا بخصال هذا الأمير ، فلا شكّ أنّه كان ينتظر أن يصله منه بعض هباته ، خاصة وقد عاش في إفريقيّة ــ عندما كان مغضوبا عليه ــ فترات صعبة . قال مؤكّدا على كرم سعيد بن الحكم [**الوافر**][61] :

1ــ كَأَنَّ عُلَاكَ أَفْلَاكٌ وَفُلْكٌ ... بِأَرْزَاقِ الْبَرِيَّةِ جَارِيَاتُ
2ــ كَأَنَّ هِبَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ ... نَتَائِجُ مَا لَهُنَّ مُقَدِّمَاتُ
3ــ وَمَهْمَا اهْتَزَّ جَيْشُكَ نَحْوَ جَيْشٍ ... فَأَنْتَ سِنَانُهُ وَهُوَ الْقَنَاةُ

(58) هي إحدى الجزر الثلاثة من الجزائر الشرقيّة وهي : ميورقة ومنورقة ويابسة .
(59) د/ص 129 .
(60) د/ص 459 .
(61) المطرب ص 179 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويبدو أنّ هذا الأمير ــ وهو الأديب ــ يجيب أحيانا ابن الأبّار شعرا، فقال صاحب الحلّة ردّا على إحدى مقطوعاته مؤكّدا على حماية سعيد بن حكم لجزيرة منورقة بتأمين العباد وفكّ الرّقاب . قال [**الكامل**][62] :

1ــ تِـلْكَ الْجَزِيـرَةُ[63] أَقْبَـلَتْ تُنْوِيهَـا سُحُبٌ تُنَـــالُ بِسَقْيِهَـــا تَنْوِيهَـــا
4ــ أَلِـفَتْ أُبَـا عُثْمَانِهَـا[64] ذَا سِيـرَةٍ عُمْرِيَّـــةٍ تُولِيـــهِ مَـــا يُوليهَـــا
8ــ فَكُّ الرِّقَـابَ صَنَائِعًـا مُـذْ قَـامَ لَـمْ يَنْـــفَكُّ يَأْنِيهَـــا كَمَـــا يُؤْنِيهَـــا

7 ــ التحريض على الجهاد بالأندلس :

لقد أصبحت مشاعر ابن الأبّار وأحاسيسه بعد سقوط بلنسيّة أوّلا ثم إشبيلية ثانية مركّزة في وطنه السّليب وأهله المشرّدين . وأدرك الشّاعر ، وقد ساء مزاجه ، أنّ حكّام العدوة الإفريقية قد تخلّوا عن هذا الوطن أو كادوا . لِذا عليه واجب مقدّس هو إذْكاءُ جذوة الحميّة في نفوس هؤلاء الحكّام لعلّهم يقومون بما يفرضه عليهم واجب الأخوّة والدّين والجوار .

والشّاعر نفسه وهو يحرّض البلاط الحفصيّ على نجدة الأندلس ، بين يأس من النّتيجة وأمل فيها . قال وهو في الحالة الأولى مخاطبا أبا زكريا الحفصي [**البسيط**][65] :

1ــ أُدْرِكْ بِخَيْـلِكَ خَيْـلَ اللهِ أَنْـدَلُسًا إِنَّ السَّبِيـــلَ إِلَـــى مَنْجَاتِهَـــا دَرَسَا
2ــ وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَـمْ يَـزَلْ مِـنْكَ عِـزُّ الـنَّصْرِ مُلْتَـمَسَا
3ــ وَحَـاشِ مِمَّـا تُعَانِيـهِ حُشَاشَتُهَـا فَطَالَمَـا ذَاقَتِ الْبَلْـوَى صَبَـاحَ مَسَا
4ــ يَـا لِلْجَزِيـرَةِ أَضْحَـى أَهْلُهَـا جَـزَرًا لِلْحَادِثَـاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَـا تَعِسَا
7ــ تَقَـاسَمَ الرُّومُ لاَ نَـالَتْ مَقَاسِمُهُـمْ إِلاَّ، عَقَائِلَهَـــا الْمَحْجُوبَـــةَ الأُنُسَا

---

(62) د/ص 462 .
(63) جزيرة منورقة .
(64) كنية سعيد بن حكم .
(65) د/ص 395

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفي الحالة الثانية قد يقوى الأمل في نفسه إلى درجة أنّه يعتقد أنّ أهل الأندلس سيأتي يوم يأخذون فيه بثأرهم من النّصارى بإعانة الحفصيّ . قال [**الرّمل**](66) :

16ــ إنْ يَكُنْ طَاغِيَةُ الرُّومِ بَغَى ... فَظُبَى الْهِنْدِ لَهُ بِالْمِرْصَدِ
18ــ غَرَّهُ الْبُعْدُ وَعَنْ قُرْبٍ يَرَى ... جِزْيَةَ الْكُفْرِ تُؤَدَّى عَنْ يَدِ
19ــ سَوْفَ تَغْشَاهُ الْجَوَارِي مِلْؤُهَا ... مَلأً كَالأُسْدِ ذَاتِ اللِّبَدِ

ومن العناصر الأساسيّة في التّحريض لدى ابن الأبّار هو التّأكيد على الحالة المزرية التي أصبح عليها أهل الأندلس وانعقاد أملهم الوحيد في أبي زكرياء وفي نجدته ومروءته . قال [**الطويل**](67) :

19ــ وَيَا لِرِضَى أَرْضِ الْجَزِيرَةِ بِالَّذِي ... تَيَمَّمَهَا يُنْهَى لَهَا الْفَوْزَ بِالأُهْنَا
20ــ فَأَنْدَلُسٌ قَدْ بُشِّرَتْ بِلِقَائِهِ ... تَرَقَّبُ مِنْ تِلْقَائِهِ الْفُلْكَ وَ السُّفُنَا
21ــ لِنُصْرَتِهِ مَا أُشْرِفَتْ رَاسِيَاتُهَا ... وَمَا صَيَّرَتْ عِلْمًا يَقِينًا بِهَا الظَّنَّا
22ــ لَعَلَّ بِلاَدًا حَالَ بِالرُّومِ حُسْنُهَا ... يُعِيدُ عَلَيْهَا غَزْوُهُ الظَّافِرُ الْحُسْنَا
23ــ فَيَرْتَشِفُ الْعَادِي بِهَا الْمَاءَ سَلْسَلاً ... وَيَغْتَبِقُ الضَّاحِي النَّسِيمَ بِهَا لَدْنَا
24ــ وَعَانٍ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ دِيَارُهَا ... بِمَا مُنِيَتْ مِنْهُمْ فَدِيمًا وَمَا ثُمْنَى
25ــ تُؤَمِّلُ يَحْيَى الْمُرْتَضَى لِحَيَاتِهَا ... وَتَرْجُو بِلُقْيَاهُ الإِقَالَةَ وَالْمَنَّا

والأندلس ، في نهاية الأمر ، جزء من الدّولة الحفصيّة بعد وصول بيعتها إليه . ويكفي الممدوح أن يأذن لبعض القبائل المناصرة له من دبّاب وعوف حتّى يغيّروا واقع المعركة ويردّوا كيد العدوّ في نحره . قال ابن الأبّار [**الكامل**](68) :

4ــ هِيَ دَارُكَ الْقُصْوَى أُوتْ لإِيَالَةٍ ... ضَمِنَتْ لَهَا مَعَ نَصْرِهَا إِيوَاءَهَا
13ــ طَافَتْ بِطَائِفَةِ الْهُدَى آمَالُهَا ... تَرْجُو بِيَحْيَى الْمُرْتَضَى إِحْيَاءَهَا
30ــ مَوْلاَيَ هَاكَ مُعَادَةً أَبْنَاءَهَا(69) ... لِتَنِيلَ مِنْكَ سَعَادَةً أَبْنَاءَهَا

---

(66) د/ص 152

(67) د/ص 298

(68) د/ص 33 ــ 34 ــ 35 ــ 36 .

(69) أي أنّ ما ذكره هنا كان قد قاله في قصيدته السّينيّة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

35ـ تاللّـهِ لَـوْ دَبَّتْ لَهَـا (دَبَّابُهَـا) لَطَـوَتْ عَلَيْهَـا أَرْضَهَـا وَسَمَاءَهَـا
36ـ وَلَـوِ اسْتَقَـلَّتْ (عَوْفُهَـا) لِقِتَالِهَـا لاسْتَقْبَـلَتْ بِالْمُقْرَبَـاتِ عَفَاءَهَـا
47ـ هَـذِي رَسَائِلُهَـا تُنَاجِـي بِالَّتِـي وَقَـفَتْ عَلَيْهَـا رَبْتَهَـا وَلَجَاءَهَـا

وبلاد الأندلس تعوّدت من الممدوح هذه النّجدة وتلك المروءة . فكم مرّة نادته ولبّى نداءها وحباها بالكثير من عنده [**الطّويل**][70] :

25ـ وَمِنْ قَبْلُ مَا اسْتَسْقَتْكَ أَنْدَلُسٌ فَلَمْ تَجِدْ جُودَكَ الفَيَّاضَ غَيْطًا وَلاَ بَرْضَا[71]

والشّاعر وهو يحرّض على نصرة الأندلس وإنقاذها من براثن العدوّ يشير إلى اصطدام الأسطول الحفصي بالأساطيل النّصرانيّة . ولكن يغلب على الظنّ أنّ ما ذكره الشّاعر من انتصارات لهذا الأسطول هو من باب ما يأمله ويترقّبه لا من باب ما تمّ فأبهجه وأسعده . قال [**الطويل**][72] :

42ـ سَوَابِحُـهُ عَـمَّ الأَعَـادِيَ غَدْوُهَـا بَوَارًا ، وَأَسْمَى السَّعْـيَ مَـا انْتَظَـمَ البَـرَّا
43ـ سَمَتْ لأَسَاطِيلِ النَّصَارَى فَقَهْقَرُوا لِتَصْوِيبِهَـا مُسْتَيْقِنِيـنَ بِهَـا الْقَهْـرَا
45ـ وَرَامَتْ لُيُوثَ الرُّومِ فُتْخًا كَوَاسِرًا فَمَـا وَجَـدُوا نَصْرًا وَلاَ عُدِمُـوا هَصْرَا
46ـ أَرَاقَتْ عَلَى الدَّأْمَاءِ حُمْـرَ دِمَائِهِـمْ فَـرَاقَتْ شَقِيقًـا فِـي الْبَسَـيْسَجِ مُحْمِـرًّا

وهذا الأسطول بما حقّقه من انتصارات أخاف العدوّ ، فأرسل الوفود تطلب هدنة وسلما مع صاحبه ، فهل تمّ ذلك فعلا ؟ أو أنّ الشّاعر يريد رفع معنويات ممدوحه بعد أن أرسل أسطوله لإعانة بلنسيّة المحاصرة . قال ابن الأبّار [**الطويل**][73] :

60ـ وَهذِي مُلُوكُ الرُّومِ تُنْخِصُ رُسْلَهَا بِسِلْـمِكَ تَبْغِـي لِلسَّلاَمَـةِ سُلَّمَـا
61ـ بِطَاغِيَـةِ الكُفَّـارِ أَبْـرَحَ ذِلَّـةٍ تُجَشِّمُـهُ مِـنْ حَمْلِهَـا مَـا تَجَشَّمَـا
64ـ تَصَوَّرَ تَجْهِيـزَ الأَسَاطِيـلِ نَحْـوَهُ فَحَيْعَـلَ بِالْمَنْجَـاةِ مِنْهَـا وَهَلْمَمَـا

(70) د/ص 347 .
(71) البَرْضُ : الماء يسيل قليلا .
(72) د/ص 8 ـ 207 .
(73) د/ص 3 ـ 272 .

65 ــ وَأَفْصَحَ يَثْنِي خَاطِبًا فِي خِطَابِهِ وَمَا الْفَكُّ ، لَوْلاَ السَّيْفُ أَعْجَمَ طِمْطِمَا
66ــ فَهَا هُوَ إِنْ لَمْ يَحْظَ مِنْكَ بِذِمَّةٍ تَعَلَّقَهُ ظُفْرُ الْمَنَايَا مُذَمَّمَا
68ــ سَيَأْتِي بِرَأْسِ الْكَافِرِ الْكَافِرُ الَّذِي يَطُمُّ عَلَيْهِ الْمُنْشَآتُ إِذَا طَمَا

8 ــ بيعة مدن الأندلس لأبي زكريا :

هناك ثلاث عوامل رئيسيّة أدخلت الاضطراب والفوضى إلى الأندلس في النّصف الأوّل من القرن 13/7 وخاصّة بعد هزيمة العقاب :

1 ــ قرار المأمون الموحّدي الانتقال من إشبيلية إلى مرّاكش وترك الأندلس لمصيرها .

2 ــ تناحر زعماء الأندلس فيما بينهم تارة ، وبينهم وبين من بقي من وُلاَة الموحّدين أحيانا .

3 ــ التّكالب النّصراني بعد أن لاح جليّا الفراغ العسكري بضعف الدّولة الموحّديّة ، وتناحر ثوّار الأندلس .

وفي هذا الظّرف العصيب ، كان كلّ ثائر يحقّق بعض الانتصارات يحاول أن يوطّد نفوذه بإيجاد السّند الشّرعي له . فكانوا يعلنون ولاءهم الشّكلي إلى إحدى الدّول الآتية : الدّولة العبّاسيّة البعيدة أو الدّولة الموحّدية المنهارة أو الدّولة الحفصيّة الفتيّة . ولا شكّ أنّ هذه الأخيرة كانت أقدر من غيرها ، في نظر الأندلسيّين ، على القيام بدور الحامي والمنقذ لبلادهم . لهذا كثيرا ما لجأت إليها بعض المدن الكبرى الأندلسيّة وأعلنت الانضواء تحت لوائها .

ويبدو أنّ شرقيّ الأندلس كان أسبق الجهات بالأندلس للدّخول في طاعة الحفصيّين آملا من ذلك خلاصا على أيديهم وقد تكالب نصارى أراغون عليه .

وعاش الشّاعر هذه الفترة وترأس الوفد الذي أمّ حاضرة الحفصيّين حاملا البيعة وطالبا النّجدة . قال ابن الأبار معتبرا أنّ بلنسيّة عاصمة شرقي الأندلس هي جزء من بلاد الحفصيّين[البسيط][74] :

30ــ هَذِي رَسَائِلُهَا تَدْعُوكَ عَنْ كَثَبٍ وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ لِمَنْ يَئِسَا
60ــ يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا عَلْيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءَ الْهُدَى تَعَبَا

(74) د/ص 397 ــ 399 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

62ـ طَهِّرْ بِلاَدَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ وَلاَ طَهَارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا
63ـ وانْصُرْ عَبِيدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرِقَتْ عُيُونُهُمْ أَدْمُعًا تَهْمِي زَكًا وَخَسَا

وخلال هذه الفترة بعث ابن الرّميمي بعد قتله لابن هود حاكم الأندلس سنة 1237/635 ببيعته لأبي زكرياء . فقال ابن الأبّار [**الطّويل**][75] :

1ـ أَوَائِلُ فَتْحٍ مَا لَهُنَّ أَوَاخِرُ تَرَامَتْ بِهَا جُرْدٌ وَفُلْكٌ مَوَاخِرُ
9ـ تَعَوَّدَ يَحْيَى الْمُرْتَضَى دَرَكَ الْمُنَى وَلاَ هُزَّ خَطِّيٌّ وَلاَ سُلَّ بَاتِرُ
47ـ هَنِيئًا مَرِيئًا لِلْمَرِيَّةِ أَنْ أَوَتْ إِلَى مَظْهَرٍ تَنْحَطُّ عَنْهُ الْمَظَاهِرُ

وفي سنة 1242/640 وقع حدثان كبيران : الأوّل وفاة الخليفة الموحّدي الرّشيد . والثّاني فتح أبي زكريا الحفصي لتلمسان عنوة من يد صاحبها يغمراسن ، وبذلك أصبح الأمير الحفصي أقوى رجل بإفريقيّة ، وهابه أعداؤه في الدّاخل والخارج ، وجاءته بيعة عديد المدن من العدوتين الإفريقيّة والأندلسية . قال ابن الأبّار مشيرا إلى ذلك [**السريع**][76] :

1ـ ثَلاَثَةٌ حَيَّتْكَ فِي الأَرْبَعِينْ نَصْرٌ وَتَمْكِينٌ وَفَتْحٌ مُبِينْ
2ـ أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي دَوْلَتُهُ يُمْسِنُ عَلَى الْمُؤْمِنِينْ

ووجد ابن الأبّار في تلك المناسبات مجالا لدغدغة شعور العظمة لدى الأمير أبي زكريا الحفصي ، ولتحريضه على القيام بفريضة الجهاد بالأندلس . وكثيرا ما كان الشّاعر يكرّر ذكر بيعة تلك المدن في كلّ مرّة يمدح فيها أبا زكريّا . وقد يشير في القصيدة الواحدة إلى بيعة عدّة مدن من العدوتين . قال في بيعة شريس وجزيرة طريف ومكناسة وقصر ابن عبد الكريم سنة 1242/640 [**الطويل**][77] :

27ـ وَيَا لَشَرِيسٍ وَالْجَزِيرَةِ يَا لَهَا وَمَكْنَاسَةٍ وَالْقَصْرِ عَزَّ فَلاَ وَهْصَا
28ـ وَلاَقَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بُرْدَهَا وَمَا بَرِحَتْ أَثْنَاءَ شَقْوَتِهَا رَهْصَا[78]

(75) د/ص 12 ـ 211، ص 214 .
(76) د/ص 300 .
(77) د/ص 340 .
(78) الرّهص : شدّة العصر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفي نفس هذه السنة جاءته بيعة سبتة والمريّة . وكانت هذه المدينة الأندلسيّة قد آل أمرها إلى ابن الأحمر إذ استولى عليها سنة 1237/635 من يد صاحبها ابن الرّميمي . قال ابن الأبّار [**الطويل**][79] :

10ـ فَبِالأَمْسِ أَلْقَتْ بِالْمَقَادَةِ سَبْتَةٌ فَأَوْرَثَهَا عِدًّا مِنَ الأَمْنِ سَيْغَا
11ـ وَحَطَّتْ بِكَ الْيَوْمَ الْمَرِيَّةُ رَحْلَهَا فَأَقْطَعَهَا رَغْدًا مِنَ الْعَيْشِ أَهْيَغَا

وأعاد الشّاعر الإشارة إلى هذه البيعة المزدوجة في سنة 1248/646 بمناسبة عيد الفطر مادحا أبا زكريّا [**الوافر**][80] :

30ـ لِلشَّرْقِ وَالْغَرْبِ اسْتِبَاقٌ نَحْوَهُ كُلٌّ قَبِيلٍ دُعَائِهِ لَبَّاهُ
31ـ وَبِدَارِ سَبْتَةَ وَالْمَرِيَّةِ مُخْبِرٌ أَنْ سَوْفَ تَحْوِي الْخَافِقِينِ يَدَاهُ
38ـ وَبِعِيدِ فِطْرٍ لِلْفُتُوحِ مُعَقِّبٌ كَالْيَوْمِ أَعْقَبَ صُبْحُهُ بِضُحَاهُ

ولكثرة المدن التي بايعت أبا زكريا في سنة 1242/640 سمّاه ابن الأبّار عام الجماعة [**البسيط**][81] :

37ـ سُلْطَانُهُ خَرَقَ الْعَادَاتِ فَائْتَلَفَتْ عَلَى الْمَرَاشِيدِ أَغْيَارٌ وَأَضْدَادُ
38ـ لاَ مِرْيَةٌ أَنَّ إِهْطَاعَ الْمَرِيَّةِ فِي أَعْقَابِ سَبْتَةَ لِلإِجْمَاعِ مِيعَادُ
39ـ لَئِنْ أَهَابَتْ بِهِ مَرَّاكُشٌ وَدَعَتْ لَمَّا عَدَتْ قَصْدَهَا مِصْرٌ وَبَغْدَادُ
40ـ عَامَ الْجَمَاعَةِ مَا اغْتَاصَتْ وَلاَ نَفِلَتْ فِيمَا يُقَرِّرُ حِسْبَانٌ وَتِعْدَادُ

وفي سنة 1243/641[82] جاءت بيعة إشبيلية بعد خلعها لطاعة الموحّدين وكانت عاصمتهم بالأندلس . قال ابن الأبار [**الطويل**][83] :

1ـ لأَنْدَلُسَ الْبُشْرَى وَحَضْرَتِهَا (حِمْص) فَقَدْ كُسِيَتْ لِلأَمْنِ فَضْفَاضَةَ الْقُمْصِ
2ـ وَقَدْ نُصِرَتْ عَوْدًا كَبَدْءٍ عَلَى الْعِدَى فَذَاقُوا الْمَنَايَا الْحُمْرَ بِالْحَسِّ وَالْحَصِّ

(79) د/ص 8 ـ 367 .
(80) د/ص 408 ـ 410 .
(81) د/ص 141 .
(82) د/ص 343 .
(83) هذه البيعة الأولى ثمّ رجعت إلى الدّعوة الموحديّة . وفي سنة 1245/643 عادت إلى بيعة الحفصيّين .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

4ـ أَلَمْ يَخْلَعُوا زُهْدًا وَحِرْصًا عَلَى الْهُدَى وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يُعْضَدَ الزُّهْدُ بِالْحِرْصِ
5ـ عَنِيَّ بْنَ إِدْرِيسَ بْنِ يَعْقُوبَ وانْتَمَوْا[84] لِيَحْيَى بْنِ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَبِي حفص[85]

وَتَدَعَّم هذا الالتفاف حول الدّولة الحفصيّة بهذه البيعة من عاصمة الأندلس فطرب لها ابن الأبّار وأخذ في تعداد جملة من المدن التي وصلت بيعتها إلى حاضرة الحفصيّين [الطويل][86] :

7ـ لَقَدْ رَاقَبَتْ عَامَ الْجَمَاعَةِ بُرْهَةٌ فَلَمْ يَعْدُهَا إِقْرَارُ عَيْنِ الْمُرَاقِبِ
11ـ أَلاَ هَذِهِ حِمْصٌ تُنَاسِبُ طَاعَةٌ سَجِلْمَاسَةً فِي رَفْضِهَا لِلْمُنَاصِبِ[87]
12ـ وَمَا خَالَفَتْ غَرْنَاطَةٌ رَأْيَ رَيَّةٍ[88] لِتَشْمُلَ أَنْوَارَ الْهُدَى كُلَّ جَانِبِ
13ـ وَجَيَّانُ لَمْ تَبْرَحْ كَشِلْبٍ وَطَنْجَةٍ مُبَارِيَةً هُوجَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
14ـ لِتَسْعَدَ بِالرِّضْوَانِ بَيْعَاتُهَا الَّتِي كَفَى شَاهِدٌ مِنْهُ تَأَمُّلَ غَائِبِ

وتجدّدت بيعة إشبيلية للحفصيّين سنة 1245/643 ، فقال ابن الأبار مهنّئا ومبشّرا هذه المدينة بالأمن والسّعادة تحت لواء مخدومه الحفصي [الكامل][89] :

25ـ لِلَّهِ حِمْصُ وَفَوْزُهَا بِسَعَادَةٍ هَدَتِ الْجَزِيرَةَ[90] نَحْوَهَا وَشَرِيشَا
27ـ أَمَّتْ إِمَامَ الْعَدْلِ خَالِعَةً بِهِ مَنْ أَعْمَلَ النَّأْيَ وَالتَّحْرِيشَا
28ـ وَإِلَيْهِ خَفَّتْ وَالرَّجَاحَةُ فِي الْهَوَى أَنْ يَجْعَلَ الآوِي لَهُ وَبَطِيشَا
30ـ وَبِحَبْلِهِ اعْتَصَمَتْ عَلَى حُبٍّ لَهُ مُنْحَاشَةً لاَ تَبْتَغِي تَهْوِيشَا

ويرى الشّاعر أنّ مرّاكش تؤيد إشبيلية في بيعتها لأبي يحيى . فهل أنّ الشّاعر يبالغ

(84) السّعيد الموحّدي .
(85) أبو زكريّا الحفصي .
(86) د/ص 1 ـ 80 .
(87) المقصود هو السّعيد الموحّدي .
(88) في المعرب : 423/1 : مالقة .
(89) د/ص 5 ـ 404 .
(90) المقصود جزيرة طريف .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لأنّ مراكش لم تعترف مطلقا بالحفصيّين أو أنّه أراد أن يشير إلى بعض الاتجاهات بها مؤيّدة للحفصيّين ؟ قال [**الطويل**][91] :

20ـ وَلَـبِسْتُ لَـهُ مَـرَاكُشٌ بِقَـرَارَةٍ وَأُنُـسٍ وَمَـازَالَتْ مُظَاهِـرَةً جِـمْصَا
26ـ لِجِمْصَ مِنَ الْبُشْرَى مُجِيلاً قِدَاحَهَا بِهَبَّتِهَا تَسْعَـى لِمَـحْصِ الْهُـدَى مَـحْصَا

العدوة الإفريقيّة في ديوان ابن الأبّار

1 ــ ابن الأبّار بإفريقيّة :

لقد قرّر ابن الأبّار بعد أن سقط وطنه في 17 صفر 29/636 سبتمبر 1238 الانتقال إلى العدوة الإفريقيّة . وقد شجّعه على ذلك ما وجده لدى أبي زكريّا الحفصي من حفاوة وتقدير عندما جاء موفدا من قبل مخدومه ابن مردنيش أمير بلنسيّة قبل سقوطها . ويبدو أنّ ابن الأبّار اختار طريق البحر رأسا من بلنسيّة إلى بجاية . وهذا نفهمه من مطلع قصيدتين قالهما في مدح الولد الأكبر لأبي زكريا وهو أبو يحيى أمير بجاية . قال في الأولى مادحا ومُوجِيًا بالطريق الذي سلكه للوصول إلى العدوة الإفريقيّة[**الكامل**][92] :

1ـ نُـورُ الْهِدَايَـةِ مَـا أَضَاءَ وَلاَحَـا فَقَـصَـفَ السَّفِينَـةَ وَبَشَّرَ الْمَلاَّحَـا
2ـ وَسَنَى الإِمَـارَةِ مَا تَطَلَّعَ فِي الدُّجَى مِـنْ قَبْـلِ إِسْفَـارِ الصَّبَـاحِ صَبَاحَـا
3ـ فَاعْقِـلْ بِأَبْحُرِهَـا جَـوَارِيكَ الَّتِـي جَـازَتْ إِلَـى الْفَـوْزِ الرِّيَـاحِ رِيَاحَـا
9ـ وَاصْدُفْ عَـنِ الْبَحْـرِ الَّـذِي أَلْفَيْتَـهُ ثَمَـدًا، لِبَحْـرِ نَوَالِهَـا ، ضَحْضَاحَـا

وفي الثّانية اتّضح لنا فعلا أنه سلك طريق البحر عندما وصف أخطاره حقيقة لا مجازا[**الرّمل**][93] :

1ـ عَبَـرَ الْبَحْـرَ يَـؤُمُّ الأَبْحُـرَا آمِنًـا فِـي وِرْدِهِ أَنْ يَصْدُرَا
2ـ وَامْتَطَـى اللُّجَّـةَ خَضْرَاءَ بِمَـا أَلِـفَ الْعَـيْسُ لَدَيْهِـمْ أُخْضَرَا

---

(91) د/ص 340 .

(92) د/ص 113

(93) د/ص 185

3ــ خَـاضَ صَدْرَ الْهَـوْلِ جَهْمًـا عَـابِسًا يَنْتَحِيهِـمْ ضَاحِكًـا مُسْتَبْشِرَا
4ــ وَسَمَـا لِلْغَايَـةِ الْـقُصْوَى عَلَـى خَطِـرٍ أَحْـرَزَ عَنْـهُ الأَخْطَـرَا

وإذا ثبت فعلا أنّ ابن الأبّار قال مدحيّته الثانية في الأمير أبي يحيى في أواخر سنة 1238/636 أو بداية 1238/637 . فإنّ هناك أمرا يثير انتباهنا في هذه القصيدة ، ذلك أنّ ابن الأبّار يخاطب الممدوح بولاية العهد قائلا [الرّمل][94] :

69ــ يَـا وَلِـيَّ الْعَهْـدِ فِيمَـا طَالَمَـا نَـافَسَ الدِّينَـارُ فِيهَـا الْمِنْبَـرَا
70ــ هَـاكَ مَـا حَبَّرْتُـهُ مِـنْ مِـدَحٍ جِـئْتُ عَـنْ تَقْصِيرِهَـا مُعْتَـذِرًا
71ــ وَهِـيَ الإِمْـرَةُ أَعْيَـا وَصْفُهَـا نُظِـمَ الْحَمْـدُ لَهَـا أَوْ نُثِـرَا

والإعلان رسميّا عن تعيين أبي يحيى لولاية العهد لم يتمّ إلّا في سنة 1240/638 كَمَا ذكر المؤرخون . فما هي الرّاوية الصّحيحة يا ترى ؟ هل أنّ النّاس اعتادوا ــ وابن الأبّار منهم ــ أن يروا الحاكم يسند ولاية العهد لابنه الأكبر ، فيخاطبونه بذلك ولو لم يقع الإعلان عنه بصفة رسميّة ؟ أو أنّ ذلك سياسة من أبي زكريا في حذره وهو يخطو رويدا رويدا نحو الاستقلال نهائيا بإفريقيّة عن الدّولة الأمّ ؟

2 ــ نكبة ابن الأبّار الأولى :

لم يقم ابن الأبّار إلّا بضعة أشهر ببجاية ، انتقل إثرها إلى تونس ، وأحسن أبو زكريّا استقباله وقدّر مواهبه وعهد إليه بالكتابة في ديوانه . ثمّ أسند إليه كتابة الإنشاء والعلامة في سنة 1240/638 بعد وفاة ابن الجلاء البّجائي . وكان ابن الأبّار يكتب العلامة السّلطانيّة بالخط المغربي . وكان أبو زكريا يُؤثِر أن تكتب بالخطّ المشرقي . لهذا السّبب عهد بكتابتها إلى أحمد بن إبراهيم الغسّاني ، وطلب من ابن الأبّار أن يقتصر على إنشاء الرّسائل وكتابتها وأن يدع مكان العلامة فيها للخّطاط الجديد ، فغضب ابن الأبّار واعتبر أن في ذلك مسّا بكرامته واستمرّ في كتابة العلامة بخطّه المغربي فعُوتب في ذلك وروجع فاستشاط غضبا ورمى بالقلم من يده وأنشد :

أَطْـلُبِ الْعِـزَّ فِـي لَظَـى وَذَرِ الـذُّلْ لَ وَلَـوْ كَـانَ فِـي جِنَـانِ الْخُلُـودِ

(94) د/ص 188

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ووصل الخبر إلى السلطان فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته . وفي هذه المدّة التي قضاها ابن الأبار تحت الإقامة الجبريّة ألّف كتاب (إعتاب الكتّاب) .

هذا ما جاء مختصرا في كتب التاريخ من أسباب في نكبة الشّاعر الأولى . ولقد لمّح ابن الأبّار في مقدّمة كتابه الإعتاب إلى ذلك،فاعترف بأنّه (جَاءَ شَيْئًا إِدًّا)[95] وفي خاتمته يشير ــ والمقصود هو ذَاتُهُ ــ إلى خطورة اللّسان على الإنسان[96] فيما يتعرّض له من نكبات .

وفي نفس هذه الخاتمة يذكر ابن الأبّار أن السّلطان عفا عنه[97] ، ولكن ما راعه إلّا وأبو زكريا يخيّره في الرّحيل بين التّشريق والتّغريب[98] . وسقط في يد الشّاعر وبدأ يستعدّ للسّفر ويبيع أدباشه بأبخس الأثمان[99] ، فكانت حالته مع أسرته في هذه الفترة شبيهة بما قاساه لمّا سقط وطنه بلنسيّة في يد النّصارى واضطرّ للرّحيل عنه[100] . ومع ذلك لم ييأس الشّاعر من الحصول على عفو السّلطان فكتب إليه يستعطفه ويُقرّ بذنبه نادما تائبا[**الكامل**][101] :

4ــ نَدَمِي ، عَلَى مَا نَدَّمِنِي ، دَائِمٌ ... وَعَلاَمَةُ الأَوَّابِ أَنْ يَتَنَدَّمَا

5ــ يَا طُولَ بُؤْسِيَ مُبْسَلاً بِجَرِيرَةٍ ... إِنْ لَمْ تُجِرْنِي بِالتَّجَاوُزِ مُنْعِمَا

7ــ فَأَحَقُّ مَنْ تُولِي الإِقَالَةَ عَاثِرٌ ... لَمْ يَسْتَحِبَّ عَلَى الْهُدَى قَطُّ الْعَمَى

8ــ أَقْصَاهُ عَنْكَ تَزَلُّفٌ بِخَطِيئَةٍ ... حَالَ الصَّوَابَ خِلاَلَهَا وَتَوَهَّمَا

9ــ وَلَقَدْ تَحَفَّظَ فِي الْمَقَالَةِ جُهْدَهُ ... لَكِنَّهُ نُمِيَ الْحَدِيثُ وَنُمْنِمَا

10ــ قَدْ عَلَّمَتْهُ تَجَنُّبَ الْجَهْلِ الْعُلَى ... يَكْفِيهِ أَنْ قَوَّمْتَهُ فَتَقَوَّمَا

---

(95) الإعتاب ص 46 .

(96) الإعتاب ص 354 .

(97) الإعتاب ص 354

(98) الإعتاب ص 355

(99) الإعتاب ص 355

(100) الإعتاب ص 356

(101) د/ص 5 ــ 274 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وللتّعجيل بعفو السّلطان قبل تنفيذ قرار النّفي ، استشفع بالأمير أبي عبد الله محمد ، وتطارح عليه حتّى يتدخّل لصالحه لدى والده ، وأنشده [**مجزوء البسيط**][102]:

1 ــ مَــوْلاَيَ دَامَتْ لَكَ السُّعُــودُ أُخطــأْتُ أُخطــأْتُ لا أَعُــودُ
2 ــ مَالِــي بَــراحٌ وَلاَ انْبِــسَاطٌ مَوْتِــي فــي أَرْضِكُــمْ خُلُــودُ
3ــ كُنْ لِي شَفِيعًا إِلَى إِمَامٍ لَــيْسَ عَلَــى فَضْلِــهِ مَزِيــدُ
4 ــ عَادَتُــهُ الْعَفْــوُ وَالْمَوَالِــي تَعْفُــو إِذَا أُخطــأَ الْعَبِيــدُ

وفي شهر رمضان كما جاء في خاتمة كتاب الإعتاب دون ذكر للسنّة[103] بدأ في الأفق ما أعاد الاطمئنان النّسبي لنفسه ، فبشّر عائلته وأسرع بمخاطبة المولى أبي زكريّا حتّى يتراجع في قراره الأوّل . قال [**السّريع**][104] :

10ــ أَذْنَبَ لَكِــنْ تَــابَ مِــنْ قَــوْرِهِ وَفِــي قَبُــولِ التَّــوْبِ رَفْــعُ الْجَنَــاحْ
11ــ حَسْبِــي شَفِيعًــا لَكَ فِــي هَفْوَتِــي حُــبٌّ وَنُصْحٌ وَثَنَــــــــاءٌ صُرَاحْ
12ــ بَرَّحَ بِــي الشَّوْقُ إِلَــى حَضْرَةٍ[105] لَــيْسَ لِمَــنْ وُفِّــقَ عَنْهَــا بَــرَاحْ
13ــ وَهِــمْتُ فِيهَــا بِاقْتِــرَابٍ فَلَــمْ تُثْمِــرْ لِــيَ الأَقْــدَارُ غَيْــرَ انْتِــزَاحْ[106]

وفعلا عفا السّلطان عن الشّاعر قبل حلول العيد ولعلّه عيد الفطر فعبّر عن فرحته الكبرى بقوله [**مخلع البسيط**][107] :

1ــ قَابَــلْتُ نُعْمَــاكَ بِالسُّجُــودِ لِلَّــهِ مِــنْ عَطْفَــةٍ وَجُــودِ
3ــ قَــدْ وَصَلَ الأَمْــنُ وَالأَمَانِــيُّ بَعْــدَ الْمُحَافَــاةِ وَالصُّدُودِ

(102) الإعتاب ص 257

(103) تشير المصادر إلى أن ابن الأبّار لم يمكث طويلا في كتابة العلامة والإنشاء وغضب عليه أبو زكرياء ، ثمّ هو من جهة أخرى يذكر الأمير أبا يحيى ويُضيفُ (ولي العهد)، وقد تولّى هذا الأمير ولاية العهد في رجب 1240/638 . فمن المرجّح أن يكون ابن الأبّار نكب في المرّة الأولى في أواخر الثلاثينات من القرن 7 هـ/13 م .

(104) الإعتاب ص 9 ــ 258 .

(105) حضرة بمعنى مجلس .

(106) أخطأ المحقّق عندما ذكر أن الشّاعر قال هذه القصيدة وهو في بجاية . وكما يفهم من خاتمة الكتاب في هذه المحنة فإنّ السلطان عفا عنه قبل أن يرحل . والقصيدة موجودة في خاتمة الإعتاب .

(107) د/ص 169 ــ 170 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

10ـ صَفَحْتَ عَمْدًا عَنِ الْخَطَايَا وَتِلْكَ مِنْ عَادَةِ الْعَمِيدِ
14ـ مَا غُرَّةُ الْعِيدِ أَجْتَلِيهَا يَوْمُ رِضَاكَ الأَغَرُّ عِيدِي

ولم ينس الشّاعر أن يشيد بشفاعة الأمير أبي عبد الله لدى والده فقال يخاطبه [الوافر][108] :

1ـ أَيَا بُشْرَايَ قَدْ وَضُحَ الْقَبُولُ وَصَحَّ مِنَ الرِّضَى أَمَلٌ وَسُولُ
2ـ وَشَفَّعَ نَجْلَهُ الأَزْكَى إِمَامٌ لِمَنْ صُرِمَتْ وَسَائِلُهُ وَصُولُ
3ـ فَمَا لِسِوَاهُمَا فِي الصَّفْحِ عَنِّي يَدٌ عُلْيَا وَلاَ مَنٌّ جَزِيلُ
4ـ أُقَالَنِيَ الْخَلِيفَةُ مِنْ عِثَارِي فَمَاذَا فِي إِقَالَتِهِ أَقُولُ
8ـ أَذُوبُ إِذَا أُحَجَّبُ عَنْهُ شَوْقًا إِلَيْهِ فَكَيْفَ لَوْ أُزِفَ الرَّحِيلُ

لقد نجح الأمير في مسعاه وانقذ الشّاعر من حياة الضّياع والتشرّد ، فقال ابن الأبّار [الطّويل][109] :

1ـ أَجَارَ مِنَ الْخَطْبِ الأَمِيرُ مُحَمَّدُ فَقُمْتُ بِمَا أَوْلاَهُ أُثْنِي وَأَحْمَدُ
7ـ وَمَنْ يَكُ فَرْعًا لِلإِمَامَةِ وَالْهُدَى فَإِنَّ جَنَاهُ الْغَضَّ مَجْدٌ وَسُؤْدَدُ
8ـ رَآنِي مَرْدُودَ الشَّرَائِعِ كُلَّمَا تَقَرَّبْتُ بِالإِخْلاَصِ أُقْصَى وَأُبْعَدُ
9ـ نَصِيبِي مِنَ الآدَابِ حِرْفَتُهَا الَّتِي شَقِيتُ بِهَا جَارًا لِمَنْ بَاتَ يُسْعَدُ
10ـ وَلِلْحَظِّ لَحْظٌ كَلَّ دُونِيَ خَاسِئًا كَأَنِّي وَإِيَّاهُ شُعَاعٌ وَأَرْمَدُ
11ـ فَجَمَّعَ مِنْ شَمْلِي ، وَشَمْلِي مُفَرَّقٌ وَرَفَّهَ مِنْ شِرْبِي وَشُرْبِي مُصَرَّدُ
12ـ تَشَفَّعْتُ فِيهَا لِلإِمَامِ بِنَجْلِهِ وَنِعْمَ شَفِيعُ الْمُذْنِبِينَ مُحَمَّدُ

3 ـ ثورة بني غانية :

تعتبر ثورة بني غانية القادمين من الجزائر الشرقيّة (جزر البليار) السّبب المباشر لقيام الدّولة الحفصيّة . فلولا هذه الثورة لما عهد النّاصر الموحّدي لأبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص بولاية إفريقيّة ، باعتباره حاكما شبْه مستقلّ ليتمكّن من مواصلة تتبّع ابن غانية . وقد اغتنم أبناؤه ، وخاصّة أبا زكريا فرصة ضعف الدّولة الموحّديّة واستمرار خطر بني غانية للاستقلال نهائيا بإفريقيّة .

(108) الإعتاب ص 1 ـ 260 .
(109) د/ص 171 ـ 172 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد مرّت ثورة بني غانية بمرحلتين :

1 ــ المرحلة الأولى وتزعّمها علي بن إسحاق الآتي من ميورقة . وبدأها باحتلال بجاية يوم 6 شعبان 13/580 نوفمبر 1184 وتستمرّ ثورته إلى موته جريحا إثر معركة الحمّة في سنة 1188/584 .

2 ــ المرحلة الثانية وتزعّمها يحيى بن غانية بعد موت أخيه علي وسيبقى هذا الثائر حوالي نصف قرن يناصب العداء كُلاًّ من الموحّدين والحفصيّين . وتمكن في 7 ربيع الثاني 14/600 ديسمبر 1203 من الاستيلاء على مدينة تونس . ولم تنته هذه الثورة إلاّ بموت يحيى بن غانية في 1237/633 قرب مليانة . وكان لأبي زكريا الحفصي مؤسّس الدّولة الحفصيّة الفضل الأكبر في القضاء على هذه الثّورة .

لقد بقي صدى هذه الثورة يرنّ في أصداء إفريقيّة والمغرب الأوسط طيلة فترة حكم أبي زكريا. ولهذا قلّما تخلو القصائد المدحيّة التي دبّجها ابن الأبّار في هذا الأمير وابنيه زكريا ومحمّد[110] من الإشارة إلى فشل بني غانية وخاصّة فشل بطل المرحلة الثّانية من هذه الثّورة وهو يحيى بن غانية .

لقد ذهبت ــ في نظر ابن الأبّار ــ جهود هذا الثائر ومساعيه أدراج الرّياح كما ضاعت جهود من سبقه من عائلته وخاصّة علّي بن إسحاق أخاه . قال الشاعر [الوافر][111] :

42ــ فَمَا أُغْنَى ابْنُ غَانِيَةٍ فَتِيلاً وَمَا أَجْدَى ذُوُوهُ بَنُو عَلِيِّ

43ــ وَأَحْكَامُ اللَّيَالِي جَارِيَاتٌ عَلَى المَنْحُوبِ[112] قَلْبًا والجَبِينِ

44ــ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ الهَيْجَاءُ شِرْبًا فَقَدْ ذَادَتْهُ أَطْرَافُ العَصِيِّ

45ــ وَإِنْ تَكُنِ الشَّقَاوَةُ أَنْسَأَتْهُ فَلَمْ يَكُ لِلسَّعَادَةِ بِالتَّسِيِّ

(110) ذكر الشّاعر بني غانية مرّات متعدّدة في ديوانه وخاصّة في خمس مناسبات : 4 منها بمناسبة مدح ولّي العهد أبي يحيى زكريا أي أنها قيلت ما بين 1240/638 و 1248/646 وقصيدة مدح بها ولّي العهد محمّدا أي سنة 1248/646 . وتذكر الشّاعر دائما بَني غانية بمناسبة مدح ولّي العهد الأوّل أو الثاني يمكن تفسيره من النّاحية النّفسية : إنّ ولاية العهد هي رَمز لاستمراريّة الدّولة وابن غانية رمز لانقطاعها فكلّما ذُكِرَ الرّمز الأول خطر بباله الرّمز الثّاني .

(111) د/ص 8 ــ 427

(112) الجبان .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وثورة ابن غانية هي ضرب من الفساد في الأرض ، وفي القضاء عليها من طرف أبي زكرياء راحة للبلاد وللعباد [**الكامل**][113] :

24ـ أَيْـنَ ابْـنُ غَانِيَـةٍ وَأَيْـنَ غَنَـاؤُهُ ... لاَ ذَاكَ مَـحْسُوسُ الْوُجُـودِ وَلاَ ذَا

25ـ آذَى وَآدَ فَسَادُهُ وَعِنَـادُهُ ... فَكَفَـى الْـوَرَى مَـا آدَ مِنْـهُ وَآذَى

26ـ وَيْحَـاهُ وَهْـوَ يَبُـزُّ أَقْـرَانَ الْوَغَـى ... فَمَحَـاهُ سَبَّاقًـا لَـهُ بَـذَّاذَا

ولكنّ الممدوح الحفصي استطاع أن يقضي عليه ويسحق أتباعه . قال ابن الأبّار بعد أن عدّد القبائل الثّائرة التي استطاع أبا زكريا أن يخضعها لسلطانه[**الوافر**][114]:

70ـ وَفِي سَحْقِ ابْـنِ إِسْحَـاقَ اغْتِبَـارٌ ... وَمَـا أَفْضَى إِلَيْـهِ مِـنَ الثُّبُـورِ

71ـ مَحَـاهُ[115] وَكَـانَ ذَا دَهْـيٍ طَوِيـلٍ ... بِأَبْتَـرَ مِـنْ صَوَارِمِـهِ قَصِيـرُ

72ـ وَإِنْ هُـوَ لَـمْ يُبَـاشِرْهُ ضِرَابًـا ... فَخِيفَتُـهُ طَوَتْـهُ إِلَـى الـنُّشُورِ

73ـ وَكَـمْ غَشِيَ الْوَغَـى وَلَـهُ زَئِيـرٌ ... فَبُـدِّلَ بِالزَّفِيـرِ مِـنَ الزَّئِيـرِ

74ـ وَطَـارَ إِلَـى غُمَـارِ الْمَـوْتِ صَقْـرًا ... فَحُـطَّ إِلَـى الْبُغَـاثِ عَـنِ الصُّقُـورِ

75ـ سُيُـوفُ بَنِـي أَبِـي حَـفْصٍ نَفَتْـهُ ... وَقَادَتْـهُ إِلَـى سُوءِ الْمَصِيـرِ[116]

76ـ وَلَوْلاَهَـا لَسَعَّرَهَـا حُرُوبًـا ... كَمَـا اضْطَـرَمَتْ عَلَيْـهِ لَظَـى السَّعِيـرِ

لقد أصبح هذا الثائر وقومه أثرا بعد عين [**البسيط**][117] :

33ـ أَيْـنَ الْجَبَابِـرَةُ اسْتَوْلَـوْا إِلَـى أَمَـدٍ ... فَاسْتَأْصَلَتْهُـمْ عَوَالِيـهِ بِمَـا صَالُـوا

34ـ آلَتْ قِـوَاءً مَغَانِـي آلِ غَانِيَـةٍ ... بِـهِ وَغَالَتْهُـمُ لِلدَّهْـرِ أَغْـوَالُ

وعبرة لمن يعتبر [**الكامل**][118] :

3ـ قَسَمَ الْجَبَابِـرَةَ الَّذِيـنَ تَمَـرَّدُوا ... وَتَسَنَّمُـوا صَرْحَ الشَّقَـاقِ مُمَـرَّدَا

4ـ أَيْـنَ ابْـنُ غَانِيَـةٍ وَأَيْـنَ غَنَـاؤُهُ ... لاَ مُلْحِـدٌ إِلاَّ وَأَصْبَـحَ مُلْحِـدَا

---

(113) د/ص 183

(114) د/ص 197

(115) الضمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء .

(116) الأبيات لا تخلو من تلميح إلى قوّة هذا الثائر وبأسه وما عاناه الحفصيّون في مقاومته وإخضاعه .

(117) د/ص 245

(118) د/ص 167

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

4 ــ ثورة أبي عبد الرّحمان يعقوب الهرغي[119] :

إن نكبة الهرغي حاكم طرابلس مرتبطة شديد الارتباط بنكبة صاحب الأشغال بتونس ، وهو محمّد بن محمّد الجوهري . لقد كان هذا الأخير في عداوة شديدة مع رئيس الدّولة أبي علي بن النّعمان والوزير أبي عبد الله ابن الحسين والوزير أبي يحيى بن أبي الحسن بن جامع . فأوغروا صدر الأمير أبي زكريّا عليه . فأمر بالقبض عليه وتعذيبه ليستخرج منه الأموال ، فتجلّد ولم يظهر من الأموال شيئا . ثمّ وجد بعد ذلك في سجنه ميّتا قد خنق نفسه بعمامته في شوّال سنة 1241/639 .

وكانت بين الجوهري ويعقوب بن يوسف بن محمّد الهرغي حاكم طرابلس صداقة متينة فاستوحش ممّا فعله أبو زكريا بصديقه . فلما استقدمه السّلطان إلى تونس تلكّأ وفكّر في الاستبداد بالأمر ، لكّن أهل البلد تفطّنوا فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعه وأعلموا أبا زكريا ، فأمر بقتلهم وبعث رؤوسهم إلى تونس فنصبت بسورها ونصبت الأشلاء بأسوار طرابلس . فقال ابن الأبّار يصف رؤوس القتلى متشفّيا [**الكامل**][120] :

1ــ وَعِصَابَةٍ قَطَفَتْ رُؤُوسَهُمُ الظُّبَى ... قَطْفَ الْبَنَانِ أَزَاهِرَ الْبُسْتَانِ

2ــ غَدَرُوا وَمَا شَعُروا بِأَنَّ وَرَاءَهُمْ ... لِلْحَقِّ أَنْصَارًا عَلَى الْبُهْتَانِ

3ــ فَانْظُرْ إِلَى هَامَاتِهِمْ مُسْوَدَّةً ... كَاللَّيْلِ غَيْرَ بَوَارِقِ الأَسْنَانِ

4ــ لاَحَتْ مِنَ السُّورِ الْمُنِيفِ بِصَفْحَةٍ ... بَيْضَاءَ كَالشَّامَاتِ وَالْخِيَلاَنِ

وبقي صدى هذه الثّورة عالقا بذهن الشّاعر ، فلمّا وقف يمدح أبا زكريا وولّي عهده أبا يحيى بمناسبة فتح تلمسان سنة 1242/640 لمّح إلى ما آل إليه مصير من عصى وغوى بطرابلس . قال [**الطّويل**][121] :

58ــ كَفِيلٌ بِقَهْرِ الْغُرْبِ وَالْعُجْمِ بَأْسُهُ ... وَلاَ عَجَبٌ أَنْ يَقْنِصَ الأَجْدَلُ[122] الصَّعْوَا[123]

68ــ فَتِلْكَ تِلِمْسَانٌ وَمَلْيَانَةٌ إِلَى ... طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى[124]

69ــ بِلاَدٌ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةَ سُعُودُهُ ... كُؤُوسَ مَنَايَاهَا جَزَاءً عَلَى الطَّغْوَى

(119) هذا الثّائر يعتبر من كبار شيوخ الموحّدين .

(120) د/ص 293 .

(121) د/ص 422 و ص 423 .

(122) الأجدل : الصقر .

(123) الصّعوا : صغار العصافير .

(124) الرّعوى : التّوبة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

5 ــ فتح تلمسان :

خصّ الشّاعر فتح تلمسان بقصيدة كاملة (ق. رقم 2 ص 41) وأشار إلى هذا الحدث الكبير بالنّسبة إلى الدّولة الحفصيّة في مدحه لأبي زكرياء[125] في القصائد التّالية ق 48 ص 383 وق 176 ص 379 وق 201 ص 417 .

وقد علّل جلّ المؤرّخين وعلى رأسهم ابن خلدون فتح أبي زكريا تلمسان بخوف الأمير الحفصي من تحالف ثلاثي ضدّه بين السّعيد الخليفة الموحّدي (1242/640 ــ 1248/646) وأبي يحيى يغمراسن صاحب تلمسان والأمير المريني أبي يحيى بن عبد الحقّ . وقد تمّ فعلا التّحالف بين الأوّل والثاني فأسرع أبو زكريا بالهجوم على تلمسان لإفساد هذا التّحالف ونجح في ذلك نجاحا كاملا .

أمّا ابن الأبّار فيرى في الهجوم على تلمسان ضرب من نصرة الدّين والغضب لله . وهذا هو السّبب الذي تروّجه الخاصّة لإقناع العامّة ، ولتبرّر به هذه الحروب الدّاخليّة . قال الشّاعر [البسيط][126] :

7ــ غَضِبْتَ لِلَّــهِ تَسْتَرْعِــي فَــرَائِضَهُ فَجِئْتَ تَرْمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ يُخْطِئُــهُ[127]
8ــ وَقُــمْتَ لِلدِّيــنِ إِفْصَاحًــا بِنُصْرَتِــهِ فَاسْحَنْفَــرَتْ[128] عِنْدَهَــا الدُّنْيَــا تُهَنِّئُــهُ
9ــ قَدْ كَانَ مُنْتَهَكًا جِسْمُ الْهُدَى مَرَضًا وَأَنْتَ رُوحٌ لَــهُ مَــا زِلْتَ تُبْرِئُــهُ

ولا تشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ أبا زكريّا خرج بجيشين إلى تلمسان برّي وبحري ، بينما يشير ابن الأبّار إلى ذلك بقوله[129] :

10ــ لِلَّهِ جَيْشُكَ وَالأُسْطُولُ قَدْ ضَمِنَــا لِلْمُقْتَــدِي بِالْهُــدَى سَيْــرًا يُهَدِّئُــهُ
12ــ هَذَا عَلَــى أَغْبَرِ الْبَيْــدَاءِ يَسْجُــرُه[130] وَذَاكَ فِــي أَخْضَرِ الدَّأْمَــاءِ يَمْلَــؤُهُ

---

(125) د/ص 41 .

(126) د/ص 41

(127) الضّمير يعود على العدوّ .

(128) اسحنفرت : أسرعت .

(129) د/ص 42 .

(130) يسجره : يملؤه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لقد غادر أبو زكرياء تونس في شوّال 639/أفريل ــ ماي 1242 ووصل إلى تلمسان في نهاية محرّم 640/جويلية 1242 وحاصرها وأخذها عنوة في شهر ربيع الأوّل 640/1242 . وأثناء الحصار تمكّن يغمراسن بشجاعته الفائقة أن يقتحم الجيش المحاصِرَ ويشقّ لنفسه ولفرسانه وعائلته طريقا ويفرّ إلى الجبل . فقال ابن الأبّار [البسيط][131] :

16ــ دَنَتْ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ مِنْ يَغْمُرَاسِنٍ فَأُجْفَلَ كَالْخَرْقَاءِ يَعْتَسِفُ الْخَرْقَا[132]

17ــ وَمِنْ حُبْيِهِ[133] يَوْمَ الهِيَاجِ سَلِيقَةً تَسَلُّقُهُ مِنْ بَيْنِ آسَادِهِ سَلْقَا

ولئن لم تضبط المصادر التاريخيّة إلاّ السّنة والشّهر اللّذين تمّ فيهما الفتح ، فقد ذكر ابن الأبّار اليوم والسّاعة[134] :

15ــ أَتَتْهُمْ جُنُودُ اللَّهِ تَصْمُدُ صَمْدَهُمْ فَحُقَّ عَلَيْهِمْ صَبْحَةَ السَّبْتِ مَا حَقَّا

وقال [135] :

59ــ يُفَاخِرُ فِيهِ السَّبْتَ يَوْمُ غَرُوبَةٍ وَمَا كَانَ إلاَّ مِنْ نَتَائِجِهَا حَقَّا

ولم يبق أبو زكرياء في تلمسان إلاّ 17 ليلة[136] ، إذ رَأى أنّ من الحكمة أن يعفو عن يغمراسن ويعيده إلى حكم تلمسان باسمه ليكون الدّرع الواقي لمملكته من خطر الموحّدين والمرينيّين معا . قال ابن الأبّار[137] :

18ــ رَمَاهُ فَأَصْمَاهُ بِأَقْحَافِ رَأْسِهِ إِمَامُ هُدًى لَقَّى الضَّلاَلَةَ مَا لَقَّى

19ــ وَأَعْدَمَهُ الْمُلْكَ الَّذِي اعْتَادَ غَصْبَهُ فَرَاجَعَ تَحْتَ الذِّلَّةِ الْمُلْكَ والرِّقَّا

---

(131) د/ص 381

(132) الخرق : الأرض الواسعة .

(133) ما اعتبره الشاعر خبثا اعتبرته المصادر التّاريخيّة شجاعة وبأسا ونوّهت بهما .

(134) د/ص 381 .

(135) د/ص 384 .

(136) العبر : 607/6 .

(137) د/ص 381 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكان على يغمراسن ــ حسب الشاعر ــ أن يستند على الركن الأشم وهو أبو زكريا الحفصي لا على الحائط المتداعي وهو السّعيد الموحّدي ، فشتّان ما بين الجوارح الكاسرة والطّيور الصّغيرة الضّعيفة . وهنا ينكشف السّبب المباشر والحقيقي لهذه الحملة ، لا ماذكره من أسباب دينيّة واهية . قال ابن الأبّار [**البسيط**][138] :

45ــ أوى[139] إِلَى أَضْعَفِ الأَرْكَانِ مُسْتَنِدًا وَأَيْنَ مِنْ كَاسِرَاتِ الطَّيْرِ يُؤْيُؤُهُ[140]

لقد كانت فكرة الاستيلاء على سلا ومرّاكش تخامر ذهن أبي زكريا سواء قبل فتح تلمسان أو بعدها . فالدّولة الموحّديّة في سنة 1242/640 كانت في حالة احتضار . ومن هنا فإن تحريض الشّاعر للممدوح على مهاجمتها ليس من بنات أفكاره وإنّما هو أمر متوقّع من دولة قويّة ناهضة أمام دولة منهارة آفلة . قال ابن الأبّار[141] :

35ــ جَاوِزْ تِلِمْسَانَ فَتْحًا لاَحِقًا بِسَلاَ يَكْفِكَ مِنْ كَفَرِ النُّعْمَى وَيَكْفُؤُهُ
36ــ وَانْهَدْ لِمَرَّاكُشٍ تَسْعَدْ بِهَا نَفَلاً[142] مَا كَانَ مِثْلُكَ يَنْسَاهُ وَيَنْسَؤُهُ

وفتح تلمسان فعلا هو تهديد لسلا ومرّاكش ، وهو إنذار في نفس الوقت لفاس وسبتة ولنصارى الأندلس قال الشّاعر[143] :

34ــ وَهَلْ سَكَنَتْ فَاسُ وَسَبْتَةُ بَعْدَهُ أَمِ اضْطَكَّتَا كَالخَافِقَيْنِ لَهُ خَفْقَا
35ــ لَقَدْ بَاتَ أَهْلُوهَا بِلَيْلَةِ مَاخِضٍ وَقَدْ عَضَّلَتْ وَضْعًا وَمَا فَتَرَتْ طَلْقَا
36ــ وَهَلْ أَخَذَتْ رُومُ الْجَزِيرَةِ حِذْرَهَا مِنَ الْفَتْكَةِ النَّكْرَاءِ تَمْحَقُهُمْ مَحْقَا

---

(138) د/ص 45 .
(139) يغمراسن
(140) أساء المحقّق فهم هذا البيت .
(141) د/ص 44 .
(142) الاستيلاء على عاصمة الدّولة الموحدية وهي مرّاكش سيكون عملا سهلا دون حرب نظرا إلى ضعف هذه الدّولة .
(143) د/ص 383 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبفتح تلمسان سيمتدّ ملك أبي زكرياء من تلمسان ومليانة غربا إلى طرابلس شرقا .
قال ابن الأبّار(144) :

66ــ يُصَرِّفُ صَرْفَ الدَّهْرِ فِي النَّاسِ حُكْمُهُ فَإِنْ عصم الأَهْدى لقَدْ قَصَمَ الأَغْوَى
67ــ وَيُزْوَى لَهُ شَرْقُ الْبِلاد وَغَرْبُهَا لِيَبْلُغَ مِنْهَا مُلْكُهُ كُلَّ مَا يُزْوَى
68ــ فَتِلْكَ تِلِمْسَانٌ وَمِلْيَانَةٌ إِلَى طرابُلُسٍ زُوعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى(145)

6 ــ بيعة مدن إفريقيّة لأبي زكريا

بدأ مسلسل الاعتراف بالسلطة الحفصيّة في بلاد المغرب والأندلس منذ أن برهن أبو زكريا على أنّه رجل المواقف الصّعبة . فقد استولى على بجاية وقسنطينة في سنة 1230/628 ثمّ قضى على ثورة ابن غانية في سنة 1234/631 وبدأ التّفكير في غزو تلمسان . قال ابن الأبّار [الطويل](146) :

8ــ وَلَمَّا أَجَبْتَ النَّاصِرِيَّةَ نَاصِرًا وَجُبْتَ إِلَى الْبَطْحَاءِ بَيْدَاءَهَا رَكْضَا
9ــ دَعَتْكَ تِلِمْسَانٌ فَلَبَّيْتَ صَوْتَهَا مُجِيرًا وَنَابُ الْجَوْرِ يُوسِعُهَا عَضًّا

وفعلا تمّ فتح تلمسان سنة 1242/640 فبوّأ هذا النّصر أبا زكريّا مكانة مرموقة في أعين أتباعه ومناوئيه ، داخل إفريقيّة وخارجها ، وأصبح مؤسّس هذه الدّولة الجديدة قوّة تُرتجى ورُعبا يُتّقى . قال الشاعر[طويل](147) :

9ــ دَعَتْكَ تِلِمْسَانٌ فَلَبَّيْتَ صَوْتَهَا مُجِيرًا وَنَابُ الْجَوْرِ يُوسِعُهَا عَضًّا
15ــ أَبَحْتَ حِمَاهَا قَادِرًا وَحَمَيْتَهُ فَغَادَرْتَ حُبَّ الْغَدْرِ فِي صَدْرِهَا بُغْضَا
16ــ وَخَلَّفْتَ جَيْشَ الرُّعْبِ فِي أَخَوَاتِهَا يُقِضُّ عَلَيْهِنَّ الْمَضَاجِعَ مُنْقَضًّا

وكان أبو زكريا قبل ذلك بسنة أي في سنة 1241/639 قد قضى على ثورة طرابلس وهي في المهد وقتل واليها عبد الرّحمان الهرغي أحد كبار شيوخ الموحّدين . وهكذا

---

(144) د/ص 423 .

(145) الرُّغْوَى : التّوبة وحسن الرّجوع :
يشير إلى فتح تلمسان سنة 1242/640 وإخماد ثورة الهرغي في طرابلس 1241/639 .

(146) د/ص 346

(147) د/ص 346

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لم يمنعه بعد المسافة بين أطراف مملكته من أن يضرب شرقا وغربا . قال ابن الأبّار [**الطويل**][148] :

58ـ كَفِيلٌ بِقَهْرِ الْغُرْبِ وَالْعُجْمِ بَأْسُهُ وَلاَ عَجَبٌ أَنْ يَقْنِصَ الأُجْدَلُ الصَّعْوَا
68ـ فَتِلْكَ تِلِمْسَانٌ وَمَلْيَانَةٌ إِلَى طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدَّدَةً رَعْوَى
69ـ بِلاَدٌ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةَ سُعُودُهُ كُؤُوسَ الْمَنَايَا جَزَاءً عَلَى الطَّغْوَى

وبالقوّة خضعتْ إفريقيّة بأكملها للسّلطة الحفصيّة وعادت رياضا آمنة بعد أن كانت غياضا ترتع فيها الوحوش الكاسرة من ثائرين وعصاة . قال الشّاعر[**الطويل**][149] :

6ـ أَطَاعَتْكَ إِفْرِيقِيَّةٌ فَكَفَيْتَهَا عُصَاةً عَلَى إِثْلاَفِهَا ائْتَلاَفُوا هُضًا
7ـ وَكَانَتْ غِيَاضًا بِالْعِدَى فَأَعَدْتَهَا رِيَاضًا يَرِفُّ النَّوْرُ أَثْنَاءَهَا غَضًّا

وفتح تلمسان واستتباب الأمن داخل إفريقيّة ، جعل مدن المغرب الأقصى تراجع سياستها معَ الدّولتين المتواجدتين على السّاحة : وهما الدّولة الموحدية الضّعيفة والدّولة الحفصيّة القويّة : فَبالنّسبة إلى المدن التي مازالت خاضعة لدولة بني عبد المؤمن ، فقد كثر فيها الفساد . ولئن غضّ أبو زكريّا الطرف عنها فما ذلك إلاّ من باب الحنان والرّفق بالجاني لعلّه يرعوي عن غيّه من تلقاء نفسه . قال ابن الأبّار [**البسيط**][150] :

48ـ سَلاَ عَنْ (سَلاَ) مُذْ ظَلَّهَاالْعَارِضُ الَّذِي أُطَلَّ عَلَى مُسْرَاكُشٍ يَحْمِلُ الصَّعْقَا
49ـ وَأَسْرَفَ أَهْلُوهَا مَعَاصِيَ أَوْ بَقَتْ فَمَا زَادَ أَنْ أَغْضَى حَنَانًا وَأَنْ أَبْقَى
50ـ كَأَنَّ مَشِيدَ السُّورِ شَاءَ انْهِدَادَهُ لِيَظْفَرَ بِالأَشْقَى عَلَى يَدِهِ الأَتْقَى
51ـ وَإِلاَّ فَكَيْفَ انْهَالَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا انْهَالَتِ الْكُتْبَانُ وانْهَارَتِ الأَنْقَا

وبالنّسبة إلى المدن التّي خرجت عن الطاعة الموحّديّة أو هي بصدد المحاوَلة ، فإنّ فتح تلمسان سيجعلها تعيش حالة مخاض من الخوف والحيرة والتّردّد . ولكنّ كلّ ذلك

---

(148) د/ص 423 ـ 422

(149) د/ص 345 ـ 346

(150) د/ص 383

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سيسرع بها لأخذ قرار البيعة لأبي زكريّا الحفصي ، لهذا تساءل الشّاعر عن وقع الفتح في نفس متساكنيها ومن جاورهم من روم الجزيرة الأندلسية قائلا [**الطويل**][151] :

34ـ وَهَلْ سَكَنَتْ فَاسٌ وَسَبْتَةُ بَعْدَهُ أَمِ اضْطَكَّتَا كَالخَافِقَيْنِ لَهُ خَفْقَا
35ـ لَقَدْ بَاتَ أَهْلُوهَا بِلَيْلَةِ مَاجِضٍ وَقَدْ عَضَّلَتْ وَضْعًا وَمَا فَرَتْ طَلْقَا
36ـ وَهَلْ أَخَذَتْ رُومُ الْجَزِيرَةِ جِذْرَهَا مِنَ الْفَتْكَةِ النُّكْرَاءِ تَمْحَقُهُمْ مَحْقَا

وقد بادرت سبتة مع حاكمها أبي علي بن خلاص سنة 1242/640 بإرسال بيعتها إلى أبي زكرياء . فكانت بيعتها بمثابة العلامة الخضراء لبقيّة المدن المغربيّة لتحذو حذوها وتنحو منحاها . قال ابن الأبّار [**الطويل**][152] :

8ـ هَنِيئًا لأَهْلِ العُدْوَتَيْنِ عِدَادُهُمْ بِإِخْلاَصِهِمْ فِي المُخْلِصِينَ الأَطَايِبِ
9ـ أَطَاعُوا الإِمَامَ المُرْتَضَى وَتَسَابَقُوا إِلَى سَنَنٍ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ لاَحِبِ
10ـ إِلَى مَذْهَبٍ سَنَّتْهُ سَبْتَةُ قَاصِدٍ بِهِ عَدَلُوا عَنْ زَائِغَاتِ المَذَاهِبِ

وجاءت بيعة فاس معترفة بالخلافة الحفصيّة بعد أن راجعت نفسها وبدا لها طريق الهدى والصّواب . قال الشّاعر [**الطويل**][153] :

27ـ وَأَجْدِرْ بِـ (فَاسٍ) أَنْ تُرَاجِعَ رُشْدَهَا وَقَدْ رَحَضَتْ (مَرَّاكُشٌ) غَيَّهَا رَحْضَا
31ـ فَحَيَّوْكَ مِنْهَا بِالْخِلاَفَةِ حَيْثُ لَمْ يَدَعْ جِدُّ أَعْرَاقِ الخِلاَفِ لَهَا نَبْضَا
32ـ تَشَيَّعَتِ الأَمْصَارُ فِيكَ فَزَحْزَحَتْ عُدَاتُكَ عَنْ أَعْلَى مَنَابِرِهَا رَمْضَا

وبعد مدن الشّمال المغربي أتت بيعة مدن السّاحل والوسط من رباط الفتح إلى قصر ابن عبد الكريم ومكناسة . قال ابن الأبّار [**الطويل**][154] :

26ـ بِفَتْحِ رِبَاطِ الفَتْحِ تَرْتَبِطُ الْمُنَى وَيَحْظَى بِهَا مَنْ بَاتَ نَارَ الْوَغَى يَحْظَى

---

(151) د/ص 383

(152) د/ص 80 ، ص 81 . انظر كذلك د/ص 347 بيت 21، 22، 23، 24

(153) د/ص 348

(154) د/ص 348

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقال [الطويل][155] :

27ـ وَيَـا لَشرِيشٍ وَالْجَزِيـرَةِ يَالَهَـا وَمَكْنَاسَةٍ وَالْـقَصْرِ عَـزَّ فَـلاَ وَهْصَا
28ـ وَأَنْتُ رِيَـاشًا فَاسْتَحَـثَّتْ لِدَعْـوَةٍ عَلَـى رَبِّهَـا أَنْ يَكْفِـيَ الـحَسَّ وَالْـحَصَّا

ثمّ جاءت مدن أقصى الجنوب فكانت بيعة سجلماسة مع حاكمها عبد الله الهزرجي[156] قال ابن الأبّار [البسيط][157] :

1ـ فَوَاتِـحُ الْفَتْـحِ تُنْبِـي عَـنْ تَوَالِيـهِ لَقَـدْ تَمَهَّـدَ مُـلْكٌ أَنْتَ وَالِيـهِ
4ـ أَمَّتْ إِمَـامَ الْهُـدَى غُـرًّا مُحَجَّلَـةً كَأَنَّمَـا فِـي تَبَارِيهَـا مَذَاكِيـهِ
9ـ عَلَـى خِلاَفَتِـهِ الإِجْمَـاعُ مُنْعَقِـدٌ فَحَـاضِرُ الخَلْـقِ طَوْعًـا مِثْـلُ بَادِيـهِ
12ـ بُشْرَى سَجِلْمَاسَةُ أَعْـطَتْ مَقَادَتَهَـا يَـدَيْ إِمَـامٍ مُعَاطِيهَـا أَيَادِيـهِ

7 ـ نكبة ابن الأبّار الثّانية :

نجد في ديوان ابن الأبّار ـ زيادة على القصائد التي قالها في طلب العفو من أبي زكريا في محنته الأولى ، وضمّن أغلبها كتابه إعتاب الكتّاب ـ قصائد أخرى عديدة في طلب العفو من هذا السّلطان نفسه . ممّا يدلّ على أنّ الشاعر تعرّض إلى غضب أبي زكريّا مرّة ثانية . وحسب المصادر التّاريخيّة ، نفاه في هذه المرّة إلى بجاية ، وبقي مدّة طويلة استمرّت إلى نهاية حكم المولى أبي زكريا سنة 1249/647[158] .

ويبدو أنّ السّلطان لم يأمر ابن الأبّار بالرّحيل وإنّما حرمه من الامتيازات التي كان أمثاله من الكتاب والشّعراء يتمتّعون بها فساءت حاله ماديّا حتى أصبح الشّاعر في حالة

---

(155) د/ص 340

(156) قتله في نفس السنة ـ أي سنة 1242/640 ـ الخليفة السّعيد الموحدي واسترجع المدينة .

(157) د/ص 411

(158) ذهبنا إلى هذا التّحديد نظرا إلى أنّ جلّ القصائد التي قالها الشّاعر يطلب العفو من أبي زكريا ذكر فيها الأمير محمّدا باعتباره وليّا للعهد ومن المعلوم أنّ هذا الأخير تولّى عهد أبيه بعد وفاة أخيه يحيى سنة 1248/646 . زيادة على ذلك ذكر أبو المطرّف ابن عميرة في إحدى رسائله (انظر ابن شريفة : أبو المطرّف ص 148) أنّ ابن الأبّار كان سجاية سنة 1249/657 وما قبلها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من الضّنك والفقر يُرثى لها ، فيتحدّث عن أطفاله وجوعهم بطريقة تذكّرنا بأطفال الحطيئة وهو مُلقى في غياهب سجن عمر بن الخطاب . قال [الطويل][159] :

10ـ وَلَوْلاَ أُطَيْفَالٌ طَوَاهُمْ طَوَاهُمُ ... فَأَعْظَمُ مَا يَبْقَى جُلُودٌ وَأَعْظُمُ
12ـ هُمُ أَبَدًا هَمِّي فَلَيْلِي أَلَيْلُ ... بِمَعْجَزَتِي عَنْهُمْ وَيَوْمِي أَيُومُ
13ـ جَوَانِحُهُمْ تَذْكُو لَهِيبًا وَتَلْتَظِي ... وَأَعْيُنُهُمْ تَهْمِي نَجِيعًا وَتَسْجُمُ
14ـ تَخَالُهُمْ فِي شَجْوِهِمْ وَانْتِحَابِهِمْ ... حَمَامًا عَلَى أَفْنَانِهَا تَتَرَنَّمُ

ومع ذلك لم يتسرّع الشاعر في الرّحيل بل بقي يترقّب عفوا من لدن السلطان [الطويل][160] :

15ـ وَزَجَّيْتُ أَيَّامِي وَرَجَّيْتُ فُرْجَةً ... وَلَمَّا يَسِرْ مُسْتَرِي بِرَحْلِي وَمُلْجَمُ
16ـ كَفَانِي الرِّضَى وَالإِذْنُ زَادًا لِطِيَّتِي ... هُمَا لِي مَعْنًى حَيْثُ كُنْتُ وَمَغْنَمُ
17ـ وَكَمْ رُمْتُ فِي دَارِ الْخِلاَفَةِ ـ أُيِّدَتْ ـ ... قَرَارًا فَأَعْيَا ، وَالْمَوَاهِبُ أَسْهُمُ
18ـ وَكَمْ لُحْتُ مَصْدُودًا يُلَوِّحُنِي الصَّدَى ... وَبَحْرُ نَدَاهَا مُزْبِدُ الْمَوْجِ خِضْرِمُ

ولَمَّا يئس من ذلك اضطرّ إلى الرّحيل [الطويل][161] :

7ـ بِرَغْمِي أَزْمَعْتُ الْمَسِيرَ عَنِ الْغُلَى ... وَصَرْفُ اللَّيَالِي لِلْمُجِيبِينَ مُرْغِمُ
9ـ دَعَانِي لِتَرْحَالِي اضْطِرَارٌ وَلَمْ يَزَلْ ... يُحَلِّلُ مَا أَضْحَى عَلَى الْمَرْءِ يَحْرُمُ
10ـ وَلَوْلاَ أُطَيْفَالٌ طَوَاهُمْ طَوَاهُمُ ... فَأَعْظَمُ مَا يَبْقَى جُلُودٌ وَأَعْظُمُ

إنّ تقدّم سنّ الشاعر واضطراره إلى الرّحيل ثانية بعد أن اتخذ عاصمة الخلافة الحفصيّة وطنا ثانيا له ، ليحزّ في نفسه ويؤلمها ويجعله يتجرع مرارة خيبته وحرمانه علقما . قال [الوافر][162] :

38ـ أَجَبْتُ إِلَى الْوَدَاعِ وَقَدْ دَعَانِي ... عَلَى كَلَفٍ بِبَرْحِ وَاشْتِيَاقِ
39ـ وَمَا دَارُ الإِمَارَةِ بِالَّتِي لاَ ... أَبِيتُ لِبَيْنِهَا خَضِلَ الْمَآقِي

(159) د/ص 259 .
(160) د/ص 259 .
(161) د/ص 258
(162) د/ص 391

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

40ـ وَقَدْ وافَيْتُهَا عَبْدًا صُرَاحًا فَكَيْفَ أُعِيبُ مِلْكِي بِالإِبَاقِ
41ـ لَقَدْ فَدَحَ الْعَزَاءُ فَلَمْ يُطِقْهُ رَجِيلٌ مَا أُرَاهُ بِالْمُطَاقِ
42ـ فَإِنْ رَافَقْتُ جِسْمًا فِي سَرَاحٍ فَقَدْ فَارَقْتُ قَلْبًا فِي وِثَاقِ

وبصيص الأمل الذي يقي يستنير به الشّاعر في مدلهمّات المصائب هو أنّه منتقل من عاصمة السّلطان إلى مدينة ولّي العهد . وما حرم منه لدى الأوّل قد يستعيده لدى الثاني . وعسى أن يكره المرء ماله فيه تحقيق رغباته وأمانيه . قال [**الطّويل**][163] :

20ـ عَلَى أَنَّنِي مِنْهَا إِلَيْهَا تَنَقُّلِي لِيُفْرَجَ بَابٌ فِي التَّكَسُّبِ مُبْهَمُ
21ـ أَلَيْسَ وَلِيُّ الْعَهْدِ قِبْلَتِيَ الَّتِي أُوَجِّهُ وَجْهِي نَحْوَهَا وَأُيَمِّمُ
22ـ عَسَى لانْتِقَالِ الْحَالِ نَادَتْنِيَ الْمُنَى فَلاَ مِرْيَةٌ أَنِّي مُنَادًى مُرَحَّمُ
5ـ وَإِنَّ لَهُ بِالنَّاصِرِيَّةِ نَاصِرٌ يَفُلُّ خَمِيسَ الْبُؤْسِ وَهْوَ عَرَمْرَمُ

وفي بجاية يقضي الشّاعر عدّة سنوات ، ويلتقي بصديقه أبي المطرّف بن عميرة ، ويترجم له الغبريني باعتباره أحد أعلام هذه المدينة . وبها يضع أو يكمل عدّة تصانيف ، ويترقّب من السّلطان عفوا فلا يحصل عليه ، فيشكو ويتذمّر لقد طال غضب السّلطان فطال الانتظار وعيل الصّبر . قال [**الرّمل**][164] :

1ـ أَسْرَفَ الدَّهْرُ فَهَلاَّ قَصَدَا مَا عَلَيْهِ لَوْ شَفَى بَرْحَ الصَّدَى
2ـ يَنْقَضِي يَوْمِي كَأَمْسِي خَيْبَةً أُبْدًا أُقْرَعُ بَابًا مُوصَدَا
3ـ طَالَ قَدْحِي لأُمَانٍ أُخْلِفَتْ وَعَنَاءٌ قَدْحُ زَنْدٍ صَلَدَا
8ـ لاَ أَوَدُّ الْعُمْرَ أَلْقَاهُ إِذَا عَزَّ فِيهِ مَا يُقِيمُ الأَوَدَا
9ـ حَسْبِيَ اللهُ لِشَتَّى ثُوَبٍ لَيْسَ يُحْصِيهَا حِسَابٌ أَبَدَا
10ـ قَدْ خَلَعْتُ الصَّبْرَ فِي أَثْنَائِهَا فَرْطَ جَهْدٍ وَلَبِسْتُ الْكَمَدَا
11ـ أَنَا جَارُ الْبَحْرِ إِلاَّ أَنَّ لِي مِنْهُ فِي حَالِ الْوُرُودِ الثَّمَدَا
13ـ وَعَلَى ذَلِكَ يَا نَفْسِي فَلاَ تَيْأَسِي إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَدَا
14ـ لِلإِمَامِ الْمُرْتَضَى مِمَّا مَضَى خَلَفٌ يُولِيكَ عَيْثًا رَغَدَا

(163) د/ص 9 ــ 258

(164) د/ص 60 ــ 159

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويبدو أنّ الشّاعر كان وهو ببجاية معضوب عليه يتقاضى مرتّبا كلّ شهر وكان ضئيلا لا يفي بالحاجة . قال [**الكامل**](165):

9ــ هَلْ شَرْبَةٌ مِنْ أُبْحُرِ الْجَدْوَى سِوَى ... ثَمَدٍ يَفِيضُ لِرَأْسِ كُلِّ هِلاَلِ
20ــ إنْ لَمْ تُفِدْنِي ضَيْعَةً أَوْ صَنْعَةً ... فَضَيَاعُ أَحْوَالِي مِنَ الأَحْوَالِ

ولقد فكّر الشّاعر وقد غلب عليه اليأس أن يعصي أوامر السّلطان ويعود بدون إذن إلى تونس . قال شاكيا متذمّرا [**الكامل**](166) :

46ــ يَا لِلزَّمَانِ أُعَلِّلِي بِزَمَانَةٍ ... أَصْبَحْتُ بِالإِخْلاَدِ فِيهَا أَقْنَعُ
47ــ لاَ بُرْءَ مِنْهَا يُسْتَفَادُ بِحِيلَةٍ ... فَإِلَى الرِّضَى بِالْحُكْمِ فِيهَا الْمَرْجِعُ
48ــ مِنْ أَيْنَ لِي صَبْرٌ عَلَى مَضَضِ النَّوَى ... سُدَّتْ إِلَى الصَّبْرِ الطَّرِيقُ الْمَهْيَعُ
49ــ لَوْلاَ التَّكَرُّهُ أَنْ أُخِلَّ بِطَاعَةٍ ... لَسَعَيْتُ زَحْفًا أَسْتَقِيمُ وَأَظْلَعُ
50ــ وَبِأَنْ وُكِلْتُ إِلَى الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ ... عَذْبَ الأَمَرُّ مِنَ الْفِرَاقِ الأَقْطَعُ

إنّ ما يخفّف عن الشّاعر في كلّ مرّة يشكو فيها ويتذمّر هو وجوده بجوار ولّي العهد في بجاية وأمله في عفو السّلطان . لكن قد ينسى كلّ ذلك ويفقد السّيطرة على أحزانه فيقول متفجّعا [**الوافر**](167) :

1ــ أَبَيْنَ وَاشْتِيَاقٌ وَارْتِيَاعٌ ... لَقَدْ حُمِّلْتُ مَالاَ يُسْتَطَاعُ
3ــ وَزَوَّعَنِي الْفِرَاقُ عَلَى احْتِمَالِي ... وَمَنْ ذَا بِالتَّفَرُّقِ لاَ يُرَاعُ
4ــ بِعَيْنِ اللَّهِ حِفْظِي دُونَ يَحْمِي ... وَكَتْمِي مَا يُضَاعُ وَمَا يُذَاعُ
5ــ لَزِمْتُ الصَّبْرَ حَتَّى عِيلَ صَبْرِي ... وَبَانَ الْعُذْرُ إِذْ جَدَّ الزَّمَاعُ

ويبدو أنّ الشّاعر مرّ بثلاث مراحل في الشّكوى والاستعطاف وهو ببجاية . ففي الفترة الأولى ــ ويبدو أنّه لم يتصّل بعد بأمير بجاية وولّي العهد ــ كان يستشفع بأبناء أبي زكريّا دون تحديد. قال [**الوافر**](168) :

26ــ أُمُولاَيَ وَمَا أُولَيْتَنِيهِ ... فَأُتْمِمْهُ ، مِنَ النِّعَمِ الْجِسَامِ
27ــ وَسَوِّغْنِي التَّشَفُّعَ فِي الرِّضَى مِنْ ... بَنِيكَ بِكُلِّ جَحْجَاحٍ هُمَامِ

(165) د/ص 40 ــ 239 .
(166) د/ص 354 .
(167) د/ص 5 ــ 364 .
(168) د/ص 262

28ـ برانِـي طُـولُ إقْصَاءِ غَرَانِـي وَفِـي يُمْنَـاكَ بُـرْءٌ لِلْكَـلاَمِ
29ـ ولَـوْ أنِّـي لَثَـمْتُ الْجُـودَ مِنْهَـا عَـفَـتْ بِالـرِّيِّ آثَـارُ الأُوامِ

وفي مرحلة ثانية استشفع بوليّ العهد دون تعيين هل هو يحيى أو محمّد ؟ قال [البسيط][169] :

73ـ عِلْمِي بِآلِ أَبِـي حَـفْصٍ يُعَلِّمُنِـي مَدَائِـحَ ابْـنِ حُسَيْـنٍ آلِ حِمْدَانَـا
74ـ وَصِدْقُ حُبِّـي لاَ سُلْـوَانَ يُكْذِبُـهُ فِيهِـمْ وَإِنْ أُتْبِـعَ الْهِجْـرَانُ هِجْرَانَـا
75ـ عَسَى وَعَـلَّ وَلِـيُّ الْعَهْـدِ يَشْفَعُ لِـي فَأَسْتَعِيـدَ مِـنَ التَّغْـرِيبِ مَـا بَانَـا

وكانت المرحلة الثّالثة في آخر أيّام السّلطان أبي زكريا ، فقد مات وليّ العهد أبو يحيى فاغتمّ والده لوفاته واعتلّ ، وكان ذلك فرصة للشّاعر ليصل إلى قلب أبي زكريا وقد نال منه الغمّ والمرض ، فينال رضاه . قال بعد أن هنّأه بشفائه من مرضه [الوافر][170] :

18ـ أَمَـوْلاَيَ أُنَـادِي مِـنْ بَعِيـدٍ لِيُظْفِرَنِـي بِإِدْنَائِـي النِّـدَاءُ
19ـ وَلَـوْ أَنَّ الْهَـوَى بِالْـقَصْدِ وَافٍ لَطَـارَ إِلَـيْكَ (بِالْقَـلْبِ) الْهَـوَاءُ
26ـ لَعَـلَّ عُـلاَكَ تُوسِعُنِـي بِحُبِّـي قَبُـولاً . إِنَّـهُ نِعْـمَ الْجِبَـاءُ

وليسرع بنيل رضى السّلطان تشفّع بوليّ العهد الجديد محمّد وهو الذّي خلف أخاه يحيى في ولاية العهد وعلى إمارة بجاية . قال [الكامل][171] :

11ـ وَلَئِـنْ عَلَـتْكَ مِـنَ الضَّنَـى سِمَـةٌ فَالْمُشْرِفِـيُّ يَزِينُـهُ الْفَلَـلُ
12ـ بِشِفَـائِكَ الْمَيْمُـونُ مَطْلَعُـهُ نَـكَصَتْ عَلَـى أَعْقَابِهَـا الْعِلَـلُ
36ـ يَـا حَـادِيَ الْخُلَفَـاءِ مَعْـذِرَةً إِنَّ الأَيَـادِيَ مَـا بِهَـا قِبَـلُ
37ـ وَعَسَى قَبُـولُكَ أَنْ تَجُـودَ بِـهِ خَلْيًـا لِحَـالٍ شَأْنُهَـا الْعَطَـلُ
38ـ أَمَلِـي إِلَـى عَلْيَـاكَ مُنْقَطِـعٌ وَتَوَسُّلِـي لِـرِضَاكَ مُتَّصِـلُ

(169) د/ص 311
(170) د/ص 51 .
(171) د/ص 2 ـ 241 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

39ــ أَكِلُ اخْتِيَارِي لِاخْتِيَارِكَ لِي وَعَلَى وَلِيِّ الْعَهْدِ أُتَّكِلُ
40ــ حَسْبِي الأَمِيرُ مُحَمَّدٌ سَنَدًا بِجَلاَلِهِ يُسْتَدْفَعُ الْحَلَلُ

وأخيرا يحصل الشّاعر على عفو السّلطان ، فكان يوم وصوله بالنّسبة إليه عيدا ثالثا يضاف إلى عيد الاضحى وعيد الفطر [**الوافر**][172] :

45ــ قَدْ عَزَّزَ الْعِيدَيْنِ عِنْدِي ثَالِثٌ الفِطْرُ وَالأَضْحَى وَيَوْمُ رِضَاهُ

وقد عبّر الشاعر عن بهجته بهذا العفو في قصيدة أخرى فقال [**الطويل**][173] :

3ــ وَرَدْتُ نَدَاهُ الغَمْرَ غَيْرَ مُصَرَّدٍ وَنِلْتُ رِضَاهُ الجَمَّ غَيْرَ مُصَرَّمِ

8 ــ القبائل :

إنّ حديث ابن الأبّار عن القبائل يندرج في نطاق علاقة هذه القبائل بالدّولة الحفصيّة الفتيّة . ولم تكن هذه العلاقة حسنة في كثير من الأحيان لهذا نجد ابن الأبّار ــ وهو النّاطق الرّسمي باسم السلطان الحفصي ــ إمّا متشفيّا ممّا أصاب هذه القبائل أو مهدّدا لها لما سيؤول إليه أمرها على يد الممدوح . قال متشفيّا [**الكامل**][174] :

19ــ وَإِقْبَالُكُمْ سَلَبَ الْقَبَائِلَ بَأْوَهَا[175] وَكَسَا الْبُطُونَ الْهَوْنَ وَالأَفْخَاذَا

وقال مهدّدا [**الرّمل**][176] :

57ــ لَيْسَ يَرْجُو مَنْ عَصَى مُعْتَصَمًا مِنْ عَوَالِيهِ وَلاَ مُعْتَصَرَا[177]
58ــ هَذِهِ الأَحْيَاءُ قَدْ دَوَّخَهَا فَسَلِ الْبِيضَ بِهَا وَالسُّمُرَا
60ــ غَادَرَ الْغَدْرُ وَمَنْ دَانَ بِهِ لِلْعَوَالِي وَالْعَوَافِي جَزَرَا

(172) د/ص 410 .
(173) د/ص 288 .
(174) د/ص 184 .
(175) البأو : الفخر والتكبّر .
(176) د/ص 188
(177) الملجأ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهذه القبائل على ثلاثة أصناف :

ـ **صنف أوّل** :قبائل من أحلاف مناوئية من الموحّدين أو بني عبد الواد . ومن هذا الصنف نجد :

ـ قبيلة سفيان التي كانت مع السّعيد عندما هجم على تلمسان وقتل سنة 1248/646 . قال ابن الأبّار [**البسيط**][178] :

49ـ سَافَتْ رِيَاحُ الْمَنَايَا مِنْ سُيُوفِهِمُ سُفْيَانَ فَانْهَزَمَتْ يَا وَيْحَ سُفْيَانَا

ـ وعرب المعقل وهم ممّن تخلّوا عن السّعيد في حصاره لتلمسان وكانوا مع الخلط السبّب المباشر في انكساره ومقتله[179] . قال ابن الأبّار [**البسيط**][180] :

50ـ وَالْمَعْقِلِيُّونَ لَوْلاَ أَنَّهُمْ عَقَلُوا[181] نَجَاءَهُمْ مَا نَجَوْا شِيبًا وَشُبَّانَا

ـ وبنو سويد من بني مالك بن زغبة وكانوا أحلافا لبني عبد الواد[182] مناوئين لأبي زكريا وخاصّة عندما زحف على تلمسان سنة 1242/640 . قال ابن الأبّار [**وافر**][183] :

65ـ وَرُبَّ مُسَوَّدٍ لِبَنِي سُوَيْدٍ مَقُودٍ بِالْجَرَائِرِ فِي جَرِيرِ[184]

ـ **صنف ثان**:من القبائل يذكر الشّاعر عداوتهم لبني حفص ولكنّهم اضطروا في نهاية الأمر إلى الخضوع لهم كقبيلتي زغبة ورياح من بني هلال . وكانت الأولى مقيمة

---

(178) د/ص 309 .

(179) ابن خلدون : العبر : 535/6 .

(180) د/ص 309 .

(181) د/ص الشّاعر يعتبر غدر عرب المعقل بالسّعيد الموحّدي هو ضرب من التعقّل أنجاهم من الهلاك على يد ممدوحه أبي زكريّا .

(182) ابن خلدون : العبر : 95/6 .

(183) د/ص 197

(184) د/ص جرير : زمام النّاقة أو الحبل .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

في المغرب الأوسط والثانية في الزّاب قد لعبتا دورا خطرا فيما جدّ من أحداث في نهاية القرن 12/6 وبداية 13/7 بالمغرب[185] . وكان لهاتين القبيلتين دور كذلك منذ منتصف القرن 11/5 في خراب مدينة القيروان وقد ذكرهما بكلّ سوء شاعرا عاصمة الأغالبة ابن رشيق وابن شرف . قال ابن الأبّار فيهما [**كامل**][186] :

5ـ وَحَكَتْ أَجَادِلُ زُغْبَةٍ زُغْبَ الْقَطَا وَغَدَتْ رِيَاحُ بَنِي رِيَاحٍ رُكَّدَا

وقد أذعنت هاتان القبيلتان لأبي زكريّا بعد أن ضيّق عليهما الخناق وكان خضوعهما سببا لنجاتهما . قال ابن الأبّار [**الوافر**][187] :

60ـ وَلَوْلاَ أَنَّهَا رَكَدَتْ «رِيَاحٌ» لَبَاءَتْ مِنْهُ بِالْيَوْمِ الْعَسِيرِ
61ـ وَزَاغَتْ زُغْبَةٌ ثُمَّ اسْتَقَامَتْ فَقَدْ عَادَتْ بِعَفْوٍ مِنْ قَدِيرِ
64ـ وَبَيْنَ الزَّاغِبِينَ وَبَيْنَ زُغْبٍ تَحَوَّلَ عُرْفُهَا نَحْوَ النَّكِيرِ

وتبعتهما في ذلك قبيلة شدّاد . فقال الشّاعر [**الوافر**][188] :

62ـ وَشَادَ نَجَاةَ شَدَّادٍ خُضُوعٌ وَفِي أَعْمَارِهِمْ حَتْمُ الدُّثُورِ

ومن هذه القبائل التي تمّ لبني حفص السّيطرة عليها قبيلتي زناتة وهوّارة البربريّتين . وكانتا في أوّل الأمر مع بني غانية ضدّ الموحّدين ، ثمّ ضدّ الحفصيّين مع بني عبد الواد . قال الشاعر مهدّدا زناتة بمناسبة فتح أبي زكريّا لتلمسان [**البسيط**][189] :

38ـ بَشِّرْ زَنَاتَةَ بِالْهَيْجَاءِ مُسْفِرَةً عَنْ كُلِّ ذِي قَدْرٍ لاَ حَوْلَ يَدْرَؤُهُ

وهّوارة : وهم فرع من قبيلة صنهاجة ، ولها بطون كثيرة سكن بعضهم طرابلس

---

(185) ابن خلدون:العبر : 44/6 و 632 .
(186) د/ص 167 .
(187) د/ص 196 .
(188) د/ص 196 .
(189) د/ص 44 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبرقة وقطن أخرون أوراس . قال الشاعر [**الطويل**][190] :

22ـ بِحَسْبِكَ فِي هُسوَّارَة وَزَنَاتَةٍ وَقَائِعُ هَابَتْهَا سُلَيْمٌ وَعَامِرُ

ولئن نوّه الشّاعر بهم ومجّد بطولتهم وخاصّة زناتة فليظهر مدى قوّة ممدوحه وشجاعته على طريقة عنترة في الفخر [**الطويل**][191] :

9ـ عُصَاةٌ أَطَاعَ اللَّهَ فِيهِمْ مُبِيرُهُمْ فَحَصَّهُمُ قَدًّا وَعَتَّهُمْ دَقَّا
10ـ أَخَامِسُ تُنْمِيهِمْ زَنَاتَةُ لِلْوَغَى وَحُقَّ عَلَى الأَغْصَانِ أَنْ تُشْبِهَ الْعِرْقَا
11ـ تَرَى بِهِمُ مِنْ قَامَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ رُدَيْنِيَّةً ذُبَّالاً وَهِنْدِيَّةً دُلْقَا
12ـ وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ لَيْسَ تُعْدِيهُمِ الظُّبَى فَمَا مِنْهُمُ مَنْ لاَنَ طَبْعًا وَلاَ رَقَّا
13ـ غِلاَظٌ فِظَاظٌ مَا لِعُذْرَةَ[192] عِذْرَةٌ لَدَيْهِمْ إِذَا هُمْ أَحْدَثُوا مَوْثِقًا عِشْقَا
14ـ وَأَخْرَقُ خَلْقِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا رَدَوْا لِسَقْيِ الرَّدَى أَقْرَانَهُمْ بَهَرُوا حِذْقَا
15ـ أُتِيحَتْ جُنُودِ اللَّهِ[193] تَصْمُدُ صَمْدَهُمْ فَحُقَّ عَلَيْهِمْ صَيْحَةُ السَّبْتِ[194] مَا حَقَّا

وبدأت هذه القبائل تغيّر مواقفها من الدّولة الحفصيّة بعد فتح تلمسان . فقال الشّاعر مبيّنا تخلّي قبيلة زناتة القويّة عن الطّرق التي كانت تستعملها ضدّ خصومها [**وافر**][195] :

63ـ وَزَانَ زَنَاتَةُ أَنْ لَمْ يَشُقَّهَا شِقَاقٌ جَامِعٌ وِزْرًا لِزُورِ

ويبدو أن هذه القبيلة بالذّات خضعت للحفصيّين أو لحلفائهم بني عبد الواد ، وربطت مصالحها بمصلحة دولتهم . ولهذا نرى الشّاعر ينوّه بشأنهم قائلا [**البسيط**][196] :

51ـ لِلَّهِ صِيدٌ زَنَاتِيُّونَ تَحْسَبُهُمْ أُسْدًا إِذَا افْتَرَسُوا الأَقْرَانَ سِيدَانَا

(190) د/ص 212 .
(191) د/ص 1 ـ 380 .
(192) قبيلة من العرب عرفت بالحبّ الطاهر العفيف حتى أصبح يُعرف بها .
(193) جنود الممدوح وهو أبو زكريّا .
(194) يوم فتح تلمسان 1242/640 .
(195) د/ص 196 .
(196) د/ص 309 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

52ـ أَحَلَّهُمْ رُتَبَ الأَمْلاَكِ جَدُّهُمُ فِي خِدْمَةِ الْقَائِمِ الْحَفْصِيِّ عِنْدَانَا[197]
53ـ صَالُوا صُغُورًا بِجِزَّانٍ[198] جَثَتْ فَرَقًا وَطَالَمَا صُرِّعَتْ فِي الْحَرْبِ عِقْبَانَا

أما الصنف الثالث فهي قبائل يبدو أنها استمرّت إلى حين على عداوتها للحفصيّين كبني سليم[199] وكانوا مع ابن غانية ضدّ الموحّدين ثمّ الحفصيّين وبني الجبّار[200] وهي قبيلة نازلة قرب بجاية . قال الشاعر متشفيًا فيهما لمّا بدّد شملهما أبو زكريا[الوافر][201] :

66ـ وَجِئْتِ مِنْ بَنِي الْجَبَّارِ أَوْدَى عَلَى صُغْرٍ بِلَهْذَمِهِ الطِّرِيرِ
67ـ وَضَحَّى بِالْعُصَاةِ بَنِي سَلِيمٍ ضُحَى يَوْمٍ عَبُوسٍ قَمْطَرِيرِ

ومن هذا الصنّف يذكر ابن الأبّار قبيلة سدويكش المقيمة بين قسنطينة وبجاية[202] وأحد فروعها أولاد سوّاق[203] . قال وقد نال منهم الممدوح [الوافر][204]:

32ـ أَعَنْ سَدْوِيكَشٍ تَنْبُو ظُبَاهُ وَمِنْ غَادَاتِهَا فَرْثِي الْفَرِيِّ
46ـ وَكَيْفَ رَجَا ابْنُ سَوَّاقٍ نَجَاةً وَلَيْسَ لِمَا عَنَاهُ بِالنُّجِيِّ

(197) إنّ خدمتهم للدّولة الحفصيّة بوّأتهم رُتب الملوك والأسياد . وأشار صاحب مقال (زناتة) في دائرة المعارف الإسلاميّة الطبعة العربيّة ج 10 ص 416 أنّ فرعا من زناتة أصابه الوهن في السّهول حيث غدوا عبيدا للعرب الرّحل .

(198) جزّان : ذكور الأرانب .

(199) د/ص 196 تعليق 25 ـ ابن خلدون : العبر : 71/6 ـ 596 .

(200) د/ص 196 تعليق 24 ـ ابن خلدون ص 101 .

(201) د/ص 197 .

(202) ابن خلدون : العبر : 303/6 .

(203) ابن خلدون : العبر : 304/6 .

(204) د/ص 427 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكان الشّاعر وهو يمدح الحفصيّين يخيف القبائل العربيّة بما فعله الممدوح بالقبائل البربريّة قال [**الطويل**][205] :

22ـ بِحَسْبِكَ فِي هَوَّارَةٍ وَزَنَاتَةٍ وَقَائِعُ هابتها سُلَيْمٌ وَعَامِرُ
23ـ تُعَادُ إِلَى النَّحْرِ الوَحِيِّ قُدُومُهَا بِمَا عَظُمَتْ آثارُهَا وَالْجَرَائِرُ

ويخيف جميعهم بتذكيرهم بوقائع الحفصي فيهم . قال [**الطويل**][206] :

47ـ لَهَا[207] فِي سُلَيْمٍ مَالَهَا فِي زَنَاتَةٍ وَهُوَّارَةٍ مِنْ عُدَّةِ الهَصِّ[208] وَالرَّهْصِ[209]

والشّاعر في حالات اندفاعه التّمجيدي لأبي زكريّا يجمع مختلف القبائل والأجناس في فزعها من الممدوح ، فلا ترى ألّا وفودها وهي تقدّم له فروض الطّاعة والخضوع . قال [**الطويل**][210] :

5ـ لَكَ الْخَيْرُ هَذِي الْعُجْمُ وَالْعُرْبُ تَغْتَدِي بِهَا مُنْشَآتٌ أَوْ تَرُوحُ رَوَاجِلُ
6ـ تَمَلَّكَهَا رُغْبٌ وَرُغْبٌ مُخَامِرٌ فَرُسْلٌ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى وَرَسَائِلُ
7ـ وَرَدَّ عَلَى رَغْمِ الأُنُوفِ وُجُوهَهَا إِلَيْكَ أَسَاطِيلٌ سَطَتْ وَجَحَافِلُ

9 ـ الدّولة الموحّديّة :

إنّ موقف ابن الأبّار من الدّولة الموحّديّة هو موقف ملتزم للسّياسة الحفصيّة. لهذا لا يترك أيّة فرصة تمرّ ـ وهو يمدح سلاطين هذه الدّولة الصّاعدة وأمرائها ـ إلّا ونال من دولة عبد المؤمن الضّعيفة المنحلّة ، وذلك بالتّنديد بأعمال أواخر خلفائها منذ المأمون الموحدي ، وبالتّحريض عليها للتّخلّص منها .

---

(205) د/ص 212 .
(206) د/ص 334 .
(207) خيول الممدوح .
(208) العصر .
(209) الكسر .
(210) د/ص 236 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن وجهة النّظر هذه يرى ابن الأبّار ــ بصفة عامّة ــ أنّ دولة الموحّدين هي دولة قد انتهى أمرها كما انتهى أمر بني أميّة في المشرق مع آخر خلفائهم مروان الملقّب بالحمار . وبنو عبد المؤمن هم أنفسهم على يقين من هذه الحقيقة . قال [الطّويل][211] :

41ــ فَقَدْ أَبْصَرُوا أَلاَّ خُلُودَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنْ أَصْبَحُوا عُمْيَ الْبَصَائِرِ كَالْخُلْدِ
42ــ وَبِالْغَرْبِ مِنْ أَعْقَابِهِمْ غَيْرُ غُبَّرٍ تَيَقَّنَ أَنْ تَرْدَى إِذَا جَيْشُه يُرْدِي
43ــ وَهَلْ مَلَكَتْ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِقْوَدًا أُمَيَّةُ بَعْدَ مَرْوَانِهَا الْجَعْدِ

والشّاعر يتجنّب تسمية الدّولة الموحّديّة باسمها ، لأنّ الموحّدين الحقيقيّين ــ في نظره ــ هم الذين حافظوا على دعوة المهدي وصحبه ، وهم الحفصيّون . فتراه يسمّيهم تارة بني يعقوب نسبة إلى جدّهم يعقوب المنصور الخليفة الموحدي الرّابع وبطل معركة الأرك الشّهيرة . قال ابن الأبّار [الكامل][212] :

28ــ أُمَّا بَنُو يَعْقُوبَ قَدْ أُوْدَى بِهِمْ مِنْ بَأْسِهِ الإِرْهَابُ وَالإِرْهَاقُ

وتارة يرجع نسبهم إلى قيس أي قيس عيلان من عرب قحطان . وهذا في نظر ابن خلدون منكر من القول وزور . قال الشّاعر [الطّويل][213] :

36ــ أُدَارَ عَلَى قَيْسٍ وَأَمْلاَكِهَا الرَّدَى فَلَمْ يَكُ عَنْهُمْ لِلْكَوَائِنِ مِنْ رَدّْ
37ــ وَتَا اللَّهِ مَا شَرْقُ الْبِلاَدِ وَغَرْبِهَا لِسُلْطَانِهِ إِلاَّ هَدَايَا لِمُسْتَهْدِ

ووجد ابن الأبّار في مواقف بعض خلفاء الموحّدين وسلوكهم مجالا للتّنديد بهم والتّنويه بممدوحه أبي زكريّا . فقد رفض المأمون الموحّدي ، بعد رجوعه إلى مرّاكش من الأندلس سنة 1228/626 ، مذهبَ ابن تومرت «وأشاع النّكير على المهدي في العصمة وفي وضع العقائد والنّداء للصّلوات باللّسان البربري وأسقط اسم الإمام في الخطبة والسكة وأعلن بلعنه»[214] واستغلّ أبو زكريّا هذا الانحراف عن الدّعوة

(211) د/ص 165
(212) د/ص 388
(213) د/ص 164
(214) العبر ط . دي سلان 1847 ص 386

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الموحّديّة فقطع الخطبة للمأمون سنة 1228/626 وأسندها لمنافسه يحيى بن النّاصر ثمّ أزال اسم النّاصر من الخطبة 627/ نهاية فيفري 1229 . وأصبحت الخطبة باسم المهدي والخلفاء الرّاشدين . وباتت الدّولة الحفصيّة تمثّل الاستمراريّة الشرّعيّة للدّولة الموحديّة ، بل هي التي أنقذت الدّعوة المهديّة من الانحراف وأقامت الحقّ بعد خمود . قال ابن الأبّار [**الرّمل**][215] :

20ـ إنَّمَـا دَوْلَـةُ يَحْيَـى رَحْمَـةٌ لِلْبَرَايَـا وَحَيَـاةٌ لِلْهُـدَى
23ـ نَشَرَ الدَّعْـوَةَ لَمَّـا هَمَـدَتْ وَأَقَـامَ الْحَـقَّ لَمَّـا قَعَـدَا

والمحافظة على دعوة المهدي من الزّيع والانحراف ، أو الاضمحلال والزّوال هو هدف سام دعا إليه جّد الحفصيّين وهو أبو حفص أحد أتباع المهدي العشرة . ولم يكتف بذلك بل وصّى به أبناءه من بعده ، لذلك لا يمكن لمدّع أن يّدّعي أنّ الحفصيّين اتخذوا من الدّفاع عن مذهب المهدي ذريعة للوصول إلى السلطة . فهذا المذهب هو جزء من عقيدتهم ورثوه أبا عن جدّ . قال ابن الأبّار [**الطّويل**][216] :

40ـ هِيَ الدَّعْوَةُ الْمَهْدِيَّةُ اسْتَخْلَصَتْ لَهَا نُهَى الْقَائِمِ الْهَادِي فَكَانَ لَهَا خِلْصَا
41ـ بِإِظْهَارِهَا وَصَّى أَبُو حَفْصٍ الرِّضَى بِنِيـهِ فَوَفَّـى دُونَهُـمْ مَابِـهِ وَصَّى

وهكذا ينفرد الحفصيّون بالشّرعيّة الموحديّة عوضا عن حكّام مرّاكش ، فدولتهم هي دولة مهديّة عقيدة ومذهبا ، عمريّة (نسبة إلى عمر بن الخطاب) نسبا وسلوكا . قال الشاعر [**الكامل**][217] :

35ـ وَإِيَالَـةً مَهْدِيَّـةً عُمَرِيَّـةً أُوْدَى بِدَعْوَتِهَـا الضَلاَلُ وَطَاحَـا

وبتمسّكها بالدّعوة المهديّة في الأرض سيأتيها السّند من السّماء قال [**البسيط**][218]:

17ـ بِمَظْهَـرِ الْعَالَـمِ الْعُلْـوِيِّ مُـتَّصِلٌ وَبِاتِّبَـاعِ هُـدَى الْمَهْـدِيِّ مُـتَّصِفُ

(215) د/ص 160
(216) د/ص 342
(217) د/ص 115
(218) د/ص 374

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكان المأمون الموحّدي عندما عزم على مغادرة الأندلس والرّجوع إلى مرّاكش استعان بفرقة مرتزقة من الجيش النّصراني رافقته في عبوره من العدوة الأندلسيّة إلى العدوة الإفريقيّة . واشترط عليه ملك قشتالة الذي أمّده بهذه الفرقة أن يسمح للنّصارى ببناء كنيسة لهم بعاصمته مرّاكش .

ووجد الشّاعر في هذه العلاقات مع النّصارى الفرصة للّتنديد بالمأمون المُوَحِّدي وبمن جاء بعده من الخلفاء ونهجوا نهجه . وهو يأمل أن تكون المرحلة الثّانية بعد استيلاء الممدوح على تلمسان ووصول بيعة فاس وسبتة أن تأتيه بيعة الزّوراء (بغداد) ، ولم يبق بعد ذلك إلاّ الدّخول إلى مرّاكش منتصرا ، ناشرا فيها العدل والأمن ، ومطهّرها من الكفر والرّجس . قال [**الطّويل**][219] :

7ـ إذَا المَغْـرِبُ الأَقْصَى رَمَـى بِقِيَـادِهِ ... إلَيْـهِ فَمَـاذَا يَصْنَـعُ الْـمَشْرِقُ الأَدْنَـى

8ـ كَأَنِّـيَ ـ بِالـزَّوْرَاء تَخْـطُبُ أُمَّـهُ ... وَقَـدْ بَثَّ فِـي مَـرَّاكِش الْعَـدْلَ وَالأَمْنَـا

9ـ وَزَخْـرَجَ بِالتَّوْحِيـدِ عَـنْ جَنَبَاتِهَـا ... عَصَائِبَ لِلتَّثْلِـيثِ جَـارُوا بِهَـا سُكْنَـى

10ـ كَـأَنْ لَـمْ تَكُـنْ لِلْمُؤْمِنِيـنَ مَغَانِيًـا ... فَهَـا هِـيَ لِلْكُفَّـارِ وَا أَسَفَـا مَغْنَـى

11ـ يَعِزُّ عَلَـى الـلُّسْنِ الْمَصَاقِـعِ أَنَّهَـا ... تُرَاطِـنُ فِـي أَفْدَانِهَـا عُجْمًـا لُكْنَـا

12ـ هُـمُ اتَّخَـذُوا فِيهَـا الْكَنَـائِسَ ضِلَّـةً ... وَهُـمْ جَعَلُـوا لِلَّـهِ فِيمَـا افْتَـرَوْهُ ابْنَـا

13ـ وَكَـمْ سَيِّدٍ مِنْهُـمْ يُطَـاعُ احْتِكَامُـهُ ... عَهِدْنَـاهُ عَبْـدًا لِلْعَبِيـدِ بِهَـا قِنَّـا

14ـ ضَمَـانٌ عَلَـى سَيْـفِ الإِمَـارَةِ بَرْيُهُـمْ ... وَإِبْـرَاءُ قَـوْمٍ بَيْـنَ أَظْهُرِهِـمْ ضَمْنَـا

15ـ وَأَمَّـا تِلِـمْسَانٌ وَفَـاسٌ وَسَبْتَـةٌ ... فَسَـلْكَ لِيُمْنَـاهُ أَعِنَّتَهَـا تُثْنَـى

وواصل الشّاعر التّأكيد على هذه النّقطة في قصائده المدحيّة ، بعد أن تولّى الخلافة السّعيد الموحّدي . وهو يرى أن هذا الخليفة بعيد كلّ البعد عن الإيمان باللّه سواء أكان ذلك حسب العقيدة النّصرانيّة أو العقيدة الإسلاميّة . قال ابن الأبّار يهجو السّعيد ملقّبا إيّاه بالغراب لأنّه كان أسود اللّون [**البسيط**][220] :

5ـ مُسْتَبْصِرًا فِي عَمًى أُبْلَى الأَذَانَ أَذًى ... مِمَّـا اسْتَجَـدَّ نَوَاقِـيسًا وَصُلْبَانَـا

8ـ لَـمْ يَثْـنِ غَيًّـا إِلَـى رُشْدٍ أَعِنَّتَـهُ ... لاَ بَـلْ تَعَلَّـقَ أَصْنَامًـا وَأَوْثَانَـا

(219) د/ص 296

(220) د/ص 6 ـ 305

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

9ـ أذالَ مِنْ عُلَمَاءِ الوَحْيِ يُجْزِئُهُمْ بحُبْرةٍ[221] الشِّرْكُ أحْبَارًا ورُهْبانَا
10ـ إذَا هُمُ هَيَّئُوا[222] أصْغَى لَهُمْ طَرَبًا بِخَالِ ذَلِكَ أوْتَارًا وألْحَانَا
11ـ وَالْحَالُ شَاهِدَةٌ أنْ لَيْسَ مُعْتَقِدًا حُكْمَ الكتابيْنِ إنْجِيلاً وقُرْآنَا
21ـ بُعْدًا لَهُ مِنْ غُرَابٍ قَائِدٍ رَخَمًا[223] مِلْءِ المَلا تَعِسَ الدَّيَّانُ غُدْوَانَا

والسّعيد عند ابن الأبّار بقسوته وسوء معاملته لرعيّته قد قبح خلقًا وخُلقًا كما قبح سلوكا وسياسة عندما واصل الاستعانة بالنّصارى ، قال الشّاعر [**البسيط**][224]:

15ـ أفاضَ رَحْمَتَهُ[225] فَالفَضُّ مَعْشَرُهَا[226] إلَيْهِ مِنْ حَوْلِ فَظِّ القَلْبِ[227] قَاسِيهِ
19ـ بالرُّومِ رَامَ انْتِصَارًا فِي مَذَاهِبِهِ أليْسَ قَدْ رَآهُ مِنْ تعاميهِ

ويربط الشّاعر ثانية وهو يمدح أبا زكريا بين سواد لون السّعيد وسوء سياسته بتعاونه مع الحامية القشتالية، ويقارن بينه وبين كبار المرتدّين بعد انتقال الرّسول إلى الرّفيق الأعلى . قال [**الطّويل**][228]:

14ـ وَإنَّ عَدُوَّ الدِّينِ مَنْ ظَاهَرَ الْعِدَى لِيَخْذُلَهُ فَاسْتَنْصَرَ الشِّرْكَ واسْتَقْصَى
15ـ بِعُبَّادِ عِيسَى هَاضَ أُمَّةَ أحْمَدٍ لأشْيَاعِهَا بَخْسًا وَأعْيُنِهَا بَخْصَا
17ـ دَرَى الأسْوَدُ القَيْسِيُّ[229] أنَّ أمَامَهُ رَدَى الأسْوَدِ العَنْسِيِّ[230] مُشْبِهِهِ خَرْصَا

---

(221) الحبرة : ملاءة الرّهبان .

(222) الإشارة إلى ترانيم الرّهبان .

(223) الرخم ج رخمة : طائر على شكل النّسر خِلْقةً مبقّع بسواد وبياض معروف بالغدر والحمق .

(224) د/ص 412

(225) الضمير يعود على أبي زكريا .

(226) الضمير يعود على الخلافة .

(227) فظّ القلب : السّعيد .

(228) د/ص 339

(229) الأسود القيسي : السّعيد .

(230) الأسود العنسيّ : من زعماء المرتدّين بعد وفاة النّبيء .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والسّعيد بجيشه الوفير وحلفائه النّصارى سوف لن يكون مصيره إلاّ كمصير غيره من الخائنين المغرورين . والحفصيّون تعوّدوا مواجهة الكثرة بالقلّة وانتصروا ، شأنهم في ذلك شأن المسلمين الأوائل . قال ابن الأبّار [البسيط][231] :

41ـ أَغْيَا الْمُنَاصِبَ تَقْوِيمٌ يُقَرِّبُهُ ... مِنْ فَوْزِهِ فَاغْتَدَى يَنْأَى وَيَنْآدُ

42ـ وَالرُّومُ نَازَعَ أَمْرَ اللّهِ يَا عَجَبًا! ... مَتَى تَسَوَازَنَ إِغْوَاءٌ وَإِرْشَادُ ؟

43ـ هَيْهَاتَ يَخْلُصُ وَالأَقْدَارُ قَدْ وَضَعَتْ ... مِنْهَا لَهَا رُقُبٌ كُثْرٌ وَأَرْصَادُ

44ـ كَمْ عَائِدٍ مِثْلِهِ لَمْ يَحْمِهِ وَزَرٌ ... كَانَتْ لَهُ عُدَدٌ حَانَتْ وَأَعْدَادُ

45ـ لاَ تُعْجِبِ الْخَائِنَ الْمَغْرُورَ كَثْرَتُهُ ... فَطَالَمَا هَزَمَ الآلاَفَ آحَادُ

46ـ أَبْنَاءُ صِيَابَةِ حَفْصِيَّةٍ كَرُمُوا ... أُرُومَةً وَبَنُو الأَمْجَادِ أَمْجَادُ

إنّ ابن الأبّار في حديثه عن الموحّدين بصفة عامة والسّعيد بصفة خاصّة ، إنّما يعبّر عن وجهة نظر أبي زكريا فيه . فالسّعيد مثّل ، بشخصيّته القويّة ومحاولة استرجاع هيبة الخلافة ، آخر محاولة للنّهوض بالدّولة الموحّديّة من كبوتها ، وبالتّالي حسم أكبر خطر على الدّولة الحفصيّة . لهذا لمّا قتل وهو يحاصر يغمراسن أمير تلمسان في قلعة تامزجدرت آخر صفر 1248/646 نزل الخبر بمقتله على نفوس الحفصيّين بلسما شافيا ، ووجد ابن الأبّار المجال فسيحا للتشفّي من خليفة كثيرا ما هجاه وسخر منه . قال متحدّثا عن حملة السّعيد على تلمسان وما آل به الأمر على أبواب القلعة الحصينة [البسيط][232] :

27ـ حَتَّى إِذَا الْعَطَبُ اسْتَحْيَى سَلاَمَتَهُ ... أَفْنَاءَهُ يَبْتَغِي بَغْيًا تِلِمْسَانَا

28ـ وَكَانَ مِنْ قِبَلِهِ (هِيَ التُّرَاثُ لَهُ) ... مَا بَالُهُ جَهِلَ التَّصْحِيفَ لاَ كَانَا[233]

29ـ ظَمْآنُ رَاحَ لأُنْسِ الشَّرْقِ مُلْتَهِمًا ... لَكِنْ غَدَا بِنَجِيعِ الْجَوْفِ رَيَّانَا

31ـ بِوَمْجَدَةَ أَظْهَرَ الْوَحْدُ الْحِمَامَ عَلَى ... حَيَاتِهِ فَنَضَاهَا عَنْهُ غَضْبَانَا

32ـ وَاسْتَقْبَلَ الْقَلْعَةَ الشَّمَّاءَ فَاقْتَلَعَتْ ... رُوحًا لَهُ . خَبُثَتْ رُوحًا وَجُثْمَانَا

---

(231) د/ص 141 .

(232) د/ص 307

(233) عبارة (هي التراث له) إذا صحّفت أصبحت : هي القبر له أي القبر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأشار الشّاعر إلى الكمين الذي نصبه الزّناتيون أتباع يغمراسن للسّعيد ، فكان من نتيجته أن سقط الخليفة من فوق فرسه وأُجْهِز عليه مع وزيره ابن عطوش ، وانتهبت محلّته وتفرّق عسكره . قال ابن الأبّار [البسيط][234] :

34ــ حَتَّى الْجَوَادُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْصِمُهُ أُرْدَاهُ يَقْصِمُهُ بُعْضًا وإِهْوَانَا
40ــ وَالْفَلُّ مِنْ بَيْتِهِ أُوْدَى الْبَيَاتُ بِهِمْ عَلَى يَدَيْ أُيُدٍ كَالْغَضْبِ يَقْظَانَا

وسقط بعض حرم السّعيد في الأسر كأخته تاغروش[235] . قال الشّاعر [البسيط][236] :

56ــ هَذِي بَنَاتُ أَبِيهِ فِي ظَعَائِنِهِ يُبْدِينَ لِلسَّبْيِ إِجْهَاشًا وَإِذْعَانَا

وافتكّ منه الزّناتيّون مصحف عثمان ، وهو المصحف الذي كان الخلفاء الموحدون يضعونه في مقدّمة موكبهم . وتذكر بعض المصادر[237] أنّ الزّناتيين ، وقد أصبحوا حلفاء لأبي زكريّا ، سلّموه إليه باعتباره أولى به من الخليفة الموحدي . قال ابن الأبّار [البسيط][238] :

58ــ إِنَّ الإِمَامَ ابْنَ فَارُوقِ الْهُدَى عُمَرٍ أَوْلَى بِمُصْحَفِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَا[239]

وهكذا استطاع أبو زكريا بأحلافه من بني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى ، أن يحدّ من غلواء الموحّدين في مرحلة أولى وأن يقضي على آخر أمل لهم في استرجاع مجدهم . وفي نظر الشّاعر انتصار هؤلاء على الموحّدين

---

(234) د/ص 8 ــ 307 .

(235) د/ص 309.

(236) د/ص 309

(237) د/ص 309.

(238) د/ص 309 .

(239) ذكر المقّري في النّفح : 605/1 أنّ هذا المصحف كان موجودا في مقدّمة موكب الخليفة الموحّدي الواثق سنة 1267/666 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هو نصر من الله تأتي بطاعة أبي زكريا يحيى الحفصي [البسيط][240] :

45ـ تُجِرُّ[241] بِابْنِ عَبْدِ الْحَقِّ[242] وَاصْطَلَمُوا ... وَقَتْلُهَا مَا اسْتَبَاحُوا بِابْنِ زَيَّانَا[243]
46ـ أَعَاجِمٌ أَلْسُنًا لَكِنْ مَنَاسِبُهُمْ ... تُنْمَى إِلَى الْعَرَبِ الْعَرْبَاءِ قَحْطَانَا
47ـ مُتُونُ خَيْلِهِمُ أَوْطَانُهُمْ وَكَفَى ... عِزًّا بِنَاوِي مُتُونِ الْخَيْلِ أَوْطَانَا
48ـ نَادَوْا بِطَاعَةِ يَحْيَى فَاسْتَجَابَ لَهُمْ ... نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلاَنَا

وبدأت الوفود تتهافت على عاصمة الحفصيّين تدعو العاهل الحفصي لاستكمال المرحلة الأخيرة من فُتوحاته ، وهي الاستيلاء على عاصمة الموحّدين مرّاكش والقضاء على دولتهم قضاء مبرما . قال ابن الأبّار [الطويل][244] .

1ـ هَنِيئًا لِوَفْدِ الْغَرْبِ مِنْ صَفْوَةِ الْغُرْبِ ... قُدُومٌ عَلَى الرُّغْبِ الْمُجِيرِ مِنَ الرُّغْبِ
3ـ أَلَمْ تَرَهُمْ أَفْضَوْا إِلَى فَائِضِ النَّدَى ... فَلَقَّاهُمُ بِالنَّائِلِ الرَّحْبِ وَالرُّحْبِ
4ـ وَقَلَّدَهُمْ لَمَّا كَسَاهُمْ فَلاَ تَرَى ... سِوَى الْعَضْبِ جَلاَّهُ النُّضَارُ عَلَى الْعَضْبِ

10 ـ الدّولة الحفصيّة :

لقد وصل ابن الأبّار إلى إفريقيّة في بداية عهد الدولة الحفصيّة . ولا شكّ أن هذه الدّولة في هذه الفترة أي في الرّبع الثّاني من القرن 13/7 في حاجة أكيدة إلى من يشدّ أزرها سواء أكان ذلك بالسّيف أم بالقلم . وسوف لن تجد خيرا من شاعر قدير كابن الأبّار لينافح عن مبادئها ويمجّد أمراءها وينوّه بشأنها ويحقّر من أعدائها لتثبيت أسسها وتدعيم أركانها . ولهذا السّبب فسح الأمير أبو زكريا لشاعر بلنسيّة المجال للمجيء والاستقرار بتونس حاضرة الدّولة بعد ضياع وطنه ومسقط رأسه بالأندلس .

ونظرا إلى الظروف التي كانت تمرّ بها العدوة الإفريقيّة بعد انهيار صرح الأمبراطورية الموحّديّة كانت الدّعوة الحفصيّة في حاجة ماسّة إلى تبرير شرعيّتها في وراثة الدّولة

(240) د/ص 308

(241) أي الموحّدون .

(242) ابن عبد الحقّ : بنو مرين .

(243) بنو زيّان : بنو عبد الواد .

(244) د/ص 83 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الموحّدية . وقد فهم ابن الأبار ما تحتاجه هذه الدّولة الفتيّة من تبرير ، فرأى أنّ بني حفص هم أحقّ بوراثة دعوة المهدي بن تومرت ودولة عبد المؤمن . فهذه العائلة لها مجد طريف وتليد ، فهي تنتمي في نسبها إلى عمر بن الخطّاب ونعم النّسب والأصل ، قال الشّاعر [**الكامل**] (245) :

18 ــ هِــيَ دَوْلَــةٌ عُمَرِيَّــةٌ سِيَــرًا خَضَعَتْ لِعِــزَّةِ أَمْرِهَــا الــدُّوَلُ

وهي لم ترث النّسب والأصل من عمر بن الخطّاب بل ورثت أيضا أشهر خصلة عرف بها الخليفة الثّاني وهي الاستقامة والعدل وتطبيق أحكام الشّريعة السّمحاء . قال ابن الأبّار [**الطويل**] (246) :

33ــ هَنيئًــا لأَمْــرِ اللهِ أَنْ شُدَّ أَزْرُهُ بِآلِ أَبِي حَــفْصٍ أُلِــي النَّهْــيِ وَالأَمْــرِ
38ــ وَمَــا هِــيَ إِلاَّ دَوْلَــةٌ عُمَرِيَّــةٌ يَدُومُ بِهَــا الإِقْبَــالُ مُنْــفَسِحَ الْعُمْــرِ

وهذا المجد الأثيل لم ينقطع بل استمرّ إلى أن تجسّم في شخص جدّ الحفصيّين وهو أبو حفص عمر أحد أصحاب المهدي بن تومرت الذين قامت الدّولة الموحّدية على أكتافهم . وهكذا جمعت هذه العائلة بين نقاوة الدّم العربي قديما ، وخلاصة مآثرهم حديثا. قال ابن الأبار(247) [**المتدارك**](248) :

68ــ لاَ ضَيْــرَ بِهِــمْ وَنَــمَضُرُهُ يُنْمَــى صُعُــدًا وَتَمَعْــدُدُهُ (249)
70ــ عَــدَوِيُّ (250) الْبَــيْتِ مُطَنَّبُــهُ فَــوْقَ الأَمْــلاَكِ مُمَــدَّدُهُ
71ــ وَرِثَ الْعُمَرَيْــنِ (251) سَنَاءَهُمَــا يَعْتَــدُّ بِــهِ وَيُعَــدِّدُهُ
72 ــ عَــنْ عَبْــدِ الْوَاحِــدِ أَحْــرَزَهُ فَــذُّ التَّوْحِيــدِ وَأَوْحَــدُهُ

---

(245) د/ص 241 .

(246) د/ص 192 .

(247) مطلع القصيدة ص 154 من الدّيوان :
1 ــ مَرْقُــومُ الْخَــدِّ مُــوَرَّدُهُ يَكْسُونِــي السُّقْــمَ مُحَــرَّدُهُ

(248) د/ص 158 .

(249) أي ينتسب الممدوح وهو أبو زكريّا إلى مُضر ومَعَدّ .

(250) نسبةٌ إلى غدتي جدّ عمر بن الخطاب (انظر كذلك : الدّيوان ص 160 بيت 25).

(251) العُمَرين : عمر بن الخطاب وأبو حفص عمر الهنتاتي .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهذه الخصال ورثها الوالد عن الجدّ وأورثها الابن. قال الشاعر [**المتدارك**] (252) :

4 ــ عَــنْ عَبْــدِ الْوَاحِــدِ أَحْرَزَهَــا يَحْيَــى لِلنَّجْــلِ ابْــنِ وَأَبُ
5 ــ فِــي جُمْجُمَــةٍ عُلْيَــا وَرَحَــى عُمَــرُ الْفَــارُوقُ لَهَــا قُطُبُ

ومن النّاحية المذهبيّة العقائديّة تمسّكت هذه العائلة بدعوة المهدي بن تومرت ولم تتنكّر لها كما فعل المأمون الموحّدي . قال الشاعر [**الكامل**] (253) :

35 ــ وَإِيَالَــةٌ مَهْدِيَّــةٌ عُمَرِيَّــةٌ أَوْدَى بِدَعْوَتِهَــا الضَّلاَلُ وَطَاحَــا

وبهذه الخصال وبهذا النّسب الرّفيع شادت هذه العائلة ملكا يفوق ما شادته عائلات أخرى، لها في التّاريخ ذكر وصيت ، وتمكّنت من تطهير البلاد من أصحاب الفتن والشّغب . قال الشاعر [**الكامل**] (254) :

32 ــ أَبَنِي أَبِي حَــفْصٍ ذَهَبْتُــمْ بِالْعُلَــى وَأَفَــدْتِ الدُّنْيَــا بِكُــمْ إِفْــذَاذَا
33 ــ وَتَعَــاصَمَتْ عِيدَانُكُــمْ أَنْ تُعْتَــزَى فِــي آلِ بَــرْمَكٍ أَوْ بَنِــي يَــزْدَاذَا
34 ــ شِدْتُــمْ بِإِفْرِيقِيَّــةٍ مُلْكًــا عَفَــا لَمْ يَــا اصْطَفَتْكُــمْ مَلْجَــأً وَمَعَــاذَا
35 ــ وَطَرَدْتُــمْ عَــنْ جَانِبَيْهَــا كُــلَّ ذِي دَعْــوَى تَهَــادَى بَيْنَهَــا وَتَهَــاذَى (255)

وهكذا صفا الجوّ لدولتهم وساد الأمن والرّخاء وتطلعت النّفوس لتحقيق ما تطمح إليه وترجو بل وتتمنّى . قال ابن الأبّار [**الرّمل**] (256) :

25 ــ إِنَّمَــا آلُ أَبِــي حَــفْصٍ هُــدًى يَــكْشِفُ الْغَــيَّ وَيَجْلُــو السَّرَرَا
26 ــ قَــدْ أَفَــاءَ بِهِــمُ ظِــلَّ الْمُنَــى وَصَفَــا مِــنْ شَرْبِهَــا مَــا كَــدَرَا
27 ــ تَخِــذَ النَّــاسُ عُلاَهُــمْ سُنَنًــا وَتَــلاَ الدَّهْــرُ حُلاَهُــمْ سُوَرَا

---

(252) د/ص 92 .
(253) د/ص 115 .
(254) د/ص 183ــ184 .
(255) المقصود ابن غانية .
(256) د/ص 186 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

واتّخذت هذه الدّولة شِعَارا لها الرّاية الحمراء رمزا لدماء أعدائها ومناوئيها . قال الشاعر [**الطويل**] (257) :

45 ــ بِرَايَتِـهِ الْحَمْـرَاءِ يَصْطَلِـمُ الْعِـدَى لِمِلَّتِـهِ الْبَـيْضَاءِ غَضْبَـانَ مُقْـتَصًا

11 ــ العائلة الحفصيّة :

لا نجد في ديوان ابن الأبّار ذكرا ــ من الأسرة الحفصيّة الكبرى ــ إلّا لعائلة أبي زكرياء يحيى الأوّل مؤسّس الدّولة الحفصيّة ، فقد تردّد ذكر هذا الأمير وذكر ابنيه أبي يحيى زكريا وأبي عبد الله محمد .

المولى أبو زكرياء الحفصي

أ ــ ألقابـه :

عندما تمكّن أبو زكرياء من القضاء على ثورة ابن غانية واستقلّ بإفريقيّة متحدّيا بذلك السّلطة الموحّديّة بمراكش ، رأى ألّا يحيط نفسه بمظاهر الأبّهة والعظمة . وهذا دليل على حصافة رأيه وبعد نظره فاكتفى باسم (أمير) ورفض أن يخاطب بأمير المؤمنين (258) في سنة 634/7ــ1236 . وفي ديوان ابن الأبّار نجد كلمة (خليفة) تتردّد بكثرة نعتا لأبي زكريّا من ذلك قول الشّاعر [**الكامل**] (259) :

31ــ وَخَلِيفَـةٌ فِـي الأَرْضِ لَكِـنْ بَيْتُـهُ فَوْقَ السَّمَاءِ ، يُمَـتُّ فِـي تَضْبِيبِـهِ

كما نجد لقب (المرتضى) كما جاء في قول الشّاعر [**الكامل**] (260) :

24ــ قَسَمًا بِيَحْيَى الْمُرْتَضَى لَقَدِ انْتَضَى مِنْ بَأْسِهِ مِثْـلَ الصُّفَـاحِ صِفَاحَـا

(257) د/ص 342 .

(258) الادلّة البيّنة ، ص 48 .

(259) د/ص 79 .

(260) د/ص 117 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كما يدعوه بأمير المؤمنين بعد فتح تلمسان ، وتهاطل بيعة مدن العدوتين الإفريقيّة والأندلسيّة عليه . قال [السّريع] (261) :

2ـ أنتَ أميـــرُ المُؤمنيـــنَ الّـــذي دَوْلَتُـــهُ يُمْـــنٌ عَلَـــى المُؤمنيـــنَ

كما نجد ابن الأبّار يسمّي أبا زكرياء (ملك المغرب) تفاؤلا وتبشيرا بامتلاكه لكامل أرض المغرب . قال ابن الأبّار بمناسبة حفلة سبرك شاهدها في ملعب تونس في أواخر شعبان سنة 1238/636 بعد أن وصف الحيوانات المفترسة [المتقارب] (262) :

34ـ غَـرَائِبُ شَتَّـى بَهَـرْنَ الْعُقُـولَ جُمِعْـنَ لَـدَى مَـلِكِ الْمَغْـرِبِ
36ـ إمَـامُ هُـدًى نُـورُهُ ثَـاقِبٌ وَزُهْـرُ الْكَـوَاكِبِ لَـمْ تُثْـقَبِ
37ـ عَلَـى مَـذْهَبِ لِلإمَـامِ الـرِّضَى ثَقِيْلَـــــهُ ، وَعَلَـــــى مَشْعَبِ
38ـ يُهِـيبُ لِدَعْوَتِـهِ بِالأنَـامِ فَيُـرْضِي الإلَـهَ وَيُـرْضِي النَّبِـي

ب ـ عائلتـه :

ـ أبوه وجدّه :

لئن كان الفضل في قيام الدّولة الحفصيّة يرجع بالدّرجة الأولى إلى الأمير أبي زكرياء ، فقد مهّد له الأرضية الصّالحة لذلك أبوه أبو محمد عبد الواحد ، وجدّه أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب المهدي . ولهذا نجد ابن الأبّار كثيرا ما نوّه بشأنهما أثناء تمجيده بصفة عامّة للعائلة الحفصيّة ، وبصفة خاصّة عند مدحه لأبي زكرياء . قال ابن الأبّار يذكر ثلاثتهم [البسيط] (263) :

21ـ وَإنَّ يَحْيَى بْنَ عَبْـدِ الْوَاحِـدِ بْـنِ أبِي حَـفْصٍ لأنْـوَرُ مِـنْ شَمْـسِ الضُّحَـى نَسَـبَا
22ـ ثَلاثَـةٌ هُـمْ نُجُـومُ الأرْضِ قَـدْ عَشَـرُوا وَعَاشَـرُوا فِـي السَّمَـاءِ السَّبْعَـةَ الشُّهُبَـا

(261) د/ص 300 .
(262) د/ص 101 .
(263) د/ص 74 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويرى ابن الأبّار أنّ السّلطة التي ورثها أبو زكريّاء عن أبيه هي حقّ من حقوقه وله أن يورثها أبناءه بعده حقّا شرعيّا لا مُرَاءَ فِيه . قال [**المتدارك**] (264) :

4ــ عَــنْ عَبْــدِ الْوَاحِــدِ أَحْرَزَهَــا يَحْيَــى لِلنَّجْــلِ ، ابْــنٌ وَأَبُ
5ــ فِـي جُمْجُمَـةٍ (265) عُلْيَـا وَرَحْـى عُمَـرُ الْفَـارُوقُ لَهَـا قُـطُبُ

ــ أبنـاؤه :

وأبناء المولى أبي زكرياء جديرون بهذا الإرث وهذا التتويج فهم كالنّجوم مع البدر ، نورًا ورفعة . قال الشاعر [**البسيط**] (266) :

66ــ يَلْقَـاحُ بَـدْرًا أَبُـو يَحْيَـى الأَمِيرُ وَهُـمْ إِزَاءَهُ كَالنُّجُـومِ الزُّهْـرِ أَمْثَـالُ
67ــ قَـدْ رُتِّبُـوا فِـي نِظَـامِ الْمُـلْكِ أَرْبَعَـةً كَمَـا يُـرَتَّبُ نَظْـمَ الْعِقْـدِ لآلُ

ولا يكتفي ابن الأبّار بالتّعميم بل نراه يذكرهم بأسمائهم واحدا واحدا . قال [**الطويل**] (267) :

66ــ وَأَطْلَـعَ مِـنْ أَبْنَائِـهِ زُهْـرَ أَنْجُـمٍ يُنَـافِسُ فِـي أَنْوَارِهَـا الْمَغْـرِبُ الشَّرْقَـا
67ــ تَـلاَ زَكَرِيَّـاءَ الأَمِيـرُ مُحَمَّـدٌ وَبَـرَّزَ إِبْرَاهِيـمُ بَعْدَهُمَـا سَبْقَـا
68ــ وَجَـاءَ أَبُـو بَكْـرٍ أَخِيـرًا بِـأَوَّلٍ مِنَ الْفَضْلِ يَسْتَوْلِي عَلَى شَأْوِهِمْ لَحْقَا

ولا يترك الشاعر فرصة تمرّ دون تهنئة الأمير بوليده الخامس عثمان الذي ترامن مولده مع عيد الأضحى . قال [**مخلّع البسيط**] (268) :

38ــ للهِ مَـنْ نَجْلُـهُ الْمُفَـدَّى نَجْـمٌ يَزِيـنُ الزَّمَـانَ حُسْنَـا
40ــ سَمَّـاهُ عُثْمَـانَ إِذْ نَمَـاهُ يَسْلُبُ نَـعْتَ السَّمَـاحِ مَعْنَـى

---

(264) د/ص 92 .

(265) الجمجمة : رؤساء القوم وساداتهم .

(266) د/ص 248 .

(267) د/ص 385 .

(268) د/ص 4ــ303 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

42ـ جَـادَ بِـهِ حَـامِسُ الـذَّرَارِي دَهْـرٌ لَـوَى بُرْهَـةً وَضَنَّـا
44ـ مَـوْلاَيَ هُنِّئْتَ عِيدَ أَضْحَـى أَضْحَـى بِمِيـلاَدِهِ يُهَنَّـا

ج ـ حياته الخاصّة :

إنّ ما تورده كتب التّاريخ من تقشّف أبي زكرياء في مأكله وملبسه ومركوبه يمكن أن يكون من المبالغات التي وجب ترويجها في تلك الفترة لتدعيم أركان الدّولة الجديدة ، حتّى أنها كادت أن تجعل من أبي زكرياء صورة طبق الأصل لجدّه ـ كما زعموا ـ عمر بن الخطّاب . والشّعر قد يفتح لنا بعض الأبواب الموصدة فترى صاحب السّلطة على حقيقته . فابن الأبّار قد عاش مدّة ـ طالت أو قصرت ـ في رحاب بلاط أبي زكرياء فوصف في ديوانه بعض مجالس الأنس التي كانت تقام في منتزهات الحفصيّين بأبي فهر في ضواحي عاصمتهم . وكان الأمير يستدعي من رجال دولته من يراه جديرا بهذه الجلسات الخاصّة . قال ابن الأبّار في مجلس أنس بأبي فهر عقدت فيه مأدبة في عهد أبي زكرياء [**مجزوء الوافر**] (269) :

51ـ وَيَـوْمٍ فِـي (أَبِـي فِهْـرٍ) يُـوَرِّخُ فَخْـرَهُ الأَبَـدُ
52ـ تُغَـذِّي الـرَّوْحَ وَالرَّيْحَـا نَ مِنْـهُ الـرُّوحُ وَالْـجَسَدُ
53ـ أَفَانِيـنٌ مِـنَ النُّعْمَـى إِذَا مَـا أُصْدِرَتْ تَـرِدُ
54ـ وَجَنَّـاتٌ مُزَخْرَفَـةٌ يَشُوقُ حَمَامُهَـا الْغَـرِدُ

ومن هذه الجزئيات التي يهتمّ بها شعراء البلاط مرض الأمير وشفاؤه . فابن الأبّار يذكر مرض أبي زكرياء وشفاؤه في ثلاث قصائد مدحيّة : نرجّح أنّه قال الأولى منها وهو في تونس في فترة كانت علاقته بالأمير علاقة عادية . وقد اغتنم مناسبة شفاء الأمير ويوم عيد أضحى ليهنئه بالمناسبتين . قال [**الكامل**] (270) :

38 ـ إِنْ كَـانَتِ الأَيَّـامُ بُهْمًـا قَبْلَـهُ فَـلَشَدَّ مَـا كُسِيَتْ بِـهِ إِفْصَاحَـا
39 ـ أَوْ لُحْـنَ مَرْضَى لاَ شِفَـاءَ لِسُقْمِهَـا فَـالآنَ لَمَّـا صَحَّ رُحْـنَ صِحَاحَـا
40 ـ لله أَضْحَـى زَانَـهُ بِبَهَائِـهِ كَـالشَّمْسِ زَانَ شُعَاعُهَـا الإِصْبَاحَـا

(269) د/ص 146 .
(270) د ص 118 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أمّا الثّانية والثّالثة فيبدو أنّه قالهما في آخر عهد أبي زكرياء وهو مغضوب عليه ببجاية . فقد ذكر في الأولى الأمير محمدا وناداه بولّي العهد [271] ، فقال [الكامل] [272] :

12 ــ بِشِفَـــائِكَ الْمَيْمُـــونُ مَطْلَعُـــهُ نَـكَصَتْ عَلَـــى أَعْقَابِهَـــا الْعِلَـــلُ

وطلب العفو في الثانية مشيرا إلى بعده عن الممدوح [273] . فقال منوّها بشفاء أبي زكرياء [الوافر] [274] :

1 ــ نُفُـــوسُ الْعَالَمِيـــنَ لَكَ الْفِـــدَاءُ فَكَيْـــفَ أَلَـــمَّ يُؤْلِـــمُكَ اشْتِكَـــاءُ
8 ــ فَـــإِنْ عُوفِـــيتَ عُوفِـــيَتِ الْبَرَايَـــا وَقَـــدْ نَاجَـــى مَعَالِمَهَـــا الْعَفَـــاءُ
11 ــ نَصَا عَـنْكَ الضَّنَـــى بُـــرْءٌ سَعِيـــدٌ كَمَـا رَوَّتْ صَدَى الأَرْضِ السَّمَـــاءُ

د ــ وفاتــه :

ويبدو أنّ هذا المرض الأخير كان سببه الحزن الشّديد الذي ألمّ بأبي زكرياء بعد وفاة ولّي عهده وابنه أبي يحيى . ولم يلبث الخليفة أن توفّي ببونة [275] بعد أن ظنّ النّاس أنّه شفي من مرضه أو كاد . فقال ابن الأبّار [الكامل] [276] :

18 ــ فِي بُونَـةٍ بَـانَتْ حَيَـاةُ الْمُرْتَضَى يَحْيَـى وَقِيـدَ إِلَـى الثَّـرَى بِزِمَـامِ
19 ــ وَهُنَـاكَ خُـطَّ ضَرِيحُـهُ سَقْيًـا لَـهُ هَـلاً [277] بِأَفْيِـدَةٍ عَلَيْـهِ حِيَـامُ

(271) تولّى العهد بعد وفاة أخيه أبي يحيى في سنة 7ــ1248/646 (أنظر أيضا د/ص 242 بيت 39 و40).

(272) د/ص 241 .

(273) د/ص 51 بيت 18 .

(274) د/ص 50 .

(275) حسب الأدلّة البيّنة ص 51 توفّي ليلة الجمعة 29 جمادى II 9/647 أكتوبر 1249، في د/ص 262 : 22 جمادى II 1249/647 .

(276) د/ص 263 .

(277) هلّ المطر هلاّ : أمطر بشدّة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أبو يحيى زكريّاء بن أبي زكرياء يحيى الحفصي

أبو يحيى زكريّاء هذا هو الابن الأكبر لمؤسس الدّولة الحفصيّة أبي زكريّاء يحيى الحفصي . وقد اختاره والده لحكم مدينة بجاية ــ أو النّاصريّة [278] كما يحلو لابن الأبّار تسميتها ــ في سنة 1237/633 بعد رجوعه من حملته الأولى الموفّقة على المغرب الأوسط . ولا نجد صدى لهذا الحدث الكبير في حياة هذا الأمير في شعر ابن الأبّار ، لسبب بسيط هو أنّ الشّاعر في هذه السّنة مازال في وطنه ومسقط رأسه بلنسيّة .

وعلى عكس ذلك نجد في ديوان ابن الأبّار اهتماما بهذا الأمير في ثلاث مناسبات :

ــ **الأولى** : بمناسبة تعيينه وليّا للعهد يوم الخميس 2 رجب 1240/638. وقد نوّه الشّاعر بهذا الحدث خمس مرّات في القصائد رقم 58 ص 133 ورقم 84 ص 181 ورقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 5 من الملحق ص 440 .

إنّ كفاءة الأمير وقدرته وحسن سلوكه وجليل أعماله هو الّذي جعل أباه يعيّنه لولاية العهد . قال ابن الأبّار [**الطويل**] [279] :

30 ــ أَمِيـرًا حَبَـا مِنْـهُ أَمِيـرًا بِمُلْكِـهِ فَـأَدْرَكَ ثَـأْرَ الدِّيـنِ فِـي الْبَغْـيِ وَالْكُفْـرِ
31 ــ وَقَلَّـدَهُ الْعَهْـدَ الإِمَامِـيَّ رَاضِيًـا بِسِيرَتِـهِ الْحُسْنَـى وَآثَارِهِ الْغُـرِّ

والدّولة في حاجة إلى مثل هذه الكفاءة لردع من يناوئها من الأعداء . قال الشاعر [**الكامل**] [280] :

29ــ أَمْضَى وَأَنْفَـذَ مِـنْ وِلاَيَـةِ عَهْـدِهِ مَـــا شَرَّفَ الإِمْضَاءَ وَالإِنْفَـــاذَا
30 ــ وَنَضَا لِـنَصْرِ الْحَـقِّ مِنْـهُ مُهَنَّـدًا يَسْقِي الْعِدَى صِرْفَ الرَّدَى هَـذَّاذَا

---

(278) نسبة إلى مؤسسها النّاصر بن حمّاد الصّنهاجي .

(279) د/ص 192 .

(280) د/ص 183 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهي بيعة إجماع لم يتخلّف عنها أحد لما يَتَمَتّع به الأمير أبو يحيى من خصال . قال ابن الأبّار [الرجز] (281) :

6 ــ وَلاَ لَهَا فِي الأَرْضِ مِنْ مُعَانِدِ بَيْعَةُ رِضْوَانٍ وَهَذِي خَالِدِ
7 ــ مَا بَيْنَ مَعْهُودٍ لَهُ وَعَاهِدِ مِيثَاقُهَا حَلُّ عُرَى الْمَكَائِدِ
8 ــ وَعَقْدُهَا جَلُّ عَنِ الْعَقَائِدِ كَانَتْ لَهَا السُّعُودُ بِالْمَرَاصِدِ
20 ــ إِنَّ الْعُلَى مَجْمُوعَةٌ فِي وَاحِدِ مِنْ زَكَرِيَّاءَ الأَمِيرِ الْمَاجِدِ

وهي كذلك بيعة رضوان وبركة على المسلمين فلا غرْو أن يشيد بها الشادي وينوّه بها المنوّه . قال الشاعر [الطويل] (282) :

1 ــ أَشَادَ بِهَا الدَّاعِي الْمُهِيبُ إِلَى الرُّشْدِ فَهَبْ لَهَا أَهْلُ السَّعَادَةِ بِالْخُلْدِ
2 ــ وِلاَيَةُ عَهْدٍ أَنْجَزَ الْحَقُّ وَعْدَهُ بِتَقْلِيدِهَا مِنْ أَهْلِهِ الصَّادِقَ الْوَعْدِ
3 ــ وَبَيْعَةُ رِضْوَانٍ تَبَلَّجَ صُبْحُهَا عَنِ الْقَمَرِ الْوَضَّاحِ فِي أُفُقِ الْمَجْدِ
12 ــ عَلَى زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى التَّقَى الرِّضَى كَمَا الْتَقَتِ الأَنْدَاءُ صُبْحًا عَلَى وَرْدِ

وهي بيعة لئن جسّمت استمراريّة الدّولة في آل أبي حفص ، فهي تدعّم سنّة عريقة يتمّ بموجبها انتقال السّلطة من الأب إلى الابن . قال ابن الأبّار [الرمل] (283) :

21 ــ حَسْبُهُ (284) ، مَعْلُوَةٌ ، خِدْمَتُهُ لِلأَمِيرِ بْنِ إِمَامِ الأُمَرَا
22 ــ زَكَرِيَّاءَ بْنَ يَحْيَى الْمُرْتَضَى ابْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عُمَرَا
23 ــ نَسَبٌ أَبْهَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى لَيْسَ مَاءُ الْمُزْنِ مِنْهُ أَطْهَرَا
24 ــ وَأَبٌ يَخْلُفُهُ ابْنٌ فِي الْعُلَى كَالْجَنَى يَعْقُبُ بَعْدَ الزَّهَرَا

ــ **الثّانية** : بمناسبة زيارته لتونس . وقد أشار الشّاعر إلى هذا الحدث في خمس قصائد : وهي القصيدة رقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 87 ص 193 ورقم 116 ص 225 ورقم 202 ص 425 .

(281) د/ص 4ــ133 .

(282) د/ص 1ــ440 .

(283) د/ص 186 .

(284) الضمير يعود على الشّاعر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويبدو أنّ حاضرة تونس استعدّت لقبول أمير بجاية ووليّ العهد ، فبدت في أحلى زينة وكأنّها في يوم عيد . ولهذا تساءل الشّاعر في مطلع قصيدته رقم 86 ص 190 قائلا [**الطويل**] (285) :

1 ــ أَمُبْتَسِمُ الأَضْحَى وَمَطْلَعُ الْفِطْرِ أَمِ الدَّوْلَةُ الْغَرَّاءُ وَضَّاحَةُ الْبِشْرِ (286)

ودخوله إلى حاضرة الدّولة يشبه الأبطال العائدين من المعركة مكلّلين بأزاهير الغار . قال الشاعر (287) :

28 ــ تَجَلَّى يَمْلأُ الدُّنْيَا جَلاَلاً وَأَكْنَافَ السُّهُولَةِ وَالْوُعُورِ
29 ــ فَكَمْ مِنْ أَنْفُسٍ لِهُدَاهُ مِيلٌ وَكَمْ مِنْ أَعْيُنٍ لِسَنَاهُ صُورِ
30 ــ وَجَاشَتْ مِنْ حَوَالَيْهِ جُيُوشٌ تَجُلُّ بِحَارُهُنَّ عَنِ الْعُبُورِ
31 ــ وَرَايَاتٌ كَأَفْئِدَةِ الأَعَادِي إِذَا خَفَقَتْ وَأَجْنِحَةِ الطُّيُورِ

ويرى ابن الأبّار ــ تأكيدا على أواصر المحبّة التي تربط الابن بأبيه ــ أن هذه الزّيارة هي زيارة الشبل لعرين الأسد . قال [**الطويل**] (288) :

5 ــ أَلاَ هُوَ شِبْلُ الْبَأْسِ زَارَ هِزَبْرَهُ فَقَرَّ قَرَارُ النَّاسِ مِنْهُ عَلَى الزَّأْرِ
15 ــ تَنَاصَرَتِ الْبُشْرَى بِيَوْمِ قُدُومِهِ عَلَى الْخَضْرَةِ الْعَلْيَاءِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضْرِ

ويؤكّد الشّاعر على البهجة التي عمرت القلوب بزيارة الأمير أبي يحيى زكرياء إلى تونس ، فوالده قد قرّت عينه برؤية نجله ، والعاصمة بأكملها عمّها السّرور بحلول ركب وليّ العهد بها . قال [**الوافر**] (289) :

19 ــ هِلاَلاً حَلَّ مَنْزِلَةَ الثُّرَيَّا وَقَبَّلَ رَاحَةَ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ
20 ــ وَشِبْلاً يَهْصِرُ الآسَادَ بَأْسًا أَلَمَّ بِغَابَةِ الأَسَدِ الْهَصُورِ

---

(285) د/ص 190 .

(286) تعليق المحقّق يدلّ على سوء فهم للبيت .

(287) د/ص 194 .

(288) د/ ص 1ــ190 .

(289) د/ ص 194 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

23 ــ أَمِيرُ الدَّهْرِ يَوْمٌ فِيهِ وَافَى أَبُو يَحْيَى الأَمِيرُ ابْنُ الأَمِيرِ
24 ــ لِدَارِ الْمُلْكِ صَارَ وَسَارَ يُمْنًا فَأَسْعِدْ بِالْمَصِيرِ وَبِالْمَسِيرِ
27 ــ وَأَكْرَمُ زَائِرٍ نَجْلٌ أَقَرَّتْ عُلاَهُ عَيْنَ نَاجِلِهِ الْمَزُورِ

إنّ الزّائر هو رجل الدّولة في المستقبل ، ولقد تشبّع بكلّ خصال رجالها من الجدّ الأوّل للعائلة وهو عمر بن الخطاب ، إلى جدّه القريب الشيخ أبي حفص ، إلى أبيه أبي زكرياء يحيى مؤسّس الدّولة . وقد قام هذا الأخير بتدبيج وصيّة له يرى الشاعر أنها مستقاة من مبادىء المهدي بن تومرت [290] فقال [**الوافر**] [291] :

1 ــ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَمْ عَهْدُ الْوَلِيِّ أَتَى يُزْرِي الْبَسِيطَةَ كَالأَتِيِّ
13 ــ إِلَى الْفَارُوقِ تَنْمِيهِ السَّجَايَا سَمِيُّ أَبِيهِ يَا لَكَ مِنْ سَمِيِّ
14 ــ وَحَسْبُكَ مَا هَدَاهُ مِنَ الْوَصَايَا عَنِ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ الْوَصِيِّ
17 ــ وَلَمْ يَكُ مَنْ أَبُو حَفْصٍ أَبُوهُ لِيُلْفَى غَيْرَ شَيْخَانِ أَبِيِّ

ــ **الثالثة** : بمناسبة رجوعه من الحضرة تونس إلى بجاية ، وقد رأى الشاعر أنّ الأمير ذهب هِلالا مضيئا فعاد بدرا كاملا ، عليه ملامح الشّباب جمالا وبهاء ، وله عقل الكهول حكمة وسدادا . قال [**الخفيف**][292] :

1 ــ آبَ بَدْرًا وَقَدْ أَلَمَّ هِلاَلاً مَلِكٌ زِيدَ لِلْكَمَالِ كَمَالاَ
2 ــ إِنْ يَكُنْ يَمْلأُ الْعُيُونَ شَبَابًا فَلَقَدْ يَبْهَرُ الْحُلُومَ اكْتِهَالا

أبو عبد الله محمد المستنصر

جاء ذكر أبي عبد الله محمد المستنصر الابن الثّاني لأبي زكرياء في 6 مناسبات في القصيدة رقم 42 ص 103 ورقم 70 ص 167 ورقم 69 ص 166 ورقم 68 ص 162 ورقم 120 ص 262 ورقم 22 من الملحق ص 541 ورقم 132 ص 290 .

---

(290) من مبادىء السياسة الحفصيّة التأكيد على تمسّكها بالمذهب الموحّدي وبمبادىء المهديّ، وذلك ردّا على ما فعله المأمون المُوَحّدي في مرّاكش من تنكّر لمذهب الدّولة الرّسمي .

(291) د/ ص 6ــ425 .

(292) د/ ص 254 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأولى : قالها الشّاعر لمّا توفّي أخوه الأمير أبو يحيى زكرياء حاكم بجاية وولي العهد ، فقد اختاره أبوه أبو زكرياء يحيى أوّلا ليعوّض أخاه على رأس ولاية بجاية المدينة الثّانية في المملكة الحفصيّة وكان ذلك سنة 1248/646 . فقال ابن الأبّار منوّها بهذا الاختيار [**الكامل**] (293) :

16 ــ هَـذِي بِجَايَـةُ قَـدْ سَدَدْتَ ثُغُورَهَـا بِمُبَـارِكٍ يُـمْضِي الأُمُـورَ مُسَدَّدَا

ويغتنم الشّاعر هذه الفرصة ليطلب من المولى أبي زكرياء تكريم أبي عبد الله محمّد بولاية العهد ، وهو ما يرغب فيه أبو زكرياء نفسه . قال (294) :

22 ــ وَاعْقِـدْ لِمَـوْلاَيَ الأَمِيـرِ مُحَمَّـدٍ عَهْـدًا بِـهِ تُـرْضِي النَّبِـيَّ مُحَمَّـدَا
20 ــ هُـوَ زَانَ إِخْوَتَـهُ وَهُـمْ زَانُـوا الْهُـدَى فَكَأَنَّـهُ بَـيْتُ الْقَصِيـدِ مُجَـوَّدَا
21 ــ وُسْطَى قِلاَدَتِهِـمْ وَزَهْـرَةُ رَوْضِهِـمْ وَأَحَقُّ مَنْ حُبِّي الْجَسِيمَ وَقُلِّدَا (295)

ــ **الثّانية** : قيلت بمناسبة تعيين هذا الأمير في نفس السّنة التي توفي فيها أخوه يحيى ، وليّا للعهد . فنوّه ابن الأبّار بهذا الحدث ورأى أنّ أبا زكرياء أحسن الاختيار عندما عيّن ابنه محمّدا لهذا المنصب الخطير . فقال [**الطويل**] (296) :

1 ــ تَخَيَّـرْتَ مُخْتَـارَ الْخَلِيفَـةِ لِلْعَهْـدِ فَـرَوَّيْتَ أَمْحَـالَ الْبَسِيطَـةِ كَالْعِهْـدِ (297)
6 ــ وَفِـي رَجَـبٍ مَـا هُنِّئُـوا بِانْعِقَادِهَـا لِيَهْنِئْهَـا فَـرْدُ الشُّهُـورِ إِلَـى فَـرْدِ
29 ــ هَنِيئًـا لِيَحْيَـى أَنَّـهُ بِمُحَمَّـدٍ تَوَخَّـى أَوَاخِـيَّ الْخِلاَفَـةِ بِـالشَّدِّ
31 ــ إِمَـامٌ أَزَانَـا مِـنْ إِمَامَـةِ نَجْلِـهِ مَنِيَّـةَ مُسْتَـعْصٍ وَمُنْيَـةَ مُسْتَعْـدِ

وفي الدّيوان ذكر المحقّق ــ اعتمادا على المصادر التّاريخيّة ــ تاريخين لولاية العهد هما رجب 646 (د/ص 162) و12 ذي الحجّة 646 (د/ص 166) . وفي إحدى

---

(293) د/ص 168 .

(294) د/ص 168 .

(295) هذه القصيدة أصاب التّلف بعض أبياتها كما أشار محقّق الدّيوان ، ويغلب على الظنّ أنّ ما بقي منها من أبيات وصل إلينا مشوّشا فحاولنا إعادة ترتيب الأبيات المستشهد بها .

(296) د/ص 162 و164 .

(297) العِهْدُ : مطَر بعد مطر يدرك آخره بلل أوّله .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القصائد نجد أنّها تمّت في أوّل عام جديد أي في شهر محرّم ولن يكون هذا العام إلاّ سنة 1249/647 . قال ابن الأبّار [الرّجز] (298) :

11 ــ يَـا بَيْعَـةَ الـرِّضْوَانِ أَوْ يَـا أُخْتَهَـا هُنِّئْتِ فَخْـرًا ، عُمْـرُهُ لَـنْ يَنْفَـدَا
12 ــ أَهْـدَى بِكِ الْعَـامُ الْجَدِيـدُ أَمَـلاً بَيْـنَ يَدَيْـهِ لِلْهُـدَى مُجَـدِّدَا

وهو بذلك لم يترك المسلمين نهب الضّياع بعده ، فضمن لهم بتعيين وليّ عهد جديد الاستمراريّة في كنف الأمن والطّمأنينة . قال [رجز] (299) :

1 ــ إِنَّ إِمَـامَ الْحَـقِّ لاَ يَسْأَمُ أَنْ يُصْدِرَ عَـنْ حَقِيقَـةٍ وَيُـورِدَا
2 ــ قَلَّدَهَـا عَـنِ اجْتِهَـادٍ أَهْلَهَـا يَـا مَـنْ رَأَى مُجْتَهِـدًا مُقَلِّـدَا
4 ــ خِلاَفَـةٌ لَـوْ غَيْـرُ يَحْيَـى الْمُرْتَضَى بِعِبْئِهَـا رَامَ قِيَامًـا قَعَـدَا
6 ــ وَلَـمْ يَـدَعْ أُمَّـةَ أَحْمَـدٍ سُدًى حَـتَّى ارْتَضَى لِعَهْدِهَـا مُحَمَّـدَا

. ووليّ العهد المعيّن يستحقّ هذا المنصب لما حباه الله من خصال موروثة ومكتسبة [الطويل] (300) :

41 ــ خِلاَفَـةَ يَحْيَـى زَانَ عَهْـدُ مُحَمَّـدٍ وَلاَ شَكَّ أَنَّ الزِّنْـدَ يَـزْدَانُ بِالْقُـلْبِ (301)
42 ــ هُمَـا الْقَمَـرَانِ النَّيِّـرَانِ وَإِنَّمَـا مَدَارُهُمَـا لِلْمَعْلُـوَاتِ عَلَـى قُـطْبِ
43 ــ أَمَـا وَوَلِـيُّ الْعَهْـدِ أَزْكَـى أَلِيَّـةً لَقَـدْ أَحْـرَزَ الْعَلْيَـا بِالإِرْثِ وَالْكَسْبِ

ــ **الثّالثة** : قالها الشّاعر بمناسبة إعذار بعض أبنائه . وكان ذلك ما بين نهاية 1249/646 وبداية 1249/647 عندما كان أبو عبد الله وليّا لعهد أبيه . وهذا من باب التّرجيح لا اليقين لأنّ الشّاعر لا يذكر اسم الممدوح وإنما يكتفي بقوله (وليّ

(298) د/ص 166 .
(299) د/ص 166 .
(300) د/ص 86 .
(301) القُلْب : السّوار .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العهد) . وهذا يمكن أن ينطبق على أبي عبد الله ويمكن أن ينطبق على أبي يحيى أخيه الأكبر . قال الشّاعر [**البسيط**] (302) :

18 ــ يَا شِدَّةَ الْيَأْسِ إِنْ يُنْسَتْ فِيكَ فَقَدْ أَضْحَى رَجَاءُ وَلِيِّ الْعَهْدِ لِي فَرَجَا
30 ــ هَادٍ لِقَصْدِ أَبِيهِ الْمُرْتَضَى عَلَمًا لِجَبْرِ مَا انْهَاضَ أَوْ إِصْلاَحِ مَا مَرِجَا
31 ــ لله مَشْرُوعُ آثَارٍ تَقَبَّلَهَا هُدَاهُ فَاعْتَدَّهَا أَهْلُ الْهُدَى حُجَجَا
32 ــ مُطَهَّرًا مِنْ بَنِيهِ كُلَّ مَنْ طَهُرَتْ أَعْرَاقُهُ ، وَتَرَقَّتْ فِي الْعُلَى دَرَجَا

ــ **الرّابعة** : قالها في موت أبي زكرياء : يبدو أنّ المولى أبا زكرياء تأثّر لوفاة ابنه أبي يحيى فمرض وتوفّي بعد ابنه بأشهر قلائل بمدينة بونة في جمادى II 647/أكتوبر 1249 (303) . فاغتنم ابن الأبّار هذه الفرصة ليتقرّب إلى الحاكم الجديد . فقال راثيا [**الكامل**] (304) :

18 ــ فِي بُونَةٍ بَانَتْ حَيَاةُ الْمُرْتَضَى يَحْيَى وَقِيدَ إِلَى الثَّرَى بِزِمَامِ

ومُهنّئا (305) :

49 ــ بِمُحَمَّدٍ وُعِدَتْ رَعَايَا أَحْمَدٍ أَلاَّ تَزَالَ زَوَاهِرَ الأَيَّامِ
51 ــ مَلِكٌ تَمَنَّهُ فِي الْمُلُوكِ عِصَابَةٌ هِيَ مَفْخَرُ الأَسْيَافِ وَالأَقْلاَمِ

ــ **الخامسة** : قيلت في سنة 1250/648 ، بمناسبة إيصال المستنصر الماء إلى مدينة تونس من زغوان بواسطة الحنايا الرّومانيّة التي أعيد ترميمها وتصليحها ، كما أوصل الماء إلى جامع الزّيتونة . وقد كتب ابن الأبّار رسالة طويلة (306) للتّنويه بهذا

---

(302) د/ص 5ــ104 .

(303) اختلفت المصادر في تحديد اليوم . في الدّيوان ص 162 : 22 جمادى II ، وفي الأدلّة البيّنة النّورانيّة ص 51 : 29 جمادى الثّانية وفي تاريخ ابن أبي الضياف ج 1 ، ص 160 : ليلة الجمعة 28 جمادى II .

(304) د/ص 263 .

(305) د/ص 265 .

(306) انظر الرّسالة في أزهار الرّياض للمقرّي: 114/3 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الصّنيع،[307] وخلال الرّسالة ذكر ابن الأبّار أبياتا له في مدح المستنصر أوّلها [البسيط] [308] :

1 ــ جَمَّعْتَ لِلنَّاسِ بَيْنَ الرِّيِّ وَالشِّبَعِ فَهُمْ بِأَخْصَبِ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبَعِ

وهذه الأبيات لابن الأبّار هامّة من النّاحية التاريخيّة لأنها تبيّن أنّ ترميم وإصلاح الحنايا تمّ في مرحلتين : الأولى وكانت في سنة 1250/648، والثّانية تمّت في سنة 1267/665 [309] أو 1268/666 [310] وهي التي أنشد فيها حازم القرطاجنّي المقصورة . وقد أخطأ بعض الباحثين المعاصرين في ذلك وجعلها مناسبة واحدة [311] وأرّخها بسنة 1250/648 .

ــ **السّادسة** : قالها بمناسبة كان لها صداها في عاصمة الدّولة الحفصيّة ، إذ جاءت المستنصر بيعة مكّة . وقد كتب نصّ البيعة المتصوّف الشّهير ابن سبعين ، وكان ذلك سنة 1252/657 أي بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة على يد التّتار بسنة .

والطّريف أنّ هذه البيعة وصلت وقد شفي الأمير من مرض ألمّ به . ولهذا جمع ابن الأبّار في بيتين له أرسلهما من بجاية إلى تونس بين الأمرين ، فقال [**الكامل**] [312] :

1ــ إِنَّ الْبَشَائِرَ كُلَّهَا جُمِعَتْ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا وَلِلأُمَمِ

2ــ فِي نِعْمَتَيْنِ جَسِيمَتَيْنِ هُمَا بُرْءُ الإِمَامِ وَبَيْعَةُ الْحَرَمِ

---

(307) أرسل أبو المطرّف هو الآخر من مدينة قابس وكان قاضيا عليها رسالة إلى المستنصر مهنّئا بهذه المناسبة .

(308) د/ص 451 .

(309) الفارسيّة ص 127 .

(310) الأدلّة البيّنة النّورانيّة ص 8ــ67 .

(311) محمد ابن شريفة : أبو المطرّف ، ص 152 .

(312) د/ص 290 .

12 ــ المشرق العربي :

يجد النّاظر في ديوان ابن الأبّار إشارات إلى المشرق العربي تندرج في نطاق التّمجيد والتّنويه بأبي زكريّاء وبالدّولة الحفصيّة . فكما خضع له المغرب فإنّ الشرق بشآمِه وعراقه لا محالة خاضع تبعا لذلك . وابن الأبّار لا يذكر من حكام المشرق العربي إلاّ حكام مصر من الأيوبيّين . وهو يذكرهم ليستنقص من شأنهم باعتبارهم ساهموا بدور فعّال في إطالة ثورة ابن غانية . فقد أرسلوا لمساعدته الغزّ ، وعلى رأسهم القائد قراقوش . قال ابن الأبّار [**الكامل**] (313) :

22 ــ هـذي الْمَمَـالِكُ وَالْمُلُـوكُ لأَمْـرِهِ تَنْقَـادُ طَيِّعَـةً كَمَـا تَـنْسَاقُ
23 ــ سَتُجِيبُهُ عَـقِبَ الْمَغَـارِبِ شَامُهَـا وَسَتَفْتَـدِي يَمَـنٌ بِـهِ وَعِـرَاقُ
26 ــ يَا آلَ أَيُّوبَ اضْغَنُوا عَنْ مِصْرِهِ (314) أَوْ أَذْغَنُـوا فَلَـهُ بِهَـا إِخْـرَاقُ

وقد يذكر الشّاعر بني أيّوب حكّام مصر ويقارن بينهم وبين آل يعقوب من الموحّدين. ويرى أنّ الموحدين أكثر جرأة وشجاعة ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام أبي زكرياء فكيف بآل أيّوب ؟ قال [**البسيط**] (315) :

66 ــ وَاصْرِفْ عِنَانَكَ عَنْ مَرَّاكُشٍ ثِقَةً بِالنَّجْـحِ فِيهَـا إِلَـى مِصْرٍ وَبَغْدَانَـا
67 ــ مَـا آلُ أَيُّـوبَ وَالآثَـارُ نَاطِقَـةٌ مِـنْ آلِ يَعْقُـوبَ إِقْدَامًـا وَإِمْكَانَـا
68 ــ لِهَـؤُلاَءِ عَلَيْهِـمْ فَضْلُ بَأْسِهِـمُ وَقَـدْ قَرَضْتَهُـمُ قَتْـلاً وَخِلْعَانَـا
69 ــ بِالأَيْـدِ وَالْكَيْـدِ تَضْطَرُّ الْعِـدَى أَبَـدًا إِلَى إِبَادَتِهِمْ سُحْمًا (316) وَغُزَّانَـا (317)

---

(313) د/ص 388 .

(314) مصره : بلده . وقد يكون الشّاعر قصد مصر البلد المعروف تفاؤلا بخُضوع هذا البلد الكبير إلى الممدوح .

(315) د/ص 310 .

(316) السّحم : الموحّدون .

(317) الغزّان : الغزّ وقائدهم قراقوش كانوا مع ابن غانية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

13 ــ مقتل ابن الأبّار

توفّي أبو زكريّاء وترك لابنه المستنصر دولة قويّة ، فاتجهت عنايته إلى البناء والتّشييد و(جمع حوله طبقة من العلماء والأدباء . وكان ابن الأبّار واحدا منهم) [318]. وكان من ألدّ أعداء الشاعر في هذا البلاط الوزير ابن أبي الحسين ، وكان يحقد على ابن الأبّار . (وكان سبب حقد هذا الوزير عليه أنّ ابن الأبّار لمّا قَدم في الأسطول من بلنسيّة نزل ببنزرت وخاطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته ، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم ، ونبّه إلى ذلك فاستضحك ، وقال : إنّ أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل . ونميت إلى الوزير فأسرّها في نفسه) [319] وراح يكيد له .

واستطاع هذا الوزير في نطاق تنافس البلديّين والأندلسيين على المناصب الهامّة في البلاط الحفصي أن يوغر صدر المستنصر على الشّاعر . وكان (في ابن الأبّار أنفة وبأو وضيق خلق ، وكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصر مداركه ... مع ما كان يسخط به السّلطان من تفضيل الأندلس وولاتها عليه) [320] .

وزاد ابن سعيد على ذلك (أنّ أخلاق ابن الأبّار لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة) [321] فأشخصه السّلطان إلى بجاية . لكن متى تمّ ذلك ؟

إنّ ابن سعيد عندما كتب ترجمة ابن الأبّار في القدح [322] ذكر أنّ الشّاعر كان في ذلك الوقت في بجاية . ومن المعلوم أنّ ابن سعيد دخل تونس سنة 1254/652 والتقى بابن الأبّار وأخذ عنه المقطوعات التي أوردها في كتابه . حينئذ يحقّ لنا أن نفترض أنّ ابن الأبّار نفي إلى بجاية بعد هذه السّنة . وبقي هناك إلى أن عفا عنه المستنصر سنة 1259/657 ، وقد هنّأه صديقه أبو المطرّف بذلك في إحدى رسائله [323] .

---

(318) مقدّمة إعتاب الكتّاب ، ص 15 .

(319) العبر : 654/6 .

(320) العبر : 654/6 .

(321) اختصار القدح ، ص 19 .

(322) اختصار القدح ، ص 19 .

(323) ابن شريفة : أبو المطرّف ، ص 155 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقال الشّاعر وقد التقى وجها لوجه بالمستنصر بعد طول غياب [**الكامل**] (324) :

1 ــ بُشْرَايَ بَاشَرْتُ الْهُدَى وَالنُّورَا بِلِقَائِيَ الْمُسْتَنْصِرَ الْمَنْصُورَا
2 ــ فَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَقِيتُهُ لَمْ أَلْقَ إِلاَّ نَضْرَةً وَسُرُورَا

ويبدو أنّ الشّاعر لم ينجح وللمرّة الأخيرة في التأقلم مع بلاط الدّولة الحفصيّة . وتظافر العاملان الأعداء ومزاجه الحادّ في نفور المستنصر منه من جديد . ولكن في هذه المرّة لم يَنْفه ، نظرا إلى تقدّمه في السنّ ، وإنما احتقره وأهمله فكان ابن الأبّار إذا دخل على المستنصر ، لا يكلّمه ولا يلتفت إليه وكان ابن الأبّار يَتشكّى من ذلك ويتألّم [**الوافر**] (325) :

1 ــ عَلَتْ سِنِّي وَقَدْرِي فِي انْخِفَاضِ وَحُكْمِ الرَّبِّ فِي الْمَرْبُوبِ مَاضِ
2 ــ إِلَى كَمْ أُسْخِطُ الأَقْدَارَ حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا بِرَاضِ

وكان المستنصر إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز معمّى أو مترجم بعث به إليه فيحلّه ، فإذا حضر عنده لا يكلّمه ولا يلتفت إليه . فقال في ذلك [**مجزوء الكامل**] (326) :

1 ــ أَمْرِي عَجِيبٌ فِي الأُمُورِ بَيْنَ التَّوَارِي وَالظُّهُورِ
2 ــ مُسْتَعْمَلٌ عِنْدَ الْمَغِيـ ـبِ وَمُهْمَلٌ عِنْدَ الْحُضُورِ

ويغتنم ابن الأبّار مرض السّلطان وشفاءه فيهنّئه بالإبلاَل ، وجلاء الشكّ والحيرة من قلوب الرّعيّة [**الكامل**] (327) :

12 ــ شُفِيَ الأَمِيرُ فَكُلُّ قَلْبٍ سَاكِنٌ بَعْدَ الْخُفُوقِ وَكُلُّ طَرْفٍ هَاجِعُ
13 ــ وَبَدَا سَنَاهُ فَلاَ عَدُوٌّ آمِنٌ يَرْجُو النَّجَاةَ وَلاَ وَلِيٌّ جَازِعُ
17 ــ كَانُوا مِنَ الشُّبَهِ الْمُضِلَّةِ فِي دُجًى فَجَلا غَيَاهِبَهَا هُدَاهُ السَّاطِعُ

(324) د/ص 447 .
(325) د/ص 448 .
(326) د/ص 445 .
(327) د/ص 356 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثمّ يطلب منه العفو عنه من الجفوة والإهمال [الكامل] [328] :

40 ــ مَوْلاَيَ عَبْدُكَ فِي الرِّضَى مُسْتَشْفِعٌ وَبَنَاتُ خَاطِرِهِ إِلَيْكَ شَوَافِعُ
41 ــ هُوَ ذَا بِبَابِكَ لَيْسَ يَسْأَمُ قَرْعَهُ وَلَطَالَمَا وَلَجَ الْمُلِظُّ الْقَارِعُ
44 ــ إِنَّ الضَّرَاعَةَ لِلْقَبُولِ ذَرِيعَةٌ وَالْحَقُّ فِي تَحْلِيدِ أَمْرِكَ ضَارِعُ

وسواء أناله أم لم ينله فقد بقي ابن الأبّار شخصا ثقيلا غير مرغوب فيه في بلاط المستنصر ، بل إنّه أصبح بسلوكه مستهدفا للتخلّص منه . وقد أتاح الشّاعر الفرصة لأعدائه والمستنصر (ذلك أنّه حضر يوما مجلس السّلطان فسمعه يسأل بعض من حضر عن مولد ولده الواثق . فغدا عليه ابن الأبّار في اليوم التّالي برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها فلمّا رآها المستنصر استشاط غضبا من فضوله وتطفّله) [329] . وألصقت به تهمة (توقّع المكروه للدّولة والتربّص بها كما كان أعداؤه يشنّعون عليه ، لما كان ينظر في النّجوم فتقبّض عليه وبعث السّلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع . ولقي أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أوّلها :

طَغَى بِتُونِسَ خَلْفٌ سَمْوُهُ ظُلْمًا خَلِيفَهْ [330]

فاستشاط لها السّلطان وأمر بامتحانه ثمّ بقتله قعصا بالرّماح وسط محرّم 1260/658) [331] . وأحرق شلوه وكتبه ومن بينها كتاب سماه (كتاب التاريخ) يسيء فيه إلى السلطان [332] .

ولا شكّ أنّ هذه بعض الأسباب التي أدّت بابن الأبّار إلى هذه النّهاية المأسويّة . ولكن لا يمكن أن نقول إنّها كلّ الأسباب . فقد ورد في الدّيوان مثلا بيت منفرد

---

(328) د/ص 357 .
(329) الإعتاب ، ص 17 .
(330) د/ص 452 .
(331) العبر: ص 5ــ654 .
(332) الإعتاب ، ص 18 .

وهو قول ابن الأبّار ــ إن صحّت نسبته إليه ــ في المستنصر [**السّريع**] [333] :

عَصَى أَبَـــاهُ وَجَفَـــا أُمَّـــهُ وَلَـمْ يُقِـلْ مِـنْ عَثْـرَةٍ عَمَّـــهُ

وهو بيت يدلّ على أنّ الشّاعر لم يكن راضيا على سلوك هذا السّلطان مع أبيه ، وبعد وفاته مع أمّه . بل لعلّه كان يرى في مقتل عمّيه محمد اللّحياني وأبي إبراهيم في ثورة سنة 1250/648 ظلما وعدوانا لأنّهما لم يشاركا فيها . وهذه التّهم من النّاحية الشرعيّة خطرة لأنّها تجيز التّراجع في بيعة السّلطان بل الخروج عليه .

الخاتمــة

قام الأستاذ عبد السّلام الهرّاس بتحقيق ديوان ابن الأبّار لأوّل مرّة بالاعتماد على النّسخة الوحيدة المحفوظة في الخزانة الملكيّة بالمغرب تحت رقم 4602 . والأستاذ الهرّاس بعمله هذا الجيّد سدّ ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الشّعر الأندلسي . فصاحب الدّيوان هو إحدى الشّخصيات المرموقة خلال القرن 13/7 على المستويين السّياسي والأدبي وفي العدوتين الأندلسيّة والإفريقيّة .

وبصفة عامّة إنّ النّاظر في النصّ الأدبي يمكن أن ينظر فيه من زاويتين :

1 ــ فإن كان ناقدا أو أسلوبيّا كانت غايته منه القيمة الجماليّة فيه .
2 ــ وإن كان مؤرّخا للأدب أو دارسا للتّفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقيّة .

وبما أنّنا أصبحنا نؤمن بالقيمة الوثائقيّة للنصّ الأدبي ــ بعد عدّة دراسات في دواوين شعريّة أندلسيّة ــ [334] فإنّنا حاولنا أن نطبّق نفس هذا المنهج على ديوان ابن الأبار فكيف تراءت لنا الأحداث التاريخيّة في هذا الأثر الشّعري من القرن 13/7 ؟

---

(333) د/ص 462 .

(334) انظر على سبيل المثال :
ــ القيمة الوثائقيّة في ديوان ابن الخطيب (مجلّة كلّية الآداب بتطوان السنة 2 عدد 1987/2، ص 291).
ــ القيمة الوثائقيّة لديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي (حوليات الجامعة التونسيّة العدد 1988/27 ، ص 119) .
ــ القيمة الوثائقيّة في ديوان يوسف III (الحوليات عدد 1988/28 ، ص 185) .

إنّ ديوان ابن الأبّار هو ديوان شعر ذاتي ورسمي :

1 ــ ذاتي بالنّظر إلى العِدوة الأندلسيّة : لقد بكى فيه الشاعر وطنه الضائع فحزن وتألّم لمصابه ، وحنّ واشتاق إلى رحابه ، ودافع وحرّض على استرجاعه .

2 ــ رسمي بالنّظر إلى العِدوة الإفريقيّة : فقد نظّر للسياسة الحفصيّة فمدح وقرّض أمراءها ، وهجا واستنقص أعداءها ، وشجّع ونوّه بمن حالفها ووالاها .

3 ــ على أنّ هناك مظهرا ثالثا في الدّيوان يتخلّل الجانبين الذّاتي والرّسمي هو الجانب الشّخصي : عبّر فيه الشاعر بكلّ صدق عمّا أصابه من محن الأيّام وصروف الدّهر بالعدوتين وخاصّة ما تعرّض له من نكبات في إفريقيّة آلت به إلى المأساة الكبرى وهي مقتله على يد المستنصر الحفصي .

ونحن لا ندّعي البتّة أنّنا وجدنا في ديوان ابن الأبّار شيئا كثيرا يختلف عمّا هو مسطّر في كتب التّاريخ ، لكن هناك من الأحداث الجزئية ما لم يهتم به المؤرّخون ذكرت في الدّيوان ، وهناك بعض التّدقيقات في حياة الشّاعر استُخلِصَت وأُضيفَت . والأهمّ من كلّ هذا وذاك أنّنا نجد في ديوان ابن الأبّار تفسيرا للأحداث ، وخاصّة الإفريقيّة منها، من وجهة نظر معيّنة . هذا التّفسير قد لا نجده في كتب التّاريخ ، ومجال المقارنة فسيح لَوْ وُجد الشعر المقابل لشعر ابن الأبّار أي الشّعر المعبّر عن وجهة نظر الدّولة الموحّدية مثلا وكان لهم في مرّاكش شعراء عديدون (335) . وهذا ابن الأبّار نفسه يتراجع نادما عمّا بدر منه مغايرا للحقيقة في ديوانه . قال [**المتدارك**] (336) :

1 ــ حُـرِمْتُ الـرَّشَادَ لأنّـي سَفَاهَـا خَـدَمْتُ الْمُلُـوكَ وَهُـمْ أَعْبُـدُ
2 ــ وَفِـي رَغَبَاتِـي لَهُـمْ جِئْتُ إِذًا فَهَـلاَّ رَغِبْتُ لِمَـنْ أَعْبُـدُ

فهل هذا الموقف من الشّاعر كاف لنحذر كلّ الحذر إذا أردنا معرفة الحقيقة خالية من كلّ الشّوائب ؟

---

(335) انظر نموذجا ثانيا من هذا الشّعر في الجزء II من أطروحتنا : الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ص 204 عند مقارنتنا للشّعر المعبّر عن وجهة نظر المأمون الموحّدي والشّعر المقابل له المعبّر عن وجهة نظر غريمه ومنافسه على الخلافة ابن أخيه يحيى المعتصم .

(336) د/ص 178 .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الدار العربيّة للكتاب

- مؤسسة تونسية ليبية تجسم وجها طريفا من وجوه التعاون المثمر بين قطرين عربيين في ميدان النشر والطباعة والتوزيع.
- خمس عشرة سنة من العمل المتواصل في خدمة الكتاب وتنمية الثقافة العربية والمعرفة الإنسانية وإحياء التراث وتشجيع الإبداع العربي المعاصر.
- طموحات ومشاريع مستقبلية مهمة في مجال الأعمال الموسوعية والسلاسل المتخصصة.
- من منشوراتها التي تعنى بالأندلس تاريخا وحضارة، لغة وأدبا :

1 ــ ابن هاني الأندلسي متنبّي المغرب تأليف أبي القاسم محمد كرو.
2 ــ العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب تأليف عبد العزيز الفيلالي.
3 ــ دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس تأليف د. أمين توفيق الطيبي.
4 ــ فصول الأحكام للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان.
5 ــ حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني والثالث عشر ترجمة أمين الطيبي.
6 ــ كشف الأسرار عن علم حروف الغبار للقلصادي تحقيق د. محمد السويسي.
7 ــ الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسّام الشنتريني تحقيق الدكتور إحسان عبّاس.

- ودراسات أخرى في طريقها إلى الصدور :

1) الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي تأليف الدكتور جمعة شيخة تعتمد هذه الدراسة على الشعر المعبّر بصدق عما خالج نفوس أصحابها من الأحداث والوقائع والانتصارات والنكبات، الهدف منها النظر في المادة الشعرية الأندلسية من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع هجري، باعتبارها مرآة تعكس مجموعة من الأحداث والمظاهر الحضارية للبيئة الأندلسية.

2) ديوان ابن زمرك، تحقيق الأستاذ توفيق النّيفر.
لم يصلنا من شعر ابن زمرك إلا ما هو مُثْبَت في المصادر القديمة «كنفح الطيب» و «أزهار الرياض» وغيرهما.
فالدّيوان زيادة على الجهد الذي بذله المحقّق، مادّة جديدة تضاف إلى كنوز الشعر الأندلسي.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شاعر وفى لوطنه

د. عبد السلام الهرّاس
كلّية الآداب فاس ــ المغرب

لعلّ أوّل أديب مسؤول في تاريخ الأندلس، إلى منتصف القرنس السابع أو ربّما إلى آخر تاريخها الإسلامي، سجّل في شعره قضية بلده وهمومه نحوها لهو ابن الأبّار البلنسي ... نعم ! لقد سبقه سفيرٌ شاعر مثّل بلاده في كل من بلاد الروم وبلاد المجوس الفيكنك، لم يعكس في شعره سوى مغامراته الغرامية، أما القضية التي من أجلها سفر وسافر فلم يتسرب منها شيء إلى شعره الذي بيْنَ أيدينا على الأقل[1].

لقد كان ابن الأبّار وزيرا لا كالوزراء، فهو الذي كلّف بحمل عبء التّسليم كما كان الرجل الكفء ليضطلع بمهمة الاستنجاد بتونس الحفصية مرتين، وقد نجحت مساعيه الأولى والثانية، وترك الرجل أثرا كبيرا في الأوساط السياسية والأدبية مما جعله شخصيّة ناجحة ولامعة ومحبوبة.

وكلّمَا كان الأملُ في إنجاد بلده كبيرا كان هاجسُه واهتمامُه بها وحدها واسع المدى، غير أن دائرة الاهتمام بنفسه بدأت تتسع شيئا فشيئا عندما سقطت بلنسيةُ وبعضُ مواقع شرق الأندلس،ومع ذلك بقي كيانُ الرجل أندلسيًا بما كان يَنفُثُ من تحسرات ويصعّد من آهات ويستكثر لبلده من أمجاد. وإن الهمّ الأندلسي ظّل يلازمه إلى آخر

(1) اختصارا رمزنا لديوان ابن الأبّار بحرف (د).

نفس من حياته إذ كان تآليفه كالتكملة نوعا من المفاخرة والمباهاة بما للأندلس من شخصيات علمية وأدبية ذكورا وإناثا أصلاءَ وطَارِئيين (أي غرباء) .

إنّ الرجل كما يبدو لم يكن أول أمره يفكر في نفسه أو في أسرته أو مصالحه على حساب بلده ، فقد أخلص للقضية وأبى أن يفرّ من الزّحف بل رأيناه يتشبثّ مع بلديّه بتُرابِ وطنه وبتراب ماجاوره ، وينتقل مع اللاّجئين إلى دانية ومرسية أملا في العودة إلى الرّصافة والجسر والمسجد والمتنزهات .

وقد سبق له أن التجأ مع أميره أبي زيد إلى صاحب أرغون سنة 1229/626 وعمره إحدى وثلاثون سنة لكنّه ما لبث أن عاد إلى بلده بعدما ذاق مرارة الغربة التي لم تستطع حلاوة المقام هناك من التّخفيف من جِدّتها وزُعَافِها .

وقد دافع عن نفسه بأنّ تلك الهجرة كانت مشروعة فهي كهجرة الصحابة إلى الحبشة النصرانية للاحتماء بملك نصراني كِتَابي: ومعنى هذا أنّ هجرته كانت لخدمة قضية بلده . لكنه كيف خدمها؟ ذلك ما لم يطلعنا عليه كما ضيع علينا معلومات ثمينة عن العلاقة بين إمارة بلنسية ومملكة أرغون في هذه الحقبة لكنه قال ما يلي فقط [**البسيط**][2] :

قالُوا : الخروجُ لأرض الروم منقصةٌ فَقُلْتُ : كلاّ ! ولكن صَادُهسا بَاءُ
إذا خرجت وفاءُ ثمَّ عدتُ تُقىً أثبتّ بفعلي عُدَاتِي والأُحِبَّاء
وكان لي في قريش أسوةٌ وكفَى مع النّجاشي تَرَضَّاهَا الأُبِيَّاء

لمن كان هذا الوفاء ألِقضية بلده أم لأميره المرتبط به ببيعة لا يستطيع الفكاك منها دون مُسَوغٍ شرعيّ ؟ حتى إذا ما أصرَّ صاحبُه على البقاء في بلاد النصارى كانت العودةُ إلى بلاد الإسلام واجبةً .

وإني استبعد أن يكون خروجه تمَّ دون موافقة شيخه أبي الربيع سالم الكلاعي وكذلك عودته .

كان ابن الأبّار شخصيةً جديرة بأن يستقبلها الأرغونيون بكلّ تقدير ويحيطوها بكل

(2) د/ص 55

احترام لكنه كان يشعر بقسوة الحسرات وهو يرسف في أغلال الغربة فلم يرْضَ بتلك الإقامة . يقول [الكامل][3]:

وكفاك أنّ الروم كانت جيرتي ... من جَور دَهْري واستحالةِ حالي
كنتُ الطليق هناك لكن لم أزل ... من شِدّةِ الحسرات في أغْلال
أبكي على استئصالِ مَنْ خلّفته ... وأطيل في الأسحار والآصال

وهذه الأغلالُ لم تكن سوى آلامه المتراكمة بمفارقتِه وطنَه وأهله واستقرَارَه مما لم يَجِد معه صبرًا ولا جَلَدًا . ولم يكن له من ملاذٍ سوى الاعتصام بحمد الله على الحال التي أصبح عليها من حرب الزمان له بعد ما كان مسالما معه مدة معينة سرعان ما انقضت.يقول [البسيط][4] :

الحمد للّه لا أهلٌ ولا ولَدُ ... ولا قرارٌ ولا صبرٌ ولا جلدُ
كان الزمانُ لنا سِلْمًا إلى أمدٍ ... فعاد حربًا لنا لمّا انقضى الأمَدُ

وكثيرا ما صعَّد الزفراتِ شوقا إلى أهله وذويه كما يقول [الوافر][5]:

إلى الإلْفين من أهل ودار ... تأوّبني اشتياقي وادّكاري
وحنَّ القلبُ أعشارًا إليها ... حنينَ الوالهات من العِشار
فبتُّ كأنّني توقًا وشوقا ... على مثل الأسنة والشفار
وما حشوُ الضلوع سوى أوَارٍ ... وما نومُ الجفون سوى غرار

ويقول [الوافر][6] :

بعيشك عاطني أخبارَ داري ... بها أغنى عن القَدَحِ المُدَار
إذا قُربتْ يهيجُ لها اشتياقي ... وإن نَزَحت يمثّلُها ادّكَاري
ودعْ لومي إذا أبصرت مَيْلي ... فسُكْرُ الشّوقِ من سُكْرِ العُقَار

لقد كان تعلقه ببلنسية ومنازلها أقوى من كل إغراء ولكن كيف يعود ؟

---

(3) د/ص 250
(4) د/ص 178
(5) د/ص 199
(6) د/ص 200

لعله غامر في العودة إلى الأندلس الإسلامية إذ نجده في وادي آش في شوال 1229/626 ، مما يدل أنه لم يمكث طويلا عند الأرغونيين .ومن هناك فيما يبدو صار يراسل صديقه أبا الحسين الخزرجي حاكم شاطبة واستهلّ قصيدته الأولى بذكر بلده وجناتها يقول [الوافر][7]:

جَنَانِي عامرٌ بهوى جِنانِي ... وإن صدعت برحلتِها جَنانِي
وطرفي ليس يَغْنِيه سواها ... ولو عنَّت له حورُ الجِنان
وقاد إلى هواها القلب قهرًا ... فأصبح في يديها القلبُ عانِ

وفيها يبث آلامه وأحزانه ويصف واقعه المظلم الذي يحاصره بأخطاره فلا يشعر بأمل لا في الذهاب ولا في الإياب،وهو تصوير دقيق لحالته النّفسية بل لوضعه الحرج الذي وقع فيه إثر خروجه من بلنسية فارا مع أميره يقول [الوافر][8] :

أمَا أنَّ الليالي غالبات ... ولو يُغرى بنصري الفرْقَدان
إذا لم ألْقَها بِعُلَى ابنِ عيسى ... وَحَسْبِي من حُسَامٍ أو سِنان
فَلستُ من الإيَاب على يقين ... ولستُ من الذهاب على أمان
فإنّ أبا الحسين ينالُ منها ... منالَ الذُّعْرِ في قَلْبِ الجَبَان
يُنَهْنِهُهَا متى انهدَّت لِحربي ... ويأخذ لي الأمانَ من الزمان

ويبدو أن أبا الحسين بذل للرّجل ضُرُوبًا من المعروف ، وفتح له بابَ الأمل ليعود إلى بلده معزَّزا مُكَرَّما . فهو الذي ظَاهَرَهُ على الليالي وأخذ له الأمان من الزمان الذي أعلن عليه الحرب ، وبذلك أصبح في ظل حاكم شاطبة كباقي الرعية كلّها في حرز وضمان من الدهر وإذايته وامتهانِه . وقد شاهد عيانا في أبي الحسين أكثر مما كان يُحدِّثُ به نفسَه . وهكذا استعادت أجنحتُه ريشَها المقصوصة بمقص الظلم ، كما صارت راحتُه تجني أغلَى الأماني وتقطف ثمارها من قِمَمِها الشّماء . يقول [الوافر][9]:

وجئتك سُؤْرَ أيامٍ لِئامٍ ... أعانِي من أذاها ما أعَاني

(7) د/ص 323
(8) د/ص 324
(9) د/ص 325

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومثـــــلُك رقَّ سؤددُه لمثلـــــي فأجنَـــى راحتـــي شُمَّ الأمانـــي
وراشَ جناحـــيَ المـــقصوصَ ظلمـــا وأنسانِـــي الأحَبَّـــةَ والمغانـــي

وهكذا أصبح ابن الأبّار يتمتّع في شاطبة ببيع مزهر دائم متصل صيفا وشتاء،لا سَعير ولا زمهرير . ومع ذلك فإنّ بلنسية هي بلنسية . فهناك الرصافة وهناك المصلّى وهناك الجسروالحدائق الغناء والجنان الفيحاء، وهناك شيُوخه وأصحابه وهناك مَرْكَزه ومسؤوليته إذن فالعَوْدَةُ مُحَتَّمة،لذلك نراه ينتقل إليها بعد محاولات بذلت لاشك ، من الداخل والخارج لتحقيق هذا اللقاء لقاء الشاعر الوزير بحبيبته : بلده بلنسية .

وفي العودة تحمل مسؤولية جديدة ...

وقد دشن عودته بقصيدة رائقة في قائدها الجديد ورفيقه القديم في البلاط الراحل ، والقصيدة إشادةٌ ببطولة القائد الأمير الذي اضطلع بمسؤولية الدفاع عن بلنسية.وإذا ما صدقنا ما جاء فيها ـــ ولا شك أنها لا تخلو من أصل الحقيقة مع بعض المبالغات ـــ فإن جيشَ بلنسية بقيادة جَميل حقّق انتصارات متعددة على الأرغونيين لكنْ تحت الرايةِ السّوداء التي تدل على ولاء هذه الإمارة الصغيرة النائية للخلافة العباسية المشرفة على الهلاك في ذلك الحين .

فكأنّ ابن الأبّار يُسوِّغ عودته إلى بلنسية بكون الإمارة الجديدة تبنت قضيتها ، وهو ما دفعه للإشادة بهذه القيادة التي تضمن لبلده البقاء والاستمرار وللأرغونيين اليأس من الانتصار . والقائد الجديد لا يقف موقف الدفاع فقط وإنما تجاوز ذلك للهجوم في عقر دار الأعداء . يقول ابن الأبّار ، واصفًا أبا زَيّان [**الطويل**][10] :

وَتغْـزُو العـدَى فـي عُقْرِهـا متتابعـا وحسبك غـزوٌ فـي العـدى متتابِع
فَتُلْفِـي ديـارَ المشركيـن ولـم تـزل أواهـلَ قـد أصبحْنَ وهـيْ بلاقِـعُ
ولاذوا بأعلـى الرَّاسيـات تَوقُّعًـا لِمـا سَوْف يغشاهِـم . ومَـا حُـمَّ واقـعُ
فلـم تـألُ هـدًا أرضهـم واستباحَـةً تُجاذِبُهـم أطرافَهـا وتُنَـازع

(10) د.ص 359

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى أن يقول[11] :

أيرجُو النَّصارى في زمانِك نصرةً وقد كَثُرَتْ فيهِمْ لَعَمْرِي الوقائع
فأعيُنُهم بعدَ الهجوع سَواهِدٌ وأعيُنُنا بعد السُّهادِ هواجع

ويقول [12] :

ثغورُ ثغورِ المسلمين بواسمُ به ورقابُ المشركين خواضع

وأخيرا يتكلم عن علاقته بالأمير واعتذاره عما كان منه[13] :

أميرَ العُلى أرجو ومثلُك سامِحُ أميرَ العلى أذعُو ومِثْلُك سامع
وأشدُو بما طوَّقتني من صَنَائِع جسامٍ كما تشدُو الحَمام السَّواجع
فيصدَحُ منِّي باعتمادِك صادحٌ ويصدع مني باعتمادك صادِعُ

تولى قضاء دانية سنة 633 هـ/1235 ـ 1236 م، ثم الوزارة ببلنسية . وقد خلّف قصائد تتحدث عن همومه التي كانت تشغل عواطفه وتحتل بُؤْرَةَ تفكيرِه وملكت عليه كيانه :

ففي القصيدة السينية المشهورة لم نجد له فيها أيّ إشارة إلى شخصيته من حيث منفعةٌ تخصُّها ، وإنما هناك أبيات قليلة في أواخر القصيدة يشير فيها إلى أنّ السعيد مَن يلقى الأمير ، ويبشر نفسه بتحقيق آماله فيه كأنما خاض إليه البحر طريقا يَبَسًا فوجد الجود في استقباله . ثم يعود إلى الموضوع الذي من أجله سافر وكأنما قدم لآخر القصيدة بتلك المقدمة الصغيرة من أجل التأثير وتحقيق ما من أجله وقف هذا الموقف . فهو يريد إنقاذ الأندلس عموما وشرق الأندلس خصوصا وبلنسية بصفةٍ أخصَّ . وقد وضع أمام الأمير صورةَ الواقع كما هُوَ ليس فيه تزيدٌ أو تزييف : السبيل إلى إنقاذ الأندلس دَرَسَ . فليس من السهل ، إذن ، نجاتها مما هي فيه [البسيط][14] :

أدرك بخيلك خيلَ الله أندلسا إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتها درسا

(11) د/ص 361
(12) د/ص 361
(13) د/ص 361
(14) د/ص 395

لقد فاجأهم بالحقيقة المرة ولكنّ الأمل قوي في الحفصيين الذين يخاطبهم باسم الأندلس ، فالأندلس تعاني حشاشتُها ما تعاني من سكرات الموت وحشرَجات الاحتضار بما يعتورُها من بلاَيا صباح مساء ، ففي كل مطلع شمس تحلُّ بها بائِقة وفي كل مغرب تنزل بها كارثة تتناوبُها الويلات والمصائب،لا تكادُ مصيبةٌ تفارقها حتى تنقض عليها أخرى ، فهناك مدائنُ ارتحل عنها الإيمان مبتئسا مذعورا إذ حلَّها الإشراك مبتسما مسرورا ، أما المساجد فهي تستحق الرثاء وتستوجب الإنجاد إذ عادت بِيعًا وكنائسَ وتحولَّ بها الأذان إلى أجراس ونواقيس ، كما أنّ مدارسَ العلم والمعرفة قد اندرست معالمُها وطُمسَ وجودُها مما يثير في النفس الألَمَ والحسرة .

أمّا المرابع الجميلة والحدائق الغناء والأشجار الباسقة والزهور المتفتحة النضرة فقد صوَّح نبتُها ويبِستْ أغصانها وجفت خُضرتها وتساقطت أوراقها وتغيَر كلُّ شيء جميل فيها .

ومما يضاعف الآلام أنّ الأندلسيين أصبحوا جَزَرًا وقِطعا مفرَّقة تنهشُهم الأحداث واستَحال حظُّهم السعيد السالفُ شقاءً وبؤسا . ويُبرز ابنُ الأبّار عنصر « العِرْضِ » كَلَبَ المأساة ليستثير هِمم الحَفصيين : فقد أقْسم الرومُ ألا تنَالَ أيديهم بالقسمةِ والتوزيع إلاّ نساءَ الأندلس المحجَّبات المصُونَاتِ .

واختار من مدائن الأندلس حاضرتها الكبرى : قرطبة وحاضرة الشرق بلنسية ، فإنّ حالتَهما وما تعاني كلّ منهما ما يَقْضي النَّفْسَ ويستنزف النَّفَسَ وإن كان ميّز بلنسية بتأكيد خاص [**البسيط**][15] :

وانصر عبيـدًا بـأقصى شرقهـا شرِقت عيونهـم أدمعـا تَهْمِـي زكًـا وخَسَا

وهو كما قلنا يشيد بما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الوفادة ، لكنه سرعان ما يتخذ ذلك وسيلة لخدمة الغرض المقصود لتحقيق هدفه فيوحي للأمير أنّ الإجماع والتواتر قائمان على أنه الوحيد الذي يجدر أن يُحيي الأندلس بمحق أعدائها [**البسيط**][16] :

وقـد تواتـرتِ الأنبـاء أنك مَـنْ يُحْيِـي بفتـلِ ملـوكِ الصفـر أنـدلُسَا

(15) د/ص 399

(16) د/ص 399

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويعود إلى بلنسية وقد نجحت سفارته تصحبه نجدة حفصية ، كاستجابة فورية ، اقتنع الشاعر أنّها كافية لإنقاذ بلنسية . وهكذا سيتمّ في نظره فتحٌ جديدٌ يذكّر بفتح مكة ، فاستحقّ منه هذا الحدث قصيدة على غرار قصيدة حسّان بن ثابت رضي الله عنه التي أنشأها بمناسبة الفتح . وقصيدة ابن الأبّار جاءت في وصف لأسطول الحفصيين الذي يقلّ على متنه أسودًا عظامًا، ومدح الأمير الحفصي الذي هو وحده الجدير بعلاج الخطب الذي حلّ ببلنسية .

لكن هذه النّجدة لم تستطع أن تُحقّق أمل ابن الأبّار لا في الإنقاذ ولا في دفع خطر الحصار ، مما جعل البلد يُقرر الاستسلام ، فكان ابن الأبّار هو المفاوض في هذا الأمر .

على الرغم من ذلك فإنّ الشاعر الوزير لم ييأس من استعادة بلده أو على الأقل من المحافظة على ما تبقّى من شرق الأندلس كدانية ومرسية لأنه وجد في تونس من يستجيب لندائه وينفعل لشعره ويتأثر لصريخه . فعاد إليها مرةً ثانية ليُناشدَ الأمير أبا زكريا إعادةَ الكَرّةِ لإنقاذِ الأندلس لا سيما وقد حمل إليه بيعةَ بعض مدنها [**الكامل**][17] :

هـــي دَارُك الـــقُصوى أوتْ لإيالـــةٍ ضَمِنـــت لهـــا مـــع نصرهـــا إيواءهـــا

وهو يعيد على مسامعه الآن أنباءها التي بثّها إليه في السفارة الأولى [**الكامل**][18] :

مـــولاي هـــاكَ مُعـــادةً أنباءَهـــا لِتُبِيـــلَ مـــنك سعـــادةً أبناءَهـــا

فالأندلس ليس لأهلها سبيل إلّا الضراعة والتوسل إليك،كما أن أهلها خلعت قلوبهم لباس الصبر ورداءَ السلوان،ذلك أنهم دُفِعوا دفعًا لتَفْتَرِسَهُم الخطوبُ بشتى أنواعها : تلك التي عرفتموها سابقًا وأخرى جديدة . وهكذا أشرفت على الهلاك والموت ، فلم يبق منها سوى نبضاتٍ متقطعة . وقد قدم صورًا لمآس حلّت ببلنسية بعد ضياعها ، وصار يشجع الأمير بأساليب متعددة من أجل إنقاذ الجزيرة التي تريد العدى الاستيلاءَ عليها ، وقد حاول أن يغريه لقيادة جيش النجدة بنفسه ، إذ يقول [**الكامل**][19] :

بشرى لأنـــدلسٍ تُـــجِبُّ لقـــاءَه ويُـــجِبُّ فـــي ذاتِ الإلـــه لقاءَهـــا

(17) د/ص 33
(18) د/ص 35
(19) د/ص 37

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كان ابن الأبّار يغتنم كلّ فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط ولاء وتبعية ، من ذلك قصيدته رقم (25) (ص 80) ، التي يسجل فيها بيعةَ بعضِ المدن الأندلسية لأبي زكريا ، وذلكس حوالي 1243/641 يقول [**الطويل**][20]:

إلى مَذهبٍ سَنَّتْه سبتةُ ، قاصدٍ ... به عدلوا عن زائغات المذاهب
ألاَ هذه « حمصٌ » تُناسِبُ طاعةً ... سجلماسةٌ في رفضها للمُناصبِ
وما خالفت غرناطةٌ رأيَ ريَّةٍ ... لتشمل أنوارُ الهدى كلَّ جانب
وجيّانُ لم تبرح كشِلْبٍ وطنجة ... مباريةً هوجَ الصَّبا والجَنائِب

إلى أن يقول :

لأندلسَ البُشْرى بنصرٍ خليفةٍ ... ضَروبٍ بنصلِ السيف زاكي المَناصب

ورفع للأمير أبي زكريا قصيدةً طويلة بمناسبة بيعة المرية عقب بيعة سبتة . ولعل مدنا أخرى بايعت أيضا وسُمّي هذا العام : عام الجماعة ، يقول [**البسيط**][21] :

لاَ مِرْيةٌ أنّ إهْطاعَ المريةَ في ... أعقابِ سَنَةَ للإجماعِ مِيعاد
عامَ الجَماعةِ ما اعْتاصَت ولا نغلَتْ ... فيمَا يُقرِّر جِسّانٌ وتَعْداد

وعندما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في شعبان 646 هـ/1248 م كان ابن الأبّار في بجاية . وبعد ذلك بثلاثة أشهر أنشأ قصيدة موجهة إلى أبي زكريا ، وكان ذلك بعد العفو عنه ، كلّها تحريض وإثارة لحميّة الحفصيين حتّى يسارعوا لإنقاذ الأندلس ، بأسلوب يدل أن الأمر هيّن ، وأن ليس بين الحفصيّين وبين القضاء على محتلّي بلنسية وغيرها سوى أيّام قليلة . فأرض الأعداء قد استوحشت وأذنت بافتتاحها إذ ليس وراء اللّيل إلا الصباح ، إنّهم ذئاب هيّجوا ليث الحرب والمعامع ، وقد صور الأعداءَ بأنهم ضعفاء ومنهزمون ، في حين صور الحفصيين في قوة واكتساح . وتحدث عن النجدة وكأنها أمر واقع ، يقول للأندلسيين [**المديد**][22] :

وعُدتِ أندلسٌ منه يوم ... هي لاستقباله في ارتياح

(20) د/ص 80
(21) د/ص 141
(22) د/ص 20 ــ 119

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إن يَكُـــن عيـــدا لنحْـــر وذَبْـــح كيـــف شاءت فالأعـــادي أضَاحِـــي
أحِمْـــى حِـــمْصٍ أباحُـــوا جِهـــارا وجماهـــا لـــم يُكـــنْ بالمُبـــاح
لا ويَحْيـــى المُـــرتضى لاهَنَاهُـــم بألبســـم القَـــرْح وردُ القَـــراح
إنّمـــا يَـــرْقُب ميقـــاتَ فتـــحٍ هـــو آتٍ فـــي ضَمَـــانِ النُّجَـــاحِ

ولم يتحدث عن نفسه إلّا في آخر القصيدة حيث أبرز فرحة عارمة بالعفو عنه إذْ يقول :

يَـــدُكَ العليـــا حَـــبَتْ كُـــلَّ حُذْيَـــا مَـــا لأرباحـــي بهـــا مِـــن بَـــرَاحِ
بُـــوركتْ مِـــن راحـــةٍ سَوْغَتْنِـــي فـــي بُكـــوري لَثْمَهَـــا أوْ رَوَاحـــي

كانت بيعة إشبيلية قبل سقوطها ذات أهمية وتأثير في بيعة الجزيرة وشريش كما يظهر ذلك من قوله[الكامل][23] :

لِلّـــهِ حـــمصٌ وَفَوزُهَـــا بسعـــادة هَـــدَتِ الجزيـــرةَ نحوَهـــا وَشَريشا

ويظهر جليا أنه عندما استقرت به الأحوال في تونس ، لم يستسلم للحياة الإدارية التي تولى فيها منصبا كبيرا . فلم ينس «القضية» ، بل ظلت هاجسَه في كل مناسبة ، ولذلك نجده يغتنم كل فرصة من أجل حمل تونس على إعلان الجهاد وإنقاذ المدن الأندلسية الضائعة أو المهدّدة فالقصيدة رقم(65) (ص 151) يبدو أنّه أنشأها إثر نزوله بتونس ملتجئا كما يفهم من قوله [الرّمل][24] :

قَـــرّت الحـــالُ بكـــم فـــي نِعمـــة أنطقتنـــــي بالقوافـــــي الشُّرَّدِ
تَصف الـــروضَ وقـــد غنّـــى بهـــا واصفٌ سجـــعَ الحَمـــام الغُـــرَّدِ

وهي مليئة بوصف شجاعة أبي زكريا وجهاده ، وتهديد الروم به يقول [25] :

إنْ يكـــن طاغيـــةُ الـــرّوم بَغَـــى فظُبَـــى الهنـــدِ لَـــه بالمَـــرْصِدِ
غـــرّه البعـــدُ وعـــن قـــربٍ يَـــرَى جزيـــةَ الكُفـــر تُـــؤدَّى عـــن يَـــدِ

(23) د/ص 404
(24) د/ص 153

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى غير ذلك مما كان يتصور وقوعَه على يد أميره الجديد .

ومن القصائد التي مدح بها أبا زكرياء واصفا أحواله الجديدة وحياته بتونس في ظل الحفصيين تلك التي مهّد لها بمقدمة غزليّة طويلة مادحًا الأمير بأوصاف مستفيضة من العلم والشّجاعة والكرم . وربط ذلك بجهاده للكفار بالأندلس . يقول آخر القصيدة [الطويل][26]:

وَهَـذِي ملـوكُ الـرُّوم تُشْخِص رسْلَهـا بِسِلْـمِك تَبْغِـي للسَّلامـة سُلَّمَـا
ويُغْـزى جَنـاب طَـالَ بالغـزو عهـدُه ويُفْتَـح بـابٌ كـان للكفـر مُبْهَمَـا

وهنا حقيقة هامة لم تسجّل في التاريخ أو على الأقل في تاريخنا ، وهي السّفارات الأرغونية أو غيرها إلى تونس في شأن تنظيم العلاقات الحربيّة والسلميّة بين الجانبين .

كان ابن الأبّار شخصية قويّة مفرطا في الإعجاب بنفسه ، وزادته الغربة حدةً في طبعه مما جعله يجأر بالشّكوى . وكان يبثّ هذه الشكوى خلال قصائده الاعتذارية وخلال نفثاته الحزينة التي كانت أشواقا لوطنه ووصفًا لجماله ، وترديدًا لذكريات جميلة في رياضه وحلقاته العلمية ومجالس أصحابه ومدارح ألعابه :

يقول شاكيا ضياعَه ، وأرجّح أن تكون هذه الأبيات في تونس أو بجاية [الكامل][27] :

لاَمَ المحبّـون الفـراقَ ولُمتـه لكنَّهـم سَئمـوا ولَمَّـا أسْأَمِ
ظَعنـوا وهـم قـد ودعـوا أو سلَّمـوا وظعنـتُ غيـر مـودِّع ومسلِّـم
فعلـيَّ فُلْـكُ البَواكـي إنَّنـي أُخـرِجْتُ مـن وَطنـي ولستُ بمُجْـرِمِ
وأُضِعْتُ يـومَ وُضِعْتُ فـي أرضٍ بِهـا يَغْـدُو الفصيـحُ معظَّمًـا للأعْجَـمِ
لا أستريـح بغيـر لَيـلٍ أليـلِ أشْكُـو تَطاوُلَـه ويَـوْمٍ أبْـرَمِ

وقد مرّت على الشاعر الوزير حقبٌ كان الحديث فيها عن نفسه ممزوجا بوطنه وقضيته . فالجراح ملكت عليه جوارحه واستبدت بها لا تخلو جارحةٌ من جرح ينزف

(25) د/ص 152
(26) د/ص 3ـ272
(27) د/ص 292

دمًا، فلا أمل في شفائه ذلك لأنه كوطنه عار أعزلَ أمام هجمات الخطوب والكوارث المتجددة ، وهو في صحراء قاحلة لا ماء ولا شجر بل إنه يسير في متاهاتها ليس له من سبيل ولا قدرة على التخلّص من الهلاك الذي يتربصه في كل ناحية كطائر مهيض الجناح . وحديثه عن وطنه مفعمٌ أبدًا بالأسى والكمد إذ أُسْلِمَ إلى العَدُو الذي هوى عليه بسيفه كالسفاح في حين غاب عنه منصوره الذي كان يحمي حماه ويحوطه بالأمن والأمان . يقول في ندب بلنسية [**الكامل**][28] :

مَلَكَتْ جوارحَه عليه جراحُه ... فَشِفَاؤه لا يُرْتَجَى وَسَرَاحُه
عارٍ لأبكَار الخُطوب وعُونِها ... غِيضَتْ مواردُه وهيضَ جناحُه
لم يعترضْه مَسَاؤه بمسَاءَةٍ ... إلاَّ وَضَاعفَهَا عَلَيْه صَبَاحُه

وَحَديثُه كمَدٌ عن الأفق الّذي ... تصف الجنانَ تِلاعُه وبِطاحُه
تجري حثيثًا تحتَه أنهارُه ... وتميس لِينًا فوقَه أدواحُه

وهو أسير شوقه لبلنسية وحدائقها وجناتها ولا سيما الرّصافة والغدير [**الخفيف**][29] :

لاَ تصدُّوا فربّما صدّات ... مستهامٌ لسَلْوةٍ مَا تصدَّى
جَعَلَ السّهْدَ في رضاكم كَرَاهُ ... واكْتَسَى في هواكمُ السُّقْمَ بُرْدَا

ثم يقول [30] :

يا سَقَى اللّه للرصافة عَهْدًا ... كَنَسيم الصَّبا يَرُقُّ وَيَنْدَى
وجنانًا فِيهَا أُهِيمُ حَنَانًا ... بَيْدَ أنّي حُرِمتُ فِيهِنَّ خُلْدَا
مُستهِلاً كأدْمُعِي يَوْمَ وَدَّعْـ ... ـتُ ثَراهَا النَّفاحَ مِسْكًا ونَدًّا
لَيتَ شعري هلْ يَرْجِعُ الدَّهْرُ عَيْشًا ... يَشْهَدُ الطّيب أنَّهُ كَان شُهْدَا

وكثيرا ما ردد تعلقه بوطنه وبخاصة بلنسية ، وهو غير قادر على السلو عنها ، لأنها

(28) د/ص 131
(29) د/ص 175
(30) د/ص 176

ماثلةٌ في قلبه ونفسه وهي ملء السّمع والبصر لأنّ ذكرياته فيها جميلةٌ لا تُنسى أبدا . [الوافر][31] :

إلـــى أوطانـــه حـــنَّ العميـــد فظـــل كأنّـــه غُصْنٌ يَميـــد
ومسقـــطَ رأسه ذَكـــرَ اشتياقـــا فـــذاب فـــؤادُه وهْـــوَ الحَدِيـــدُ
وَلـــو رام السلـــوَّ أَبَت عليـــه مَعَاهـــدُ عَهدُهـــا المَـــاضِي حمِيـــدُ

ويشبه نفسه بالشاعر العربي : الصِّمَّةِ بن عبد الله القُشَيْري الأموي [الوافر][32] :

ضَمِيـــرِي وَاجـــد بهَـــوى «المُصلَّـــى» كَوِجـــد أخـــي قُشَيْـــر بالضِّمَـــار
لآصِلِ بـــــه حسنت وطـــــابت كمـــا حُـــدِّثْتَ عـــن نَـــور العَـــرار
وَمَـــا جـــار الغَـــرامُ علـــيَّ حَتَّـــى تأكـــد بَيننـــا سَبَبُ الجِـــوار

وهو يسكر بذكرى بلده يهيجه قربها ، فإذا ابتعد عنها تَمثَّل ذكراها ، لذلك كانت أنْبَاؤها كؤوس خمر تغنيه عن الكؤوس المُدارة [الوافر][33] :

بِعَـــيشكَ عاطِنـــي أنْبَـــاءَ داري بهـــا أغنَـــى عـــن القَـــدح المُـــدار
إذا قَرَبَتْ يهِيـــجُ لهـــا اشتياقـــي وإنْ نـــزَحت يمثّلُهـــا ادِّكَـــاري

وهو في غربته كالحمام لا يفتر عن النّواح كلّما ذكر شرق الأندلس . وتسحّ عيونه بالدموع كأنما تسكب منها الغمام كلما لمع برق من تلك الجهات ، حتى أصبح محسودا على بكائه ونوحه من المطر والحمام [الطويل][34] :

أنـــوحُ حَمامـــا كلّمـــا ذُكِـــرَ الشرقُ وأبكـــي غَمامًـــا كُلَّمَـــا لَمَـــعَ البَـــرْقُ
وَيَغْبطُنـــي فـــي سَكْب أدمُعـــيَ الحيـــا وَتَحْسِدُنـــي فـــي نَـــدْب أرْبُعـــيَ الـــوُرْقُ

وفي القطعة (186 ص 400) أنات حزينة على الماضي الجميل لبلنسية وواقعها الحالك ، لذلك فهو يندبها ندب الطلول المندرسة مع أنخا آهلة بالسّكان ولكن أيّ

(31) د/ص 177
(32) د/ص 200
(33) د/ص 200
(34) د/ص 392

سكان ؟ ويتوجع باكيا ونادبا بلدته وَيخُصُّ منها عذوبة مائها وجناها[الطويل][35] :

بلنسيـــة يـــا عذبَـــة المَـــاء والجَنَـــى ... سُقِيت ـــ وإن أشقَيْتِ ـــ صَوْب الرَّواجِسِ
أُحِبُّ وأقلَـــى مـــنكِ حَـــالاً وَمَاضِيًـــا ... بِمُـــوحِشَة ألْـــوَتْ بِعَهْـــد الأوَانِسِ
ومِـــن عَـــجَبٍ أنَّ الديـــارَ أواهِـــلٌ ... وأندبُهَـــا نَـــدبَ الطلـــول الـــدَّوارس

وهكذا نجد ابن الأبّار يرتبط ببلده ووطنه الكبير والصّغير ، لذلك تجاوز ذكر الأندلس في ديوانه ثلاثين مرة ، وبلنسية بملاعبها وبساتينها ومصلاها وجسرها ورصافتها حوالي ثلاثين مرة أيضا ، وأنيشة ومرسية وجيان مرّتين ، كما ذكر كلاً من قرطبة ومالقة والمريّة وميورقة وشِلْب وإشبيلية بالإضافة إلى سبتة ، كما عبر برموز كثيرة عن أماكن لهوه وصباه في وطنه الصغير بلنسية .

ولو بقي لنا ديوانه كاملا لرأينا أكثر من ذلك وأصرح ، غير أنّ الرجل لم يكن في جو من الحرية ليعلن عن جميع شعره الذي عبر به عن خوالج نفسه كشخصية أندلسية فذة لاقت حجودا من ثلة لم تُقَدِّرِ مواهبه العظيمة ولا مكانته العلمية الكبيرة ولا انتماءه الحضاري الرّفيع .

ومهما يكن من شيء فإنّ بعض مؤلفاته أيضا مما يكشف لنا عن شديد تعلّقه بوطنه كالتكملة ، والحلّة السيراء ومعاجمه لشيوخ الأندلس وإعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب ، وخضراء السّندس في شعراء الأندلس ، وإيماض البرق في شعراء الشرّق .

كما يعتبر درر السّمط ومعدن اللّجين من الآثار الأدبية التي بكى فيها الأندلس عبر بكائه الحسين وآل البيت .

لذلك وطّن نفسه وألزمها أن تظلّ دائما وفية للوطن وذكرى مواطنيه : بسكب الدموع وتصعيد زفرات الأسى والحزن ، وقد أصبح بذلك مشهورا إذ يحمل راية الأشجان رغم كبر سنه وضعف جسمه .

يقول في قصيدة رائعة له مخاطبا نفسه [البسيط][36] :

وَطِّنْ على الدائبيْـــن : الدَّمْـــعِ والشَّجَـــنِ ... يـــا نـــادبَ الذاهبيـــن الأهْـــلِ والوَطَـــنِ
هَـــذا فـــؤادي كالبـــرق الخَفُـــوقِ أسًى ... وهـــذهِ أدمعـــي كالعـــارض الهَتِـــنِ
بِراحَتَـــي رايـــةُ الأشْجَـــانِ أحْمِلُهَـــا ... وإنْ غَـــدَا الجِسْمُ وهْنًـــا لَـــيس يَحْمِلُنِـــي

(35) د/ص 400
(36) د/ص 320

دار التركي للنشر

68، شارع الحبيب بورقيبة ــ 2000 باردو ــ تونس
الهاتف : 222.536 / 222.502 تلكس : 13.664 TN
كتب تشرف الأدب العربي : أصالة وتفتحًا

آخر ما صدر :

ــ تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام لمحمد بن عيسى بن المناصف (القرن السابع الهجري) تحقيق عبد الحفيظ منصور
380 ص (24 × 16)
9973.715.03.9
السعر : 8 د.ت. / 15 $

2 ــ بينات النبوة الخاتمة من القرآن والسنة والأخبار
تأليف مصطفى نقرة
311 ص (24 × 15,5)
9773.715.18.7
السعر : 8 د.ت / 15 $

3 ــ الصخرة العالية (مجموعة أساطير من التراث التونسي)
تأليف الطاهر قيقة
125 ص (21 × 14)
9973.715.10.1
السعر : 4 د.ت. / 8 $

4 ــ أضواء على الشيعة
الهادي حمّو
268 ص (24 × 16)
9973.715.09
السعر : 8 د.ت. / 15 $

5 ــ أبو الحسن الشاذلي
محمد بوذينة
208 ص (21 × 14)
9973.715.12.8
السعر : 7 د.ت. / 14 $

6 ــ كليلة ودمنة (منتخبات)
تقديم البشير المحدوب
216 ص (24 × 16)
9973.715.06
السعر : 5 د.ت. / 10 $

7 ــ أبو منصور الماتريدي
بلقاسم الغالي
324 ص (21 × 14)
9973.715.07.1
السعر : 8 د.ت. / 15 $

8 ــ شرح منازل السائرين إلى الحق المبين
تحقيق عبد الحفيظ منصور
جزء (1) 324 ص
جزء (2) 312 ص
(24 × 16)
9973.715.16.0
9973.175.17.0
السعر : 7د.ت./14$ ج1
7 د.ت./14 $ ج2

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

de l'autre côté de Gibraltar. La prise de Valence eut lieu le 17 Safar 636. Ibn-al-'Abbàr, assumant de nouveau sa responsabilité, repartit à Tunis, pour tenter une nouvelle fois, de convaincre le monarque hafside de la nécessité d'intervenir en Andalousie pour sauver ses coreligionnaires de Valence. Il utilisa pour y parvenir son génie politique et sa veine poétique.

Ni l'accueil favorable et chaleureux que lui avait réservé Abū Zakariyyā, ni le poste de chef de chancellerie qu'il lui avait décerné dans la capitale hafside, n'arrivèrent à lui faire oublier la cause de sa patrie. Sa fidélité à Balansiya et à al-Andalus était totale. Il finira sa vie à Tunis et consacrera tous ses écrits (notamment K.al Takmila et K.al Ḥulla al-Siyarā') et toute sa poésie à chanter l'amour éternel qui le liait à son pays natal, à savourer une nostalgie qui ne cessait de croître, et à glorifier et pleurer son paradis à jamais perdu. Sa fidélité presque légendaire à sa patrie a certainement été à l'origine de son renom et probablement aussi, l'une des causes de sa disgrâce et de sa fin tragique.

c) Ibn al-'Abbàr, a poet faithful to his homeland

The purpose of this paper is to study one of the most attractive and original aspects of Ibn al-'Abbàr's personality, namely his faithfulness to his homeland al Andalus and to his hometown Balansiya, the Spanish Orient of Moslem rule. In fact, Abù 'Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbàr al-qudā'ī(died in 658/1260) was not a simple and conservative historian or an ordinary court poet. He was rather a brilliant minister, a courageous and lucid statesman and a militant poet. Following the siege of Valence by King Jack I of Aragon in 635/1238, Ibn al-'Abbàr headed a delegation to the Hafsid Ifrikya in order to secure some help from the ruler of Tunis, Abu Zakarya, who was then at the top of his strength and glory. He read in the presence of the Hafsid prince, his famous poem rhyming in «sīn» (Siniya) in which he mourned his homeland and depicted his besieged hometown; he urged the Moslem prince to help save Islam which was threatened from the other side of Gibraltar. Valence fell on 17 Safar 636. Ibn al-'Abbār, once again made a journey to Tunis to try to convince the Hafsid monark of the necessity to save his moslem brothers in Valence. To reach his goal, he used his political cunning and his poetry.

Neither the warn and favourable welcome by Abū Zakariya, nor the post of head of chancellery he was offered in the Hafsid capital resulted in his forgetting the plight of his homeland. From Tunis, where he died, he recorded in his writings (K. Takmila et al-Ḥulla as-siyarà) and in his poetry the eternal love for his homeland. His almost legendary faithfulness towards his lost paradise was certainly at the origin of his fame; it was also probably one of the causes of his disgrace and tragic death.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

poeta militante y comprometido. Después del asedio de Valencia por el rey Jaime I de Aragón en el año 1238, Ibn al-Abbár, a la cabeza de una delegación, hizo rumbo a la Ifriqiyya hafsí para pedir ayuda al soberano de Túnez, Abú Zakariyya, que, en aquel entonces, estaba en el pinàculo del poderió y de la gloria. Recitó ante el emir hafsí su famoso poema cuyos versos tienen como rima común la letra «sín» (Síniyya). En él, lloraba la pérdida de su patria, bosquejaba un cuadro conmovedor de su ciudad natal asediada, e incitaba al emir musulmán a que salvase al Islam del peligro y amenaza que se cernían sobre él, procedentes del otro lado de Gibraltar. Valencia fue conquistada el 17 de Safar del año 636 de la era musulmana. Asumiendo de nuevo su responsabilidad, Ibn al-'Abbár volvió a Túnez para tratar, otra vez, de persuadir al monarca hafsí de que su intervención en al-Andalus era imprescindible para salvar a sus correligionarios de Valencia. Para ello se valió de su instinto político y de su vena poética.

Ni la acogida favorable y calurosa que le había dispensado Abú Zakariyya, ni el puesto de canciller que le había otorgado, en la capital hafsí, consiguieron que abandonara su causa. Su fidelidad a Valencia y al-Andalus era absoluta.

pasò los últimos años de vida en Túnez y consagró todos sus escritos (especialmente: al Takmila y.al Hullaal-Siyará) ytoda su poesia a cantar el amor eterno que le unía a su país natal, a saborear una nostalgia que no cesaba de crecer y a glorificar y llorar su patria perdida para siempre. El renombre de Ibn al-Abbár era, sin duda, el resultado de esa legendaria fidelidad a la patria que, probablemente, era también una de las causas de su desgracia y final trágico.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

b) Ibn al-'Abbàr : un poète fidèle à sa patrie

L'article se propose d'étudier à travers la poésie d'Ibn al-'Abbār un des aspects les plus attrayants et les plus originaux de sa personnalité à savoir sa fidélité à sa patrie al-Andalus et à sa ville natale Balansiyya, métropole du levant espagnol, le Šarq-al Andalus de l'époque musulmane. En effet, Abù Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbàr-al **qudā'ī** (mort en 658/1260) n'était pas un simple historien traditionaliste ou un poète de courordinaire ; c'était plutôt un ministre brillant, un homme d'Etat, courageux et lucide, et un poète militant et engagé. Après le siège de Valence par le roi d'Aragon Jacques 1er en 635/1238, Ibn al-Abbār prit le chemin de l'Ifriqiyya hafside, à la tête d'une députation pour solliciter aide et secours du souverain de Tunis, Abū Zakariyyā, alors au faîte de sa puissance et de sa gloire. Il récita, devant l'emir hafside, son fameux poème rimant en sin (Sīniyya) dans lequel il pleurait sa patrie, brossait un émouvant tableau de sa ville natale assiégée et invitait l'émir musulman à venir en aide à l'Islam menacé

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

3 — However, besides the subjective and official aspects, a third one can be pointed out, the personal aspect : the poet earnestly evokes his misfortunes in Moslem spain and Ifriqiyya, misfortunes which led to his killing by El Mustanṣir El-Hafsi.

We do not claim to have found a lot of things differing from what is found in history books, but there are details in Ibn al-ʾAbbār's poetry which historians did not mention. There are also precisions added to the poet's biography. Most important is the fact that one finds in Ibn al-ʾAbbār's poetry an explanation of events — especially those about Ifriqiyya — from a special viewpoint. Such an explanation might not be found in history books.

Had an opposite poetry — for example that relating the Muwahdine dynasty point of view — been discovered, there would be enough room for comparison. The Muwaḥdines had numerous poets in Marrakech (2). The reader is invited to examine the following lines where Ibn al-ʾAbbār regrets having distorted reality in his poetry (3) :

1 — I have been deprived of reason since I awkwardly served kings who are slaves.

2 — In my desires, I lied to them ; my desires should have been addressed to whom I pray.

Isn't Ibn al-ʾAbbār's confession sufficient enough for us to be careful if we want to know the truth, and but the truth ?

III

a) Ibn al-ʾAbbār: Un poeta fiel a su patria

El propósito de este artículo consiste en estudiar, a través de la poesia de Ibn al-ʾAbbàr, una de las facetas más atrayentes y originales de la personalidad de este poeta, a saber, su fidelidad a la patria, al-Andalus, y a su ciudad natal, la metrópoli del Levante español o del Šarq al-Andalus, Valencia. En efecto, Abú Abd Allah Muḥammad Ibn al-ʾAbbár al-Qudāī, muerto en el año 1260 (correspondiente al año 658 de la era musulmana), no era un simple historiador tradicionalista o un ordinario poeta cortesano sino, más bien, un ministro birllante, un estadista valiente y lúcido y un

(2) See a second sample of this poetry in part II of our thesis : «Troubles and Wars and their effect in Andalusian poetry», (page 204) when we compare between the poetry relating el Ma'mūn El Muwaḥhidi's viewpoint ant the opposite poetry relating the point of view of his rival about ruling i . e. his nephew Yaḥyā El Mu'taṣim.

(3) Ibn al-ʾAbbar's diwān page 178.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

rétractant et regrettant amèrement ce qu'il avait exprimé dans son Diwān, de façon contraire à la vérité, dit :

J'étais dans l'égarement, et, par sottise,
J'avais servi les rois, alors qu'ils ne sont que des esclaves (3)
Quel malheur que de les avoir suppliés.
Que n'aurais-je supplié celui que j'adore.

Cette attitude du poète suffirait-elle comme mise en garde, si nous tenons à atteindre la vérité, toute la vérité?

c) The documentary value in Ibn al-ʾAbbār's diwān

Professor Abdelssalim Harras has, for the first time, critically edited the works of the poet Ibn al-ʾAbbār. He has used the unique copy held at the royal library in Marocco under number 4602. Professor Harras' work constitutes a major contribution to the history of Andalusian poetry, for Ibn al-ʾAbbār was among the great personalities of the 7th/13th century, both on the political and literary levels in Moslem spain an Ifriqiyya.

A literary work may lend itself to two kinds of study :

1 — For a critic or a stylist it is the esthetic aspect of the work which matters.

2 — For a literature historian or a thought investigator, it is the documentary value of the text which counts.

Since the documentary value of a literary text has proved worthwhile after many studies on Andalusian poetry (1), we have tried to apply this methodology on Ibn al-ʾAbbār's diwān. This is how historical events stand out in this poetic work belonging to the 7th/13th century. Ibn al-ʾAbbār's poetry has subjective and official aspects :

1 — Subjective as regards Moslem spain : the poet conveys his feelings about his lost homeland.

2 — Official as regards Ifriqiyya : the poet supported the hafside policy ; he praised its princes and severely attacked its foes ; he encouraged and valued its faithful allies.

= dans la poésie Andalouse p. 204). Dans notre comparaison entre la poésie exprimant le point de vue de Ma'mun l'Almohade et la poésie correspondante de son adversaire et concurrent pour le Califat, son neveu Yaḥyā al Mu'taṣim.

(3) Diwān p. 178.

(1) See for example our articles:
— The documentary value in Ibn al-Khatib's poetry (Faculty of letters Review of Tatouane volume 2 n° 2/1987 page 191).
— The documentary value in Abdelkarim el-qaysī al-Andalousi's poetry (Annals of the university of Tunis n° 27/1988 page 118).
— The documentary value in Youssef III's poetry (Ibid. n° 28 / 1988 page 185).

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

1) Pour le critique, ou le linguiste, il s'agit d'en saisir la valeur esthétique.

2) Quant à l'historien de la littérature ou le chercheur de la pensée, leur but serait d'en déduire la valeur documentaire.

Et comme nous avons fini, après l'étude de maints recueils de poésie andalouse[1], par admettre la valeur documentaire du texte littéraire, nous avons essayé d'appliquer cette méthode à l'étude du Diwān d'Ibn al-'Abbār. Donc comment, nous parurent les évènements historiques dans ce texte poétique du 7e siècle (de l'Hégire)/13e siècle (de J.C)?

Ce Diwan est un recueil de poésie particulières et officielles :

1) Particulières, par rapport à l'Andalousie. En effet, le poète pleure sa patrie perdue, traduit sa tristesse, clame sa souffrance pour ce malheur ; il exprime sa nostalgie et son désir de la retrouver ; il la défend et exhorte les Hatsides à la récupérer.

2) Officielles, par rapport à l'Ifriqiyya. En effet, il s'intéressa à la politique de la dynastie Hafside, loua ses princes, invectiva ses ennemis, encouragea et glorifia ses alliés.

3) Cependant le Diwān comporte, entre le subjectif et l'officiel, un troisième aspect : il s'agit de l'aspect personnel. Le poète y exprime avec toute sa sincérité, les malheurs et les vicissitudes, qu'il rencontra aussi bien en Andalousie, qu'en Ifriqiyya, notamment les calamités qui, en Ifriqiyya, auront pour dénouement tragique sa mort par ordre d'al Mustansir le Hafside.

Bien que n'ayant pas la prétention d'avoir découvert dans le Diwān d'Ibn-al-'Abbār beaucoup d'éléments qui diffèrent de ce qui existe déjà dans les livres d'histoire, nous pouvons soutenir qu'il contient des détails qui ont été négligés par les historiens. De même, y a-t-il sur la vie du poète, des précisions qui ont été déduites et ajoutées.

Le plus important, c'est que nous y découvrons une explication des événements, surtout concernant l'Ifriqiyya, selon un point de vue particulier. Ce qui manque dans les livres d'histoire.

Le domaine de la comparaison serait vaste s'il y avait une poésie, correspondante à celle d'Ibn al-'Abbār, c'est-à-dire, celle exprimant le point de vue de la dynastie Almohade par exemple ; celle-ci avait d'ailleurs de nombreux poètes à Marrakech[2]. ET voici, Ibn al-'Abbār, lui-même qui, se

(1) Cf. à titre d'exemple:
— La valeur documentaire du Diwān d'Ibn al Ḥatib (in Revue de la Fac. des lettres de Tétouan - Année 2 n° 22 / 1987 p. 291).
— La valeur documentaire du Diwān de Abdelkérim al Qaysī al Andalousī (Annales de l'université de Tunis n° 27 / 1988 p. 119).
— La valeur documentaire du Diwān de Youssef III (Annales n° 28 / 1988 p. 185).

(2) Cf. Un deuxième spécimen de cette poésie: Tome II de notre Thèse (troubles et guerres =

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

— En el tercero y último grupo hablaba, con mucha sinceridad, de la serie de desgracias y vicisitudes que le habían sonbrevenido en al-Andalus y sobre todo en Ifriqiyya donde tendría un final trágico : al-Mustansir al-Hafsí ordenaría su muerte.

Los elementos históricos que hemos descubierto en el diván de Ibn al-'Abbár y que difieren de lo ya tratado en los libros de historia no son numerosos. No obstante, constatamos que contiene acontecimientos y detalles que los historiadores han descuidado. Por otra parte, hemos podido deducir otros elementos referentes al poeta que nos han permitido, por tanto, agregar nuevos datos y precisiones sobre su vida.

Pero lo más importante de esta obra es, sin duda, esa explicación peculiar de los acontecimientos acurridos, sobre todo en Ifriqiyya, de la que carecen los libros de historia. El ámbito de la comparación sería amplio si existiera otra poesía opuesta a la de Ibn al-Abbár; es decir, una poesía que expresase, por ejemplo, el punto de vista de la disastía almohade que contaba con muchos poetas en Marraquex(2) . Y he aquí al propio Ibn al-'Abbár desenganado y arrepentido retractándose de lo que había escrito antes porque no correspondía a la realidad(3):

Servía a los reyes desacertada y neciamente,
y a que los reyes no son más que esclavos.
Cometí un grave error al implorarles ;
debí implorar a los que adoro.

Es suficiente esta actitud del poeta para que estemos sobre aviso a fin de no confundir entre la pura verdad y la verdad alterada.

b) **La valeur documentaire de l'œuvre d'Ibn al-'Abbār.**

Le professeur 'Abdessalàm al Harras entreprit pour la première fois le rétablissement du Diwàn d'Ibn al-'Abbār en se fondant sur l'unique texte (manuscrit) déposé à la Bibliothèque Royale du Maroc sous le n° 4602. Par cet excellent travail, le professeur vient de combler une lacune non négligeable dans l'histoire de la poésie Andalouse. En effet, l'auteur du Diwān est une personnalité célèbre du 7e siècle (de l'hégire)/13 siècle (de J.C) sur les deux plans : politique et littéraire, aussi bien en Andalousie, qu'en Ifriqiyya.

D'une façon générale, le texte littéraire, pourrait être consulté sous deux angles :

(2) Cf. otro modelo de esta poesía en el segundo tomo de neustra tesis (Disturbios y guerras en la poesía andalusí p. 204), cuando hacemos una comparación entre la poesía que expresa el punto de vista de Ma'mun el almohade y la opuesta; es decir, la de su adversario y rival para el califato, su sobrino Yahyā al-M'utasim.

(3) Divan Ibn al-'Abbár p. 178.

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

grammar, eloquence, genelogy, etc... Tunis became then the center of scientists, doctors, engineers, technicians, teachers, men of letters and historians.

II

a) El valor documental del divan de Ibn Al-'Abbār

El profesor 'Abdeslàm al-Harràs ha sido meritoriamente el primero en desempolvar y glosar el diván de Ibn al-'Abbár basándose en la única copia que se conserva en la Biblioteca Real de Marruecos bajo el número 4602. Con ello se ha llenado una laguna no despreciable en la historia de la poesía andalusí ya que Ibn al-'Abbár era en el siglo XIII de la era cristiana una de las personalidades notables en los campos político y literario tanto en al-Andalus como en Ifriqiyya.

De un modo general, se investiga un texto literario desde dos puntos de vista distintos: mientras que los especialistas en crítica literaria o en estilística procuran apreciar su valor artístico y estético, el objetivo de los que se dedican a la historia de la literatura o a estudiar el pensamiento del autor consiste en intentar captar su valor documental.

Después del estudio de varias obras de poesía andalusí[1], hemos terminado, nosotros también, por reconocer este valor documental de los textos literarios y, por lo tanto, hemos procurado deducir el que se desprende del diván de Ibn al-'Abbár. Cuáles son, pues, los acontecimientos históricos que se infieren de esta obra poética del siglo XIII (correspondiente al siglo VII de la era musulmana).

Los poemas de que consta este diván pueden agruparse por temas:

— En el primer grupo el poeta lloraba la pérdida de su patria, al-Andalus, la anoraba, expresaba su tristeza y dolor por esa desgracia e incitaba vehementemente a los hafsíes a que la reconquistasen.

— En el segundo, se interesaba por la política de la dinastía hafsí, alababa a sus príncipes, increpaba a sus enemigos, alentaba y enaltecía a sus aliados.

---

(1) Cf. entre otros estudios:

— El valor documental del diván de Ibn al-Ḥatib (in Revista de la Facultad de Letras de Tetuán — Ano 2, n__22/1987, p. 291).

— El valor documental del diván de Abdelkarim al-Qaysi al-Andalusí (in Anales de la Universidad de Túnez n°27/1988, p. 119).

— El valor documental del diván de Yusef III (in Anales de la Universidad de Túnez n°28/1988, p. 185).

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

The sixth element deals with the attitudes of the Andalusian immigrants in general in Tunisia. They had an attitude of superiority over the local inhabitants. They were also conscious of their scientific and civilisational superiority, which caused them to live in closed small communities.

The seventh element was primarily political, and had the greatest impact on the decision of killing Ibn al-'Abbár. Some historians mention that what happened to Ibn al-'Abbár can be considered one part of the struggle between the Andalusians and Tunisians in high rank administrative positions. Upon that also lay the accusation against him that he expected « mishap and disaster to the Dynasty», and that he used to belittle al-Mustansir... who disfavoured him. Add to that Ibn al-'Abbár's preference for an Andalusian hegemony.

It is our opinion that the ingratitude of Ibn al-'Abbár towards his masters in Tunisia was based on political divergences. The only explanation for Ibn al-'Abbár's attitude is that he was motivated by political reasons. A reasonable explanation, if one considers that he was the only Andalusian on whom such a severe punishment fell. Ibn al-'Abbár was ambitious for power, rank and glory. Moreover, in one of his history books were found harmful remarks concerning the Khalifa al Mustansir and poems satirizing him.

We think hat all those elements together caused Ibn al-'Abbár's loss and not just one single element of them. But among them all, the political element was the strongest.

The Andalusian immigration to Tunisia started since the beginning of the 13 cent. A.D. under the reign of Abu Zakariyya al-Hafsi, who encouraged them to live in Tunisia, and who allured them with favors so much the new Dynasty needed their knowledge in the various scientific, literary, administrative and artistic domains. A renaissance had started in Tunisia which distinguished that century from the other eras in that country, so much so that we can call it the Era of Tunisian Renaissance.

The endalusians kept influencing Tunisia during centuries afterwards. This influence became part of the Tunisian-traditions. Had that influence been limited to the courts of princes and notables, it would have vanished. Their knowledge there fore flourished so much so that Tunis, the capital, became the goal of those who aspired for sciences and arts.

The Andalusians renewed many aspects, and introduced new ways, systems and specialisations which had an immediate and strong impact over the cultural life and modernisation in Tunisia. Especially in educational subjet matters, in building modern and great schools, libraries, book shopes. They were the most important professors and authors in Tunisia during that period. They were famous for their distinguished scientific experiments and discoveries, in medicine, education, architecture, history,

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

of January 6, 1260 in Tunis, upon the order of al-Khalifa al-Mustansir bi Allah al-Hafsî (d. 1277).

The second aspect upon which I will concentrate is to bring to light the importance of the presence of Andalusian scholars in Tunisia, and their impact on the various sciences and specialisations there.

Concerning the first element of our study, I should notice that Ibn al-'Abbâr reached Tunis in 1238. His misfortune was that his stay in Tunis coincided with the rule of its greatest Hafsi rulers, even of the founders of the dynasty itself. This fact makes the rulers very merciless towards any incident which may sap their rule.

I should notice first, in the tragedy of Ibn al-'Abbâr, that the norms of racial strengths in the Islamic society had started to change after the superiority of the Arab race, the situation became different and the strong ruling families changed especially in the countries of North Africa.

The Hafsid princes were Berbers originating from the High Atlas mountains of Morocco. They had their own Berber ways which showed clearly in their strict rule in the interior or in their fierce confrontation with the outside powers endangering their interests and peace.

We can therefore easily imagine the fire of fury with which the Khalifa burned those un loyal to the ruler. Absolute fidelity to the Dynasty and personal self denial in order to secure its internal and external integrity were conditions not entirely part of Ibn al-'Abbar's character.

The second element was racial. Ibn al-'Abbâr originated from an old Arab family deep rooted in its Kudhâî'ancestry. He was very proud of his noble Arab origins and felt superior over those who were not Arabs, no matter what their positions were. So it was most probable that the relation of Ibn Al-'Abbâr, the distinguished Arab, with his masters, the Berber Bani Hafs, was a relation of ethnic competition in which the examination of intentions and of ethnic belongings was included.

The third element concerns the excellent training of Ibn al-'Abbâr in administrative affairs, a struggle for high posts in Tunis started. As a result, the Khalifa feared Ibn al-'Abbâr 's betrayal and treachery.

The fourth element has to do with his feeling of superiority and with his stubborn positions and his pride in them. This made him an easy target for criticism and finally annihilation. He was finally accused of having expected « mishap and disaster to the Dynasty''.

The fifth element is that Ibn al-'Abbâr was accused of tashayyu, or having Shiite leanings towards Ali Ibn Abi Talib and his family. Although it is quite difficult to believe such an accusation for several reasons, the context it was put in was one causing a death sentence. It is worthwhile mentioning, that the Tunisian Dynasty is considered among the strongest opponents of Shiisme, especially at that time in Tunisia, after the complete extermination of the Fatimids in Tunis at the hands of the Maliki Sunnis.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

Sixième point compromettant : Ibn al-Abbar faisait partie de ces immigrants andalous qui, conscients de la supériorité de leur culture sur celle de la population d'origine locale, finissaient par se constituer en société à part et à vivre en petites communautés closes sur elles-mêmes.

Cette dernière constatation nous amène à une septième cause de la condamnation d'Ibn al-Abbar. Ainsi que le pensent quelques historiens, l'aventure d'Ibn al-Abbar n'est qu'un épisode de la lutte entre Andalous et Tunisiens dans les hautes sphères de l'administration. D'autant plus qu'Ibn al-Abbar ne se privait pas de critiquer al-Mustansir lorsque ce dernier manifestait à son égard quelque défaveur.

A notre avis, la prise de distance d'Ibn al-Abbar envers les maîtres de la Tunisie était surtout basée sur des divergences de vues politiques, et c'est là que gît l'explication ultime du sort qui, seul parmi les Andalous, le frappa finalement. Ibn al-Abbar était ambitieux ; il aspirait au pouvoir, aux hautes dignités, à la gloire. Ne découvrit-on pas dans un de ses livres d'histoire des réflexions — et jusqu'à des poèmes satiriques — qui ne pouvaient qu'offenser le Khalifa al-Mustansir ?

C'est l'ensemble de ces données qui, nous le pensons, expliquent la perte d'Ibn al-Abbar, mais un ensemble de données où domine tout de même, on le voit, la réalité politique.

L'immigration en Tunisie des Andalous commença au début du XIIIème siècle sous le règne de Abou Zakariyya al-Hafsi qui les attira par la promesse d'avantages particuliers. Le nouvel Etat avait besoin de leurs services dans les domaines scientifique, littéraire, administratif et artistique. Ce fut le point de départ d'une renaissance qui valut à la Tunisie une de ses plus belles époques. Tunis, la capitale, devint un centre d'attraction pour quiconque aspirait à la science et aux arts.

Les Andalous furent les précieux agents d'un considérable renouveau civilisationnel et technique en Tunisie : rénovation des études, construction d'écoles, de bibliothèques, installation de librairies. C'était l'époque où professeurs et écrivains célèbres vivaient et produisaient en Tunisie, ainsi devenue centre de rayonnement culturel où se multipliaient expériences scientifiques, découvertes en médecine, où se fondaient les institutions les plus variés d'enseignement : architecture, histoire, grammaire, éloquence, science héraldique, etc. Tunis était à cette époque la **kaba**, le foyer d'un véritable univers culturel arabo-musulman.

c) Ibn al-'Abbâr and his epoch in Tunisia

I have tried in this study to concentrate upon two aspects that have been on my mind for a long time. The first is the elements behind the death santence and the killing of the scholar Ibn al-'Abbâr (killed in the morning

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

dynastie. Les dirigeants politiques en Tunisie ne s'en montraient que plus intransigeants en face de tout ce qui était susceptible de porter atteinte à leur pouvoir.

Il convient de noter ensuite — et ceci n'est pas sans rapport avec la tragédie d'Ibn al-Abbar — qu'à cette époque l'équilibre ancien des forces raciales dans la société islamique avait commencé à se modifier. La race arabe avait désormais à compter avec de puissantes familles régnantes sur les pays d'Afrique du Nord et qui n'étaient point arabes.

Les princes hafsides étaient des berbères originaires du Haut-Atlas marocain. Ils avaient leurs propres coutumes qui se reflétaient dans les rigueurs de leur politique intérieure et dans la dureté de leur confrontation avec les forces étrangères qui pouvaient mettre en danger leurs intérêts et la paix intérieure de leurs Etats. Le khalifa réagissait violemment à toute tentative de résistance et n'hésitait pas à livrer au feu leurs auteurs. L'intégrité interne et externe de l'Etat exigeait, aux yeux des souverains, une fidélité absolue et une totale abnégation personnelle, toutes dispositions qui n'étaient pas spécialement inscrites au tempérament d'Ibn al-Abbar.

Rappelons, en second lieu, qu'Ibn al-Abbar était originaire d'une vieille famille arabe bien enracinée dans sa souche ancestrale. Il était très fier de ses nobles origines arabes et éprouvait à l'égard des non arabes, quelle que fût l'échelle de leur position sociale, un véritable sentiment de supériorité. Il est fort probable que son comportement d'arabe distingué envers ses maîtres Banî Hafs berbères n'ait pas été exempt de toute prétention ethnique pour laquelle il importait de faire valoir ses titres de noblesse.

Ibn al-Abbar — et nous touchons ici une troisième cause — avait de remarquables talents d'administrateur et manifesta la prétention d'accéder, coûte que coûte, aux plus hauts postes du pays. Le khalifa ne pouvait, bien sûr, qu'en prendre ombrage et même se méfier des fins, à ses yeux sans doute perfides, poursuivies par Ibn al-Abbar.

En quatrième lieu, au sentiment de supériorité dont était animé Ibn al-Abbar s'ajoutait la fière obstination avec laquelle il défendait ses propres vues, ce qui faisait de son personnage une cible exposée à la critique et à la vengeance qui tue. Ne l'a-t-on pas finalement accusé d'avoir prédit les malheurs et finalement la chute de l'Etat ?

Un cinquième motif de la condamnation d'Ibn al-Abbar fut l'accusation de « taṣhayyuʿ », c'est-à-dire de préférence pour « Ali et sa famille. Il y a, certes, plusieurs raisons de mettre en doute le bien fondé d'une telle accusation. Il reste qu'elle fut formulée de telle façon qu'elle ne pouvait qu'aboutir à une sentence de mort. Il ne faut pas oublier, en effet, qu'à cette époque, après l'extermination complète en Tunisie des Fatimides, les sunnites malékites, nouveaux maîtres du pays, étaient de farouches adversaires du shiisme.

En efecto, Ibn al-ʾAbbár se aferraba orgullosamente a sus ideas y opiniones y se exponía, por consiguiente, a las críticas y a la venganza y represalia. Además, se le acusaba de «tashyyu'»; es decir, de ser partidario de Ali y sus descendientes. No olvidemos que después del total exterminio de los fatimíes en Túnez, los nuevos jefes del país, sunnitas malikitas, eran enemigos mortales del chiísmo.

Por otra parte, Ibn al-ʾAbbár, administrador de talento, tenía empeño en desempeñar uno de los altos cargos políticos del país. Estaba dominado por la ambición de poder y gloria y era natural que el califa se sintiera celoso y ofendido y desconfiara de sus pretensiones «pérfidas».

Estos eran, creo, los motivos más importantes que contribuyeron a la desgracia y final trágico de Ibn al-ʾAbbár.

La inmigración de los andalusíes en Túnez empezó a principios del siglo XIII bajo el reinado de Abú Zakariyya al-Ḥafsí quien los atrajo prometiéndoles ciertas ventajas particulares. El nuevo Estado necesitaba de sus servicios en los campos científico, literario, administrativo y artístico. Fue el arranque de un renacimiento que proporcionó a Túnez una de sus épocas más resplandecientes y la capital se convirtió en un punto de atracción tanto para científicos como para artistas.

Los andalusíes emprendieron considerables renovaciones culturales y técnicas en Túnez: renovaron la enseñanza, construyeron escuelas y bibliotecas, instalaron librerías etc... El país se convirtió en un centro de esplendor cultural en el que se multiplicaban las experiencias científicas, se realisaban notables hallazgos médicos y en el que se dio un fuerte impulso a los estudios sobre todas las ramas del saber: arquitectura, historia, gramática, oratoria, ciencia heráldica etc... Le capital era, en aquel entonces, un foco de un verdadero universo cultural arabo-musulmán.

b) Ibn Al-Abbar et son époque en Tunisie

J'ai essayé dans cette étude de synthétiser mes recherches autour de deux axes majeurs : les motifs de la condamnation à mort de Ibn al-Abbar, et l'impact de la présence andalouse en Tunisie.

Comment'en est-on arrivé à la sentence de mort portée contre l'érudit Ibn al-Abbar et à son exécution au matin du 6 janvier 1260, à Tunis, sur les ordres de al-Khalifa al-Mustansir bi-Allah al-Hafsi (m. 1277) ?

Rappelons d'abord qu'Ibn al-Abbar arriva en Tunisie en 1238. La malchance voulut que son séjour y ait coïncidé avec le règne du plus puissant des Hafsides, plus puissant même que ne le furent les fondateurs de la

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

Les Résumés

I

a) Ibn al-ʾAbbár y su epoca en Túnez

En el presente estudio he procurado sintetizar mis investigaciones y centrarlas en dos puntos principales: los motivos de la condena a muerte de Ibn al-ʾAbbár y los efectos de la presencia andalusí en Túnez.

El califa al-Mustansir bi Alá al-Ḥafṣí (muerto en 1277) sentenció a muerte al erudito Ibn al-ʾAbbár y lo ejecutó en la mañana del 6 de enero de 1260 en Túnez. Influyeron en esta decisión, entre otros, los siguientes motivos:

Recordemos, primero, que la llegada de Ibn al-ʾAbbár à Túnez en el año 1238 coincidió desafortunadamente con el reino más poderoso y rigoroso de la dinastía ḥafṣí y que el antiguo equilibrio de las fuerzas raciales en la sociedad islámica empezó, por aquel entonces, a modificarse:

En efecto, los intransigentes diregentes ḥafṣíes se distinguían en aquella época por el rigor de su política interna y por la dureza de su lucha contra las fuerzas extranjeras que intentaran poner en peligro sus intereses. Para preservar la paz y la integridad del Estado, el califa no vacilaba en eliminar y ejecutar a todos los rebeldes y disidentes y exigía de los ciudadanos una fidelidad y una abnegación absolutas, y ello era inconciliable con el carácter de Ibn al-ʾAbbár.

Por otra parte, los emíres hafsíes y las poderosas familias que reinaban en el norte de Africa no eran árabes sino bereberes originarios de Alto Altas marroquí. Ibn al-ʾAbbár, en cambio, descendía de una vieja familia castizamente árabe y, por tanto, se vanagloriaba siempre de su noble origen profesando un verdadero sentimiento de superioridad con relación à los no árabes cualquiera que fuese su posición social.

Era asimismo uno de aquellos inmigrantes andalusíes que, concientes de la superioridad de su cultura respecto a la de los nativos, se recluían en comunidades aisladas constituyendo una sociedad aparte.

Además del rigor de los dirigentes hafsíes y del sentimiento de superioridad que Ibn al-ʾAbbár profesaba hacia ellos, la divergencia de tendencias y opiniones entre éste y aquéllos y, sobre todo, las pretensiones políticas de éste eran otros motivos importantes que influyeron en esta decisión:

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

moriscos » y « La problemática morisca a través de los escritos occidentales y árabo-musulmanes. »

Vemos un gran parecido entre estos encuentros modernos y aquellos que, entano, ocurrian entre los hombres más versados en las distintas ramas del saber. En efecto, estos hombres de sapiencia se aviaban de lo necesario y emprendian largos y penosos viajes, yendo en ciudad y de país en país, en busca de otros ilustres sabios, maestros o alfaquies para recibir nuevos conocimientos, intercambiar luminosas ensenanzas y ampliar horizontes. Así, el mismo sabio que en su tierra veíamos rodeado de discípulos, contestando a sus preguntas y dudas y juzgando sus aptitudes, lo veíamos en otros lugares convertido en un alumno que intentaba, a su vez, satisfacer su sed y anhelo de saber recibiendo ensenanzas sobre materias y cuestiones determinadas y, al final del cursillo, procurando demostrar su suficiencia ante sus muevos maestros. Estos modestos sabios de antano, con sus alumnos eran tan generosos cual una fuente inagotable y, con sus maestros, tan ávidos de saber cual una sed inextinguible.

Algo semejante ocurre con los distinguidos talentos contemporáneos. El investigador moderno que sube al estrado y diserta sobre cierta materia embargando la atención de los presentes y demás participantes en el encuentro, cual un alumno, vuelve a su asiento a prestar oídos y enriquecer sus conocimientos con la disertación investigativa de otro maestro que hace un momento aprendía de él.

Como acabamos de ver, estos encuentros modernos tienen raíces muy antiguas y no creemos, por tanto, que los medios de comunicación actuales, tan desarrollados y tan rápidos, que van acostumbrando a la gente a desarrollar una actividad pasiva de exclusiva recepción matando así sus facultades intelectuales, puedan desbancar a esta lucrativa y secular tradición que tiene un encanto especial y cuyo fruto es, ante todo, el progreso de la investigación cientifica.

El Director de la revista
CHEIKHA Djomaâ

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

Presentación

Pese al dificil mercado de la prensa especializada y a los obstáculos, previstos e imprevistos, que hemos encontrado, he aqui la revista DIRĀSĀT ANDALUSIYYA que cumple su promesa y reaparece sin ningún retraso. En efecto, nos mantendremos siempre fieles a nuestro propósito y dichos obstáculos, lejos de frenarnos, nos alientan a proseguir nuestra tarea que consiste en velar por un inmarcesible patrimonio humano cuyo néctar seguimos libando.

Entre diciembre de 1988 y junio de 1989, fechas de la aparición del primer y segundo número de nuestra revista, se han celebrado tres encuentros que dejan sobrada constancia del interés y la atención creciente que se está prestando a los estudios andalusíes :

— En Túnez y a lo largo de una semana (del 3 al 10 de febrero de 1989), universitarios espanoles y tunecinos participaron en un fecundo encuentro, organizado por el Centro de Estudios y de Investigaciones Económicas y Sociales de Túnez, sobre « El patrimonio andalusi y su influencia, tanto en el pasado como en la actualidad, en la cultura árabe y espanola. »

— Por otro lado, la Universidad de Alicante, con el patrocinio de la Consejería de Cultura, Educación y Ciencia de Valencia y la colaboración del Ayuntamiento de Onda, organizó en esta maravillosa ciudad andalusi, del 20 al 22 de febrero de 1989, un encuentro sobre la figura del gran poeta e historiador valenciano Ibn al-ʾAbbār(1).

— Por último, el Centro de Estudios y de Investigaciones otomanas, moriscas, de documentación y de información (CEROMDI) celebró en Túnez, del 15 al 19 de marzo de 1989, el IV Simposium Internacional de Estudios Moriscos que versó sobre « El Pensamiento religioso de los

(1) La revista «ŠARQ AL-ANDALUS» se comprometió a publicar las ponencias pronunciadas en español o francés mientras que «DIRĀSĀT ANDALUSIYYA» prometió dedicar un número especial à Ibn al-ʾAbbár e incluir en él las ponencias pronunciadas en árabe.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

Revue d'Etudes Andalouses

Revue scientifique spécialisée dans les études concernant l'Espagne Musulmane

Fondateur et Directeur
Djomaâ CHEIKHA

Comité Consultatif : Abdeslam Mseddi, Mohamed Yalaoui, (Tunisie) - Abdelkader Zamama (Maroc) - Mikel De Epalza (Espagne)

2 numéros par an qui paraîtront en Janvier et en Juin

Prix du numéro :

— En Tunisie : 3,000 DT
— Pays arabes : 4,000 DT
— Autres pays : 5,000 DT

Pour toutes correspondance et abonnements écrire à l'adresse suivante : Cheikha Djomaâ B.P. N° 51, 1008 Tunis Bab Manara - Tunisie. Tél : 227-616

Le Montant de l'abonnement peut-être réglé soit directement au C.C.P 543-94, soit par chèque bancaire.

Les opinions émises dans les articles publiés n'engagent que leurs auteurs.

Les manuscrits, publiés ou non, ne seront pas rendus à leurs auteurs.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

Revue

D'ETUDES ANDALOUSES

«DIRASAT ANDALUSIYYA»

JUIN 1989 N° 2 (Spécial) : Ibn al-Abbar Dhou El Kaâda 1409

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية
1409 - 2

: 1390/11/19 : 1368/03/15
1409 - 2

(3 - -1 1)
(1 - 2 2)
(2 - 3 4)
:
|
(1 - 5 5)
|
(26 - 6 31)
:
|
(85 - 32 116)
:
|
(15 - 117 131)
:
|
Abstracts (13 - 132 144)
|
Presentacion (2 - 145 146)
:Cheikha Djomaa
|
(2 - 147 148)